رواية

شريف عيسى

قتل بسعر رمزي

وغد في طريقه إلي الجنة

ساحر الكتب

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -
ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكترونى:
baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
(+202) 01016685583
(+202) 01110094625

اسم العمل: قتل بسعر رمزي - رواية
المؤلف: شريف عيسى

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
رقم الإيداع:
2024/2474
الترقيم الدولى:
9789778172836
تصحيح لغوي: حنان الألفي
صورة الغلاف: هاجر صالح مهران
تصميم الغلاف: سلمى صبحي
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى 2024

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطى مسبق.

إهداء

- إلى روح من ربياني صغيرًا، آمل أن أرتقي دومًا وأضحى ذلك الصالح الذي يسعى جاهدًا لعدم انقطاع أعمالكما في الدنيا، وأرجو أن نجتمع في الجنة.

- إلى كل ضحايا الحروب، بخاصة شهداء منطقتنا.

لم يندم ابن آدم القاتل إلا بعدما نجح في قتل أخيه.

خطأه لم يُدرك إلا عندما أراد إخفاء جثته.

ومع حسرته، لم يفهم ذنبه الأهم، لقد بات رمزًا لأبشع الخطايا على مر العصور.

مقدمة..

أتجه لأن أحكي قصة مكتملة الأطراف عن رجل وامرأة، وشخصيات أخرى غير مؤثرة، وبلد من الممكن أن يكون معروفًا لديك، أو لم تسمع عنه، بلدة محددة أو أي بلد، هنا بجوارك.

ومن الممكن كون الشخص مكانًا، إشارة، تصرفًا بعينه أو إنسانًا بشريًا قابلته في أحد المواقف بهيئة غير بشرية.

هناك إمكانية تشابه المواقف لما يحدث، أو عدم مشابهتها لأي من خيال أحد.

فإذا كنت تقرأ لتستمتع فلا تشغل خيالك، وإذا حاولت الفهم كل ما عليك توظيف -ما تقرأ- الأمور في غير مصابها.

1

بعد الانتهاء من كل ما أرتكبه، أبدأ رحلة الانتظار، يغمرني الملل، يقتلني الثبات، وتتآكل حماستي، يفرض التفكير إفراط التوتر، أتعايش مع إحساس قرب ضياع الفرص وتأنيب الضمير على عدم التحرك من قبل، فتتهلهل أفكاري، حتى أشعر بكل خلايا جسدي تأمرني بالتحرك.. في تلك اللحظة، أمضي مع جهلي بإجابة السؤال: هل هذا هو وقتي المثالي، أم لستُ مثاليًا للوقت؟ هنا يقبع الأمر برمته.

في ميعاد ليس بمناسب، أقعد برفقة عجوز في مقهى فارغ جوار بيتي الراسخ بضاحية مدينة في بلد منقسمة إلى دولتين، معه تتوقف عقاربُ الساعة في مُخيِّلتي، لا أحتاجُ إلى معرفة مكاني، أو الوقت، نتراقصُ برفقة قطع الشطرنج، بلا هدف للفوز نلعب، ليس بقريبٍ أو بصديقِ أحد أقاربي، بل جار احتسَبني ابنه واحتسبتْه أبي، هو كل وقتِ فراغي، كل ترتيباتِ أفكاري المُبعثرة، ووراء جميع قناعات اختياراتي فيما مضى وما سيأتي، أبيض الوجه لا يُعكِّر نورَ وجهه سوى علامةِ سجوده، وتعبيراتُ ابتسامته الثابتة تُحرِّم حركةَ جفنك، يحسدني الكل على قربي منه، أُمنح الاحترام والتقدير الزائدَيْن إكرامًا له، حتى صاحبَ اسمي اسمَه في كلِّ المجالس.

أبصره وقد فاض إشراقه في الفترة الأخيرة مُذ بدأت الحرب الأخيرة بين شعب دولتي وتجهيزاته البدائية، وبين

الدولة الأكبر والأقوى في البلد، أشعر ترقبه كثيرًا من الوقت حتى يرى أهدافًا يتمناها تتحقيق، وستكون بدايتها هذا الحرب، لكني أختلف معه، لا أجد فائدة مما يدور حولنا، كل تلك الانقلابات لن تُحقق ثمارًا ملموسة سوى المقاومة البائسة التي ستسبب لبقية المدن المجاورة الخراب كما حدث لتلك المدينة موقع الحرب، موتاها مدنيون، جميعهم لم يتورطوا في النزاع، والأغلب نساء وأطفال، والقتلة غير مُلامين. المفقودون لا آثر لهم، وجثثهم إما تحت أنقاض العمائر المدمرة، أو تناثر رمادها متطايرًا مع دخان الحرائق، المباني كأعواد مشط مخرب يحمل أعوادًا متباعدة، بينهم فراغ الأعواد المكسورة، المؤسسات انهارت وذمرت، المستشفيات قُذفت والمدارس، والنفوس والكرامة أسرى حرب، وحتى الآن لا نتيجة تذكر.

محظوظان أنا وصاحبي لابتعاد مدينتنا عن مواقع الحرب، مدينتنا تحت حماية الدولة الأقوى والأكثر أمنًا، أنا وصاحبي سكان أصليون بهذه البلد لكن جنسيتنا لا تنتمي إلى إحداهما، فنحن نحمل جنسية وسطية بين الدولتين تُمنح فقط للسكان الأصليين الذين يرغبون في السلام، جنسية مستحدثة من قِبل قوانين الحكومة الأكبر للدولة الأهم، جنسية تمكننا العيش هادئين مكرمين بلا خوف، تمكننا بالعيش بهذه المدينة تحت حماية حكومتها، حكومة دولة منشأة حديثة في الماضي القريب داخل هذا البلد، حيث وفدت مجموعة من فئة منبوذة لا يملكون حق بيت ولا مأوى، طلبوا من أهل

هذا البلد الأصليين العيش معهم، فتبرع أجدادنا ببعض من المنازل، ومع الوقت أنتزع الباقي بالقوة، وأخرى بالحروب، حتى قُسمت البلد بين الدولتين إلى مدن، وأضحت تلك الفئة المرفوضة دولة تملك المدن الأهم والأكبر، ذات سيادة أقوى من أصحاب الأرض والحق، وذات قوى عظمى وتأييد عالمي، وتزامن هذا بضعف حكومة المكان الأصلية ودولتها، حتى مع مرور مدة صارت ضائعة مُهملة إلى أن باتت تحت تحكم كامل مخفي من الدولة الأكبر.

لذا، فالحرب ليست حربًا منظمة بين سيادة دولتين، بل هي حرب بين مجموعة من الأفراد المؤمنين بالقضية ومقاومة الغزاة المستترين، وبين دولة من أكثر الدول تنظيمًا وقوة وتجهيزًا بهذا العالم، كفتان لا يستويان، وحرب متوقعة نتائجها.

آثار الحرب ممتدة بكل المدن، الناس خائفون، كل الأبواب مغلقة بإحكام، البيوت والمحالات والشركات، كل يهاب الموقف، حتى بعد الإجبار الدولي على الإيقاف المؤقت للحرب، لكن حقيقة عودة الحرب لعنة لا يستطيع وجدان أحد إنكارها، لذا فالجميع يستمتعون بما تبقي من وقتٍ بمنازلهم وأمانهم المؤقت قبل لحظات الموت المفاجئ.

هناك مجموعة من الأفراد المختلفين ممن يحملون الجنسيات الوسطية وجنسيات مختلفة، ما بين شعب الدولة الأكبر ولاجئين سياسيين وجنسيات مستقطبة تعمل بوظائف بحثًا عن الرزق، اتفقوا بطريقة شديدة السرية على وقفات

احتجاجية لا مثيل لها اليوم بميادين وسط المدينة، كثيرًا ما أجل موعد تلك الوقفات خوفًا من تصرفات الحكومة وتجنب بطشها، وكان الاتفاق هذه المرة الأكثر سرية وإحكام، حتى لا تعلم عنه الحكومة. الاحتجاج سيكون على التجاوزات التي حدثت بالحرب من قبل الدولة ووقف الحرب نهائيًا، وسيشارك أكبر عدد في تاريخ الوقفات الاحتجاجية بالمدينة، وسننضم أنا وصاحبي العجوز -الذي أرغمني على الانضمام- إلى تلك الوقفة بعد صلاة الظهر.

منذ يومين بدأ القرار العالمي بإيقاف الحرب مؤقتًا، وبعد ذلك الحين أستعجبُ من تصرفات العجوز أحيانًا، اليومُ شديد الحرارة ونحن وقتَ الظهيرة، وصاحب هذا المقهى أجبره صاحبي على الفتح رغم رفضه وارتياعه، ولم أفهم، لماذا آتى بنا إلى المقهى! كان بإمكاننا التحدثُ واللعب في البيت، وكأنه لا يتأثر بالأحداث، سعيد بما ترتكبه مقاومة لا يستطيع مشاركتها الحرب.

الآن يُحرِّك حاجبَه الأيسر مُعلنًا اتخاذَ قرارٍ ومُمهِّدًا لتنفيذ حركته، يحرك الحصان تجاه موضع تهديد قطعتَيِ الوزير والملك، يا لغبائي! لقد بادرتُ بحماية قطعة الحصان دون أن أنتبه لحماية الوزير، ظهرَتْ عليّ تعبيراتُ المفاجأة، فقال:

- مات وزيرك.

نطقها وأردف:

- لم تكنْ حركتك السابقة خاطئة، هي صحيحة، لكن لم يكنْ

هذا الوقت الملائم لتنفيذها.

ومع ضحكةٍ يائسةٍ ممزوجةٍ بخيبة أمل عليّ مجاراته في اللعبة لأقول:

- البارحةُ كان الأمر مماثلًا، ولُمتني على عدم تنفيذ حركةٍ مشابهة.

حرك شفتيه أكثر حتى برزت أسنانه وخرج صوت سعادته المألوف وهو يتلفظ:

- كل وقتٍ له ظروفه، وكل ظرف له حركاته في أوقاته المثالية.

ولهذا لا أملّ من خسارتي معه، بسبب هذا الحوار بيننا كل يوم، لكني أخبط على كفيّ معترضًا على خسارتي الحتمية. لم يستطغ إخفاءَ ضحكاته، ويهمُّ بلكزي في كتفي وهو يتلعثم بالقليل من شتائمِ العجائز، ويمسكني من ذراعي محاولًا لَويَه وهو يردد:

- كفاكَ محاولات، لن تستطيع هزيمتي في شيء، وبالأخص تلك اللعبة.

تحرك جزئي العلوي من الجسد قائمًا مقتربًا من منضدة القهوة، مسرع الرد:

- بل العيب في جديتك المفرطة مع تلك الأشياء، الأمر بالنسبة لك حياة أو موت، تدخل اللعبة كنزال المصارعة، أسينتهي العالم إذا خسرت يومًا؟!

استنكرت تعابير وجهه المتهالكة كلامي بابتسامات وبشاشة، وكأن طفلًا قد تحدث، أعاد ظهره ليلامس كرسيه، دلالة على أخذه كلامي على محمل الجد، ممهدًا لألقاء إحدى محاضراته التي لا تُخطئ أبدًا، تغيرت ملامحه إلى رزانة ملفتة، وقال:

- ربما سينتهي بالفعل، لكن ليس العالم الحقيقي، بل الذي في مخيلتي.. أعلم بأنني آخذ كل شيء بمحملٍ جاد، لأني أتخيل ما أقوم به عكس واقعه، وأضع رموزًا لكل عناصره أكبر من حقيقتها.

لمعت عيناه كعريس رأى زوجته في فستان زفافها، دارت لأعلى وأسفل حتى اتجهت إليّ، وأكمل:

- في شبابي وأنا بوظيفتي، كنت لا أحتسبني مجرد موظف إداري بالشركة، بل أشعر في أوقات بتمثيلي للسلطة المقيدة، وأوقات كنت أفترضني دولة من الدول صاحبة القرارات الموجهة من دول أكبر، كنت أرى مجلس الإدارة من زاوية تحكّمية غير مبررة كحكومات الدول النامية، حتى في لهوي، مثالًا بالشطرنج، أتخيلني صاحب الكلمة التي بإمكانها إنقاذ العديد من الأرواح البريئة التي حياتها على المحك، أحسب لكل بيدق حسبان كأنه شخص حقيقي، وكل قطعة بمكانة مختلفة في كل مرة، وأهميتها وحمايتها تختلف، تجدني دائمًا أفضل حماية قطعة مختلفة لأن أهميتها بالنسبة لي ورمزها يختلف معي، لذا فالفوز ضرورة حتمية ترجع إلى خيالي الذي لا يهدأ، وإلى نظرتي للأمر التي أعطت للأشياء أهمية ورونقًا

وبهجة.

حملقت عيني، انشرحت مشاعري، تعمقت أفكاري، ونضجت مفاهيمي، سأسرق أفكار هذا العجوز الحكيم في حياتي فيما بعد، لم يكمل حديثه إذ قاطع أذانُ الظهر كلامه وانبهاري، فهمهم بترديد الأذان وقال:

- سنذهب إلى المسجد نصلي ثم إلى ميدان الاحتجاج، وسنعاود الحديث في هذا، أيقِظِ صاحب المقهى النائمَ ليغلق المقهى، وقل له عد إلى بيتك يا جبان.

بضحكةٍ غير مصطنعة، ودون تفكيرٍ تحركت لتنفيذ طلبه، أدرتُ ظهري للعجوز لأبحثَ عن الرجل، وخطر لي قول شيء، فتلفظتُ بصوتٍ عالٍ حتى يسمَع:

- ادعُ الله لتنتهي الحرب سريعًا وإلى الأبد لأنني سئمتُ هذا الحال.

وأنا داخل المقهى مُديرًا ظهري، أراه بمخيلتي التوقُّعِية يهمُّ ويقفُ ليعبر الشارع ويصل إلى المسجد المقابل للمقهى، وأسمعه وهو يرد على كلامي بصوتٍ خفيضٍ أكادُ أميزه بسبب تصاعد صوت الأذان قائلًا:

- أشعر أن الله سيرسل أحدًا ليكون سببًا للخلاص من كل هذا!

أبصرت صاحب المقهى مرتميَ الرأس على مكتب، أيقظته وتبادلنا حديثًا قليلًا بابتسامات متبادلة، وبغتة، لاحظت

تغيرات مرتعبة في قسمات وجهه مما أجبرني على انتهاكِ معاييرِ الحوار بيننا، زادت التعابير حدةً تفجرت بالخوف، فتوقعتُ شيئًا كارثيًا يدور خلفي، لففت جسدي مذعورًا، وأنا أسمع صاحبَ المقهى يقول بصوتٍ كاد يسبب لي فقدانَ السمع:

- احذرا

رأيتُ سيارةً مُسرعة صوب مدخل المقهى كصاروخٍ متلهف إلى مكان انفجاره، اصطدمتْ بباب المدخل الخشبي المزود بزجاجٍ حطمت آثاره قلوبنا من الرعب، وتناثرت قطعه كالثلج المُمطِر أواخر شهر ديسمبر، وسقطنا أرضًا كنقط عرق عازف طبول وهو يضرب بيده ببأس على الألواح الخشبية، فقدنا إدراك البصر بسبب إحكام غلق الجفون خوفًا، مفترشين الأرض كمَيِّتِي الحروبِ لا نعلم ماذا وكيف ولمَ.

أفقتُ فاتحًا جفني ببطءٍ كذلك الوقت حين الخروج الأول من الرحم، لأرى مع ضباب عيني السيارةَ محطمةً من الأمام تسد المدخل ولا سبيل للخروج أو الدخول، نهضتُ لا أفكر سوى في جاري، هرولتُ إلى المدخل لأشاهد بصعوبةٍ من منفذٍ ضيقٍ وقوعَه على الأرض خارجًا يبدو عليه الاصطدام، وبسبب عدم تنظيم أنفاسي، لم أستطِعْ مناداته بصوتٍ عالٍ، اطمأننتُ قليلًا حينما شاهدته ينهض ويهرول صوبَ رجلٍ يرتدي قميصًا اعتياديًا نصف عار -لا يرتدي بنطالًا- منكب على وجههِ أرضًا وبجواره دراجة نارية، وضح لي أنهما اصطدما وسقط هو من الدراجة، ثم وجّه العجوزُ كلامًا إلى

الرجل:

- هل أُصبت؟

انتظر العجوز رد الرجل بعلامةِ قلق واضحة على هيئة جسده، لم يعتدل الرجل وظل مرتميًا، وسأل بصوتٍ خفيض:

- لمَ كنت تعبر الطريق الآن؟

حينها ردّ الجار بصوتٍ يبدو عليه التعجب من السؤال:

- ماذا تقصد؟!

بدأ جسد الرجل المُلقى في استعادة نفسه كأفعى لا تُميّز أي جزءٍ منها يتحرك، ورأسه ما زال على الأرض، أسمعه بصعوبةٍ وهو يكمل:

- ألم يكُنْ من العقل النظر إلى يمينك ويسارك قبل العبور إلى الجانب الآخر؟!

لم أفهم ما يقول الرجل، ولا أظن العجوز كذلك، إذ أنني سمعته يتلفظ:

- أنتَ من كنت مسرعًا قليلًا وتلك المنطقة لا...

لم يكد يكمل كلامه إذ أخرجَ الساقطُ أرضًا من جيبه مسدسًا ووجّههُ إلى رأسِ جاري العجوز وأطلق عليه الرصاص دون ترددٍ مُسقِطًا إياه أرضًا، لم يأخذ الأمر منه أكثرَ من ثانيةٍ واحدة، تلك الثانية كانت كفيلةً لتغيير نظرتي للحياة إلى الأبد.

بعينٍ تقتلها الدموع، وصراخ قاطعته أصوات طلقات لا أعرف مصدرها، ميدان حرب مشتعل، وقتيل مُلقى وقاتل ينسحب للهروب، انتبهت عيني لتحركات ليست بعشوائية من صاحب الطلقة السالبة لحياتي الهادئة، بعدما سرق بنطال جثة العجوز آراه يقترب ليحتمي بجدار المقهى المسدود بابها ليصل إلى الجانب المجاور من الفتحة الضيقة التي كنت أبصره منها، جاهدت لأنبثق خارجًا دون جدوى، انهياري أهدر قوتي، ولا مخرج، تلاشى من أمام المنفذ، لكني شعرت بظهره يلامس الجانب الأيمين للفتحة، أخرجت يدي منها آملًا إمساكه، مددتها ليخرج ذراعي بالكامل، ويقيني بالفشل لن يعيق محاولتي لقتله.

2

مظلمة، محتوياتها قليلة، ويدور الهواء بها كصحراء دون حواجز، كما أردتها، في أعلى طابق بأضخم مبنى وسط المدينة، أدقق في كل جوانبها، أتكهن تحركاتي بها، أقف على بابها ومن ثم أغمض عيني لأتخيل كل التصرفات والأحداث المحتمل حدوثها في إقامتي غير المطولة، أفترض الهدوء والانقلابات، السكينة والاضطرابات، النشوة والابتئاس، لا أبصر بها عوائق، تناسب كل انتهازاتي.

شقة بمبنى هادئ بمدينة آمنة ببلد منقسم إلى دولتين، أخطو بيميني بأرجل قوية ثابتة لا تصدر أصواتًا، أضع حقيبتي على أرضيتها، أنتزع ملابسي بأكملها لأتجه إلى حمّامها، وأسترخي جسديًا، وأستسلم لزحمة الأفكار المرتبة وصراعها وأنا بماءٍ ساخن.

الساعة العاشرة مساءً، متبقٍّ ساعتان على منتصف الليل ويبدأ اليوم الأهم، مناسبات هذا اليوم ليست بالقليلة، هو عيد مولدي، وسأملك من العمر ثمانية وأربعين، وهو الذكرى الثلاثون لوفاةِ كُلٍّ من أبي، أمي، أخي وزوجته وابنه، وذكرى أول يوم عملٍ لي، وأول قتل.

لهذا اليوم طقوسه الخاصة المتكررة في كل عام بترتيب لا يحتمل المغالطة، بداية يجب عليّ إيجاد نفسي في وسط متاهة ذكرياتٍ متبعثرة، أرتبها لأكتشف جديدًا في ما هو قديم، عملية ليست بالهينة، أعيد مشاهدة كل أحداثي

وإنجازاتي المهمة في آخر واحد وعشرين عامًا من حياتي، ومن هنا أنفذ خططي الجديدة المحكمة في اليوم.

لا يُفترض سؤال نفسي من أنا، الفخر لا ينتابه شوائب، أنا الذي لم أتعثر يومًا ولن أُخطئ مرة، يطاردني النجاح ليلتصق بشخصي دون سعي، أصيب دون انتباه، أمشي على حبال بين جبال بلا عصا مغمض العينين ولا أسقط، وأنتشي دومًا بوصولي للجهة غير المتوقعة، أفترض ويكون الواقع فتغمض عيني متأهبة العاصفة الترابية ليضر الجميع، أنجو أنا ويهلك الساذجون، تخليت عن اسمي وتابعتني الصفات. فُزت دون أن أُنافَس، لم أكن يومًا طرفًا لكني الأكثر تأثيرًا، لست الأقوى لكني الأذكى حين يحتاج الأمر للذكاء، ولست الأذكى لكني الأقوى حين يحتاج الأمر للقوة، أعرف كل الأشياء، أفهم مكنوناتها، أحترف طريقتها، أتقن خطواتها، أبصر حقيقتها، أجتاز صعوباتها، أتوقع تقلباتها فلا تمسني مصائبها، أستفز طاقتها، وأستمتع بهلاكها، وأرقص على أمواتها. قطار انحرف عن قضيبه، ليصنع بكل الأراضي مسارات فيخرب كل من يعيقه دون سقوط. أنا من يرغبه الجميع في صفه، ولا يأمنون غدره، أنا هيئة يتمناها الطفل والولد والشاب والشيخ والكهل، من أنجز كل المهام، وحقق كل الأحلام، ونجح فيما فشل فيه الآخرون، من صنع مراتب أعلى ليصل إليها، ولا يملك من العمر ما يكفي لينعم بما فاز به. الأخطر، الأجسم، الأهم والأجّل. الأصلح، الأجود، الأعظم، الأشد والأجلف. الأنجح، الأميز، الأخدع، الأمكر والأدهى. الأبدع، الأذكى، الأفذ، الأنبغ،

الأريب، الأحذق والأحكم.

يعلم عني الجميع دون أن يعرفوني، يتمنون عدم ملاقاتي وأكون الحدث الأهم ليتكلموا عنه في حيواتهم الأخرى، تنتشر أخباري مبنية للمجهول، كابوسهم الأبدي الذي يطارد شبحي رؤياهم، لا أنطق وأقول الحكمة، لا أتحرك ويهرول المتأهب، أنا كل إخفاقاتهم وكل آلامهم وتحطماتهم، أنا سبب صراخهم وانهيارهم، أنا من يقتل أحلامهم ويسلب سلامهم وهدوءهم، أنا من يفتح باب جحيمهم، أنا من يستحم برمادهم ويكسوه عريهم، من أظلم أنفاقهم، ودمر أسوار قلاعهم، أحرق بيوتهم، أغرق مدنهم، وشنق أبرياءهم، من أرمل نساءهم ويتم أطفالهم، من لا يمنعه منيع، أنا ذئب قتل كل كلاب الخراف وحده، وتلذذ بخوف القطيع، أنا من آراهم من الأعلى لأختار من سيموت اليوم.

لا أخاف شيئًا ولا أباهي، لا أحب ولا أسأم، لا أرحم ولا أسلّم، لا أمل الوقت ولا أفقد، لا أنظر خلفي ولا أبغت، مشاعري مختلفة، اهتمامي مزيف، تصرفاتي لا تحمل تفسيرًا، صنعت قدري وأتممت عمري واخترت ميعاد موتي، لكن نهايتي لم تكن سعيدة، فتحررت لأصنع نهايات أخرى، وكل هذا سببه هذا الحلم اللصيق والكابوس الممل الذي تكمن أهميته في إزعاجه، وفي بطلته الساذجة، ومسببته العجوز العاهرة.

انتهيت من استحمامي وتبقى بدء العملية، ولجت إلى الغرفة الرئيسية، مساحتها مناسبة، أرضية ملساء مبلطة

بالأسود، وحائط واجهة المبنى زجاجي غير مكشوفة دواخله، إنه المبنى الأطول بالحي، الواجهة الزجاجية تكفي لإدخال نور الشروق كاملًا للغرفة، سرير في الوجهة المعاكسة للجدار الزجاجي، كمود بجوار السرير وحوائط باللون الرمادي.

نثرت الرمال السوداء -التي أحملها معي في هذا اليوم ولهذا الموقف منذ سنوات- حول السرير بشكل دائري مُنظم، وبنفس الطريقة وزعت اثني عشر كوبًا زجاجيًا، ثلاثة منهم يحتوون على بخور الكيتوريت، ثلاثة أخر على العود الأزرق، ثلاثة على بخور اللاوسي، والثلاثة المتبقية اشتملوا النوع البورمي، أشعلتهم كلهم بعد الرص المنظم، جلست بوضعية التأمل وسط السرير مرتديًا جلبابًا شرقيًا متسعًا، ووضعت أمام قدمي الثلاثة حبوب التي سأبتلعهم.

ابتدرت الثلاثون ثانية الأخيرة قبل منتصف الليل في التحرك، تناولت الحبة الأولى وأمام ناظريّ الحائط الزجاجي يتراخى، فتهاوى كالماء يكشف من خلفه عالمي المفضل، التقطت الثانية فصعد دخان الأكواب ليُشكل قضبانًا تبدأ من الأرض إلى السماء في سجن ليس بوهمي، وضعت الأخيرة في فمي ومكثت أنتظر قبل بلعها لأأكد على عقلي هدفي في كل هذا، إحياء الذكريات الأهم في حياتي لترتيب الأحداث الجديدة التي سأصنعها اليوم، بلعت الأخيرة مع دقة منتصف الليل وأغمضت عيني وسددت أذنيّ وتراخت أعصابي وعضلاتي لأصل إلى حالة التأمل الكاملة، استعدادًا

للرحلة المتكررة في كل عام بهذا اليوم، رحلتي إلي عوالمي المختلفة.

***

نهار يومٍ مشمس أسير بقدمين غير مستوية على أرضٍ مُعرجة بصحبة أخي الذي يكبرني بعشرين عامًا في رحلة برية للتخييم الصيفي، برفقتنا أربعة أطفال نفس عمري من أصدقائي غير المقربين وكلب أخي، وبحوزتنا أدوات التخييم، الكل يغنون أغنية الكشافة وأنا لا أُردد معهم الكلمات الساذجة، لا أعلم لمَ أجبرني والدي على هذة الرحلة المملة باستخدامهم عبارة: «سيكون وقتًا ممتعًا».. لا أرى متعة في التلويح والغناء وعناء التوجه إلى الغابة لننام على الأرض وسط الحشرات وأصوات الحيوانات المزعجة، وفي لُب الغناء نظر إليّ أخي وقد فهم تعابير الضجر الواضحة على ملامحي، فنطق:

- لمَ لا تُغني معنا؟ ألا تستمتع؟

دون تردد أو التفات أجبته:

- لا. أنتم تستهلكون طاقتكم قبل الوصول إلى وجهتنا بالغناء والعويل، وتصيبونني بالصداع.

تفقدت الجميع وإصرارهم على الغناء بأصواتهم العالية لمضايقتي، وتلفظ أخي:

- لا تكن سخيفًا، ألم تعلم أن كل هذه الرحلة لأجلك، لعيد

ميلادك اليوم، ومن أجل نجاحك أنت وأصدقائك؟! هيا قل لي: ما هو شعورك بعدما نجحت في أول سنة دراسة لك في حياتك؟

لم يلتفت عقلي للتفكير المطول، وتكلمت:

- لا أشعر حيال هذا بشيءٍ واضح، استطعت النجاح فنجحت، لم يكن الأمر صعبًا، كما أنني سأنجح في كل السنين، لا أتخيل الفشل في إحداها.

ظهرت معالم الإعجاب على وجهه واضحة، ثم قال:

- ثقة أكبر من عمرك، استمر في الحفاظ عليها ولعلك تصيب.

قاطعته الكلام عيناه التي بدت في منظر عينيّ زوجة أبصرت زوجها المنتظر، لففت وجهي حتى أرى ما جذب انتباهه إلى هذه الدرجة، فلم ألاحظ شيئًا حتى قال:

- هدوء يا أولاد، وانتظروا وانظروا إلى هناك، إنه طائر السداف النادر، كم هو ملهم!

وسط الانبهارات الغبية، وأصوات التفاجؤ الساذج، أقف بتعابير حادة تُحدق بالطائر ولا تجد به المميز المطلوب لإعجابي، يُخرج أخي آلة التصوير خاصته ليلتطق المشهد وكأن الطائر أبوه في حفل زفافه، يزيد أخي كلامه ويقول:

- ممنوع الهمس لأنه حساس قليلًا وسط الأصوات الصاخبة، أريد تصويره الكثير من الصور، لن تصدقوا كم سيكون ثمن كل صورة لهذا الطائر، تأملوا قليلًا فيه فقد لا

ترون مثله في حياتكم.

كان لكلام أخي تأثيرًا أقوى من الكحول ليصير الجميع كسكارى بُلهاء يتحركون ببطء وهدوء باحثين عن أعلى مكان حتى يحصلوا على رؤية أفضل، لم تمضِ دقيقتين حتى قُطعت نظرات التأمل والإعجاب من قِبل سنجاب قفز ناحية الطائر فحلق الأخير عاليًا مبتعدًا، شتم الكل الحيوان كقاتل تسبب في موت أحبائهم، حتى تحرك صمت أخي ليسكتهم جميعًا بقوله:

- نحن أكثر الناس حظًا بين كل المسافرين، هل تعلمون من هذا، ذلك السنجاب الطائر أجمل فصائل السناجب وغير متواجد بكثرة في كل الأحياء، انظروا إلى لونه المميز وإلى سرعة حركته فيبدو كأنه يطير.

تحولت شتائم الجموع إلى نوبات تصفيق كجمهور مسرح راقصات مع انبلاج الراقصة الأكثر شعبية، وتزداد الصيحات مع كل حركة من معجبهم الأعظم، حركات عشوائية من كائن عشوائي بين أشجار مجاورة إلى أن وصل لشجرة تغطي ظلها جسدي، وفي وهلة قفز منها عليّ بمداعبة ليست باللطيفة، والكل بين خوف وانبهار يتفقدونني بنظرات حاقدة على الأبله الذي يعلو كتفي، وفي ذات اللحظة نطق أخي موجهًا الكلام إليّ:

- لا تخف لن يؤذيك، ولا تتحرك حركة مفاجئة حتى لا تؤذي مخالبه الصغيرة جسدك، كم أنت محظوظ! سألتقط صورة

لك، حاول ألا تجعله يرحل.

لم أكن خائفًا بل كنت ثابتًا لا أهتم كذبابة استقرت على كتفي فلم ألاحظ، لكن صوته كان مستفزًا بعض الشيء، والإزعاج يتزايد مع اقترابه من أذني، وبخطوة غير مدروسة، أمسكت به في يدي حتى أبعده عن ملتقى سمعي، لم أعطِ بالًا ولم يظهر نتوء على جلدي نتيجة موقف مختلف أو إعجاب، كل ما كان يلفت انتباهي وسط الأصوات المزعجة لاستعجاب الحاضرين هو صوت قرقرة من الكائن وكأنه وجد مأمنه بين يدي الصغيرتين، معالم وجهي في حالة بين الاستنكار والانزعاج والدجر في حين يدي تتوسط جسده دون ضغط من عضلاتي، وإبهاماي صوب عنقه الذي أكاد أميزه، لم أكن متاكدًا مما أبغاهُ أكثر؛ إيقاف صوت القرقرة الغريب، أم إقناع المُهللين بأن إمساكي للسنجاب لا يعد مجالًا للانبهار وعليهم أن يصمتوا، فأصوات من أراد إمساكه مثلي ومن يتساءل عن شجاعتي الكافية استحالت غير مقبولة، يقاطع كل هذا صوت أخي المدهوش:

- أظن تلك الصورة ستكون الأفضل بالعام، لا تدعه يقفز من يديك.

كأن السنجاب يفهم الحديث السائر ويرفض الكلام الواقع عليه، فبدأ بحركات عشوائية، وغاير الصوت الصادر منه بصوت أكثر إزعاجًا وأكثر علوًا، دون تفكير أمسكت إبهاماي برقبته امنعه من الحراك ليس لأن أخي يلتقط المشهد، بل لأنه لا يملك إرادة المجيء والرحيل وحده، يحتم عليه البقاء

حتى أسأم أنا، لكنه أخذ الأمر نحو مسارٍ سيئ حين قامت إحدى أرجله بغرز مخلبه في يدي لتؤلمني بجرح ليس بالهين وإصراري على عدم إطلاق سراحه كان أكبر من حركاته التشنجية، زادت قوة ضغط أصابعي على عنقه وتضاعفت رغبته في الرحيل، حتى تدلى جسده من يدي في محاولة فاشلة للهروب، فأصبحت أصابعي تلمس عينيه الصغيرتين وجسده ملقى في الهواء يدور في شكل دائري يعبر عن طلبه للنجدة التي لقيت ترحابًا من أخي فاقترب بنبرة غاضبة:

- ما الذي تفعله أيها الأحمق؟! ستؤذيه بهذه الطريقة، دعه في الحال.

لم أحسن الاستماع ولم ألاحظ اقترابه، كان تركيزي مُصوبًا نحو عيني السنجاب التي كانت يغطيها إصبعاي الضاغطان اللذان كانا ينغمسان أكثر في وجهه، لن أكذب، أحببت إغماس إبهامي في وجهه فزدت في قوة الضغط أثناء حركاته الدائرية البهلوانية، حتى غمرتني نشوة لم تنتابني من قبل، شعور بعدم إمكانية توقفي، بالاستمتاع الحقيقي غير القابل للوصف، وكأني أرقص معه على أضواء نجوم السماء وسط فضائها، رقصة أنا متحكمها الأزلي وناهيها الأوحد، رقصة أجيدها بالفطرة واكتشفتها بالصدفة، حتى اشتياقي لمعرفة النهاية ومنظرها غير المتوقع، وبدأت أنامل أصابعي في الشعور بسائل يتدفق، وفي نفس اللحظة انفجرت عيناه ودماغه بدمائه لترسم لوحاتي الأولى في عالمي الجديد. انفجر دون دماء ذهول الحاضرين في ملامح موحدة بتعبير

الخوف تقابلها نظرة سعادة وابتسامة تكاد تظهر وأنا أسأل أخي:

- التقطت هذا؟

صمت يعلو وأسئلة ظاهرة في الأعين، أصبحت الوجهةُ الأهم للنظر دون سعي، الدم تناثر على جسدي ووجهي ووجه أخي القريب، الذي سبقت عيناه كل الكلام المتوقع، وتحركت مشاعره معادية الأخوة المفروضة، وسط الذهول شعرت بما كان ينقصني منذ بدء الرحلة، شعور قررت مشاركته مع الجميع، فقلت:

- الآن باتت الرحلة ممتعة.

***

تنتهي الرحلة قبل البداية في كياني الطفولي، وعقل انقسم إلى شخصين في جسدٍ واحد، أحدهما أنا بمكنوني السارح ووضعيته التأملية، أجلس مرتديًا بدلتي المفضلة سوداء كاملة وقميصًا أبيض وربطة عنق سوداء، أحاول الخروج من مكان ألحظه -بعد فتح عيني التي أظلمتها نهاية ذكرى- فأبصر فضاء أسود يغوص به بعض الفصوص البنفسجية التي تميل إلي الظلام، أطياف الحاضرين عائمة دون وجهة، أنا بكون آخر داخل جسدي الصغير الماكث في مشهده الحالي تجاريه عبثية سريالية تشبه الأحلام، لكنها حقيقة واقعة وملموسة.

غارقٌ في الفضاء أجد صعوبة التنفس، أحرك جسدي

بطريقة مرتبة من وضعيته التأملية، برشد واعٍ أفيق من غيبوبة أتحكم بتأثيرها، أصعد بوجهة محددة، أُحلق وسط أطياف لا تعلم سبب وجودها، أعلو غوصًا إلى السماء السابعة في كوني الخاص، لا أنتبه إلى ما يدور حولي مع ملاحظتي الشديدة لكل التفاصيل، أصل إلى ضوء لا يمكن تمييز مصدره، أقترب إليه مُحاولًا لمسه وكلما أسبح يبتعد، كلما أوشك ينصرف علوًا، ألاحق بعدًا آخر بسرعة لا تناسب الوصول، شرعت في فقدان التماسك حصيلة صعوبة التنفس كحوت رمى نفسه خارج المحيط فقاربت أنفاسه الأخيرة في الظهور، ضاعفت مجهودي مُطاردًا باستماتة منقذه الوحيد، كل أعضائي تتآكل، قوتي استُنفدت، وفقدت الشعور بنصف جسدي الأسفل، لكن عينيّ تقترب أكثر صوب الضوء، وكأنها المحرك الوحيد لسفينة لا تملك وقودها، صرت لا أملك من الإدراك سوى رؤية باهتة لا تستحوذ إلا هدف الوصول وحركة مشلولة تعيق التركيز تُجهز جسدًا ليسقط، لكن، وفي لحظة لم أكن أتوقعها ليست بسبب مجهودي، بل تعود إلى إصراري على الوصول، ألمس الضوء.

كخروج من الرحم أتحرك من فم جسدي الطفل إلى عالمه الذي يمكث فيه، يمطط فمه إلى حيز جسدي الضخم دون عناء يصيبه، وكل العناء من خروجي، بدأت رأسي بالظهور ثم يداي ثم بقية الجسم، أسقط أرضًا ثم أقف بشموخ أتطلع إليّ بفخر، لم أندم ولم أشعر بخطأ حيال ما ارتكبته وقتها. والآن، بعد استعادة تلك اللحظات، كان علي التحرك صوب

رحلتي الأخرى، أمسكت من يديّ الصغيرتين السنجاب الميت ووضعته في جيبي، أحرك جثمان الطفل غير الواعي بعدما عاد فمه إلى الحجم الطبيعي، أجلسه وأرتب ذراعيه وساقيه إلى وضعية التأمل، أغمض عينيه وأقعد أمامه، في هدوء أبدأ في التقاط أنفاسي الأخيرة في هذا العالم، أتخذ الوضعية المعتادة لرحلتي القادمة، وأستعد لأغماض عيني، إلى أن سمعت صوتها الحاد المألوف المرفوض، يقتلع قلبي وهو يقول:

- إلى أين تذهب أيها القاتل اللطيف؟! لا يعقل أن ترحل دون مناقشة، لن أدعك تذهب دون تقبيلك قبلتنا المعتادة.

امرأة تقترب إلى العجز، تحمل في أحبالها غرابًا اعتاد النعيق ليسمع الأصم متألمًا، يشئم ويخرب الطرق ويحرق الآمال، الصوت يعلن عن مطاردة متوقعة تبدأ عند وصولي لتلك العوالم، وعند مكوثي في أذهاني متأملًا أحداثي، أهرب تارة، وتارة أخرى أقع فريسة في شباك صائدة طائشة لا تهوى إلا تمزيق ضحاياها ونثر أعضائهم مُعلقة على أبواب عالمها، أذى أحاول ألا أتعرض له، وشرٌ أتجنبه لكثرة جراحه وآثاره السلبية، لا أحمل له سلاحًا فعالًا، ولا أملك قدرة على صده، ولا حل سوى الهروب، لكنها جاءت باكرًا هذه المرة، فأنا ما زلت في أولى ذكرياتي، هذا لا ينذر بخير، صوتها أعاقني وشتت عقلي أمام طريقين معاكسين، إما أن أكمل طقوسي راحلًا مبتعدًا هاربًا كعادتي، أو أبحث عنها بعيني فضولًا وتفاديًا لها، وهذا ما سلكه عقلي المشتت، وأثناء البحث أصدر

عفريت صوتها مجددًا بألفاظها الجريئة يقول:

- أهكذا تعامل المقربين منك؛ الهروب الغبي؟ أنت وأنا نعلم أنك لا تحب سوى المواجهة، لمَ الهرب أيها الفاتن الشجاع؟ أنا لن أوذيك، كل ما أريده هو المناقشة، هيا، أنت تعلم قواعد لعبتي جيدًا، وأنا في اشتياق لأن ألمسك.

دجلها المبهم يمنعني من تحديد مكانها، لكن قرب الصوت جعلني أشعر بقربها الشديد وإمكانية أن تكون فوقي أو أسفل مني، بجوار يميني أو قريبة من شمالي، بداخل جسدي الصغير، أو بداخلي أنا، عيني ترتعد غير محددة الوجهة، تبحث عن ضالتها في يأس وفشل محتمل، سرعان ما أيقنت تشتتي وأنه مرادها، أبعدت أفكار الرهبة والخوف والارتعاد بمجراف ثقيل، أجبرت وجداني على الهدوء واستعدت صمت أفكاري ممهدًا لرحلتي التالية، إلى أن شاهدت عيني الدجالة الشمتة بردائها الممزق والمبهرج تركض نحوي من بين أشجار المكان مهللة بصوتها الملفت:

- إياك وأن تحرك أجفانك القذرة، لن تهرب مني مجددًا.

هي على معرفة بسرعة انتقالي إذ أغمضت عيني، تركض وكأن حياتها على المحك، وسيتوقف نبض قلبها في حال عدم لمسي، بسرعة الضوء تقترب حتى وصلت خلف جسدي الصغير، وقفزت من فوقه لتصل إليّ كصقرٍ حدد فريسته، وأجهز مخلابه ليهبط ساقطًا غير مانح مجالًا للفرار. اقترب جسدها حتى أيقنت التصاقها بي، لكن كل ما علي فعله الآن

حتى أتجنب هجومها هو إسقاط الأجفان القذرة.

***

الساعة تقترب من الحادية عشر ظُهرًا، يتمشى غزال بخطى هادئة حول شجيرة، يقطف بعض أوراقها وثمارها آكلًا مطمئنًا لا يشعر بخطر يلاحقه، يخبطه الهواء اللطيف فيحرك أذنيه قليلًا، ويحرك الهواء فروع الشجر الصغيرة ليصنع أصوات الطبيعة مع أصوات زقزقة من طيور الصباح، مكونين لوحة طبيعية جمالية متكاملة، ومع هدوء الغابة تستقر رصاصتي رأس الغزال؛ لأضيف لمستي على اللوحة؛ لتصير أكثر رونقًا، يسقط الأخير أرضًا ويهرب الطيور سماءً في وقت واحد صانعين صوت جناح ضخم، أتحرك صوب الغزال، ويرافقني في طريقي صوت أبي يناديني ليقول:

- هذا الغزال الرابع اليوم، ستنهي على جميعهم في المنطقة المحيطة، الإصابة في الاصطياد قد تكون ضارة، تمهل، فكثرة النجاح لا تعني التميز دائمًا إذا كنت تتفوق في الاتجاه الخاطئ.

أكمل طريقي وأنا أنصت إلى كلام أبي بلا ملل، لكنني أختلف كثيرًا مع آرائه، بالرغم من كونها لا تخلو من الصحة، هناك دائمًا رؤى مختلفة للأمور لا تنفي صحة الأخرى، ولكنها تستنتج صحيحًا جديدًا ومختلفًا، خطوت إلى الغزال، جهزته ليسهل حمله عند مغادرتنا مُحدثًا أبي مازحًا:

- أشعر في كلامك ببعض من الغيرة، لا تجعل مهارتي تسبب

حقدًا بيننا، فنحن أقارب رغم كل شيء.

أتفقد وجهه متيقنًا بتبديل كلماتي الهزلية تغيرات فيه، لأجد ما أخمنه ينطبق على ملامحه رافعة الحاجب ومبتسمة الشفتين، وأردف دون تفكير:

- لا أرى مجالًا للمنافسة بيننا، أنت بالكاد تملك أربعة عشر عامًا، وبدأت في إتقان الصيد بالبندقية منذ عام، أنا كنت أصطاد مع جدي بها وأنا في العاشرة، وأول صيد لي كان بالحادية عشر تقريبًا، كما أنك ما زلت لا تجيد رمي السكين وتقطيع اللحم بعد الاصطياد، كم ما أصطاده اليوم لا يعني أبدًا بتغلبك عليّ.

دون تحكم يثغر فاهي، لكن ثقتي في قدرتي التي لم أكتشف سوى بعضها دفعتني لتكملة النزال بيني وبين أبي لأفوز بالحوار، تحرك جسدي من الجلوس واقفًا ملتفتًا إليه وفي تعالٍ غير مقصود أتحدث:

- من الحكمة معرفة الوقت المناسب للانسحاب عند فقدان المهارة ومجاراة التطور، يكفيك تعليمي، وأنا سأكمل إن كان هذا قاسيًا بالنسبة لك، ونحن لا نتحدث عن كمٍ قريب يخلق مجالًا للمنافسة، أنت لم تصطد سوى أرنبين من بداية الشروق، ويمكنك التدقيق في حيواناتي التي تزيد عن عشرة من أنواعٍ مختلفة، والتقطيع ليس بالمهارة الأولى بالنسبة لي، فمن الممكن إرسال الحيوانات إلى جزار، الأهم عندي هو جعلهم هادئين ليُقطّعوا.

لم أشعر بتطاولي المازح على أبي إلا بعد انتهائي من الكلام، ولا مجال للرجوع عنه، مما تسبب من غضبه غير الجاد، وإحضاره حجر من أسفل قدميه ليلقيه عليّ وهو يوجه لومه إليّ:

- لكني لم أعلمك اصطياد البُلهاء بالحجارة، قبل تقطيعهم يكون الأمر ممتعًا، وعند ارتعابهم من قرب الحجر إلى وجههم يمكننا الانقضاض عليهم بسكين ينزع غرورهم من الداخل، وهذا هو الجزء الأفضل.

تفاديت الحجر وأنا أضحك دون توقف، فطريقته المعشوقة في الحديث والمزاح تمنحني سعادتي المعتادة، هذا الوقت بكل تأكيد أفضل وقت لي في العام، بغرار الاصطياد وإطلاق النيران، فمشاركة كل هذا مع أبي يصيبني بنشوة لا أحد غيره قادر على إصابتي بها، مشاركة الأمر معه لا تزال تضيف لمهاراتي وشخصيتي الكثير، ومطابقة اهتماماتي وهواياتي معه يجعل منه شخصي المفضل، يقترب مني بسلم بعدما ألقى الكثير من الحجارة، وهو يردف سائلًا:

- كم تبقى معك من الذخائر؟

أجبت دون تفقد أو مراجعة مؤكدًا بكلام:

- لم أطلق سوى اثنتي عشرة رصاصة، أصابت الاثني عشر حيوانًا، لم أهدر رصاصة واحدة.

ابتسم ابتسامة فخرٍ بتلميذه المميز، محترمًا قدرتي ومتقبلًا ثقتي، وهم ليكمل حديثه ممهدًا لتعليمي شيء جديد، فقال:

- حسنًا، أتعلم ما هو الأهم من عدم إهدار الرصاص؟ التركيز على مكان استقرار الرصاصة بطريقة أدق. دعني أعلمك مهارة جديدة، ما هو الأهم لنركز عليه وأنت تحمل سلاحك من وجهة نظرك؟

مع تفكير مطول قمت بالرد بيقين:

- إصابة الهدف دون فشل.

تعاملت نظراته وتعابيره وكأنه كان متأكدًا من إجابتي، وكانت هي البوابة بعبور درسه الجديد، ثم أكد على حديثي:

- صحيح، لكن هذا ليس الأهم، بل تحكمك في مكان الرصاصة على صيدك وكأن بينكم مسافة لا تتعدى المترين، حتى وإن كان سلاحك الأضعف، فالأمر لا يعود على الأداة، بل حاملها وأدائه.

تحرك خطوتين إلى الأمام مع كلامه مصطحبًا بندقيته المفضلة، واستطرد:

- لننفذ الكلام بطريقة حية، ولنختر هدفًا صعبًا، مثل هذا العصفور بالأعلى مع حركته السريعة.

يشير إلى عصفور لا ينتظر إغماض جفن حتى يقفز من غصن إلى غصن دون ثبات، يبدو هدفًا شبه مستحيل، وهو نوعي المفضل، لكنه يكمل مضيفًا باقي شروطه:

- هذا العصفور الذي يغطي اللون الرمادي ريشه، انظر إلى تحركاته جيدًا، حاول أن تفهم لمَ يتحرك، توقع تفكيره وبرر

طيرانه، ثم اثبت، أغمض عينيك واجعل من خيالك طائرًا في مثل حجمه وتعرف على جسدك الجديد بالكامل واحفظ تفاصيله، ثم تحرك، وافتح عينيك، إذا طابقت حركتك حركاته فأنت تتبع الطريق الصحيح، وإذا لم، أعد المحاولة، حتى يمكنك توقع حركات كل الطيور من نوعه، ثم اثبت مجددًا، ولا تستهدف حركاته لقتله بل تخيل سلاحك يصدر رصاصة لتصيب مكانًا غير تقليدي، كإصبع قدمه اليمنى، وامكث، ثم امكث، تريث، وأغمض عينيك، وجهز سلاحك، واحسب نفسك هذه المرة رصاصة، تملك قدرة إطلاق نفسها، وتتحكم في مكان استقرارها، وامزج تخيلاتك مع بعضها لتصنع طريقين يلتقيان عند نقطة هدفك الأهم، ولا تفتح عينيك حتى تصل إلى الثقة بأنك ستصيب وأنت لا تنظر، حينها فقط ستستقر طلقتك في مكانها، وتذكر أن الأمر لا يعود على الأداة بل على الصياد، عليك ببدء التمرين على تلك الحركة من الآن إذا أردت أن تتقنها في الصيف القادم.

هنا يتوقف الزمن، في تلك اللحظات التي يستغلها أمثالي لقتل الوقت، وإنصار الموهبة على الحرفية، الممارسة التي تجعلنا مختلفين عن الآخرين، تميز عقولنا وقدراتنا عنهم هم الذين اكتسبوا الطريقة من كثرة الفشل.

استمعت لكل ما قال، نفذت كل ما سمعته، لكن بطريقتي المختلفة، بخيالي الأكبر وعقلي الأنشط، وتوقفت أذني عن الإنصات حين تحكم عقلي في كل أطرافي لينفذ هدفه الأهم، فرفعت بندقيتي صوب العصفور وأنا مغمض العين،

وأطلقت الرصاصة، وفتحت عيني للنظر إلى أبي وأنا متيقن من نجاحي، لأجد عينه يملأها الانبهار والفخر والتعجب، عينٌ تثير تساؤلات متنبأة مما كنت أنوي إثباته؛ اختلافي.

لم يحرك جسده سوى رقبته تجاهي بعد ما رأى وصول رصاصتي لقدم العصفور وسقوطه مصابًا، حلّقت باقي الطيور من خطر الصوت، وحاول العصفور المصاب النهوض مترنحًا، وقف أبي بشموخ مبتسمًا مُخططًا عدم التحدي، متفهمًا تباين مواهبنا ومستعدًا لاحتضان خاصتي، وهم بالحديث:

- أنت تثبت لي وجود أشخاص تجيد أشياء كثيرة منذ صغرها دون عناء التعلم، أشخاص يملكون بفطرتهم مواهب تبهر الجميع. لا تمل من اكتشاف نفسك، ولا تدع أحداً يحجم قدراتك حتى وإن كنت أنا.

أعتقد بسبب تلك المواقف خُلقت العائلة، وإذا كنت مختلفًا كما أخبرني فيكمن اختلافي بامتلاكي أبًا كهذا الداعم الدائم، الذي لم ينعتي بالمجنون حين أخبرته بحبي لرؤية الكائنات في ثباتها الأبدي، توقف لساني عن الحراك وتدفقت كل مشاعري لشكره على كل شيء، لم يمنحني الوقت الكافي لاستيعاب كم الانبهار من كلامه، وقاطع تفكيري بحركة يديه ورفع بندقيته الأجود وسلمها لي وهو يقول:

- ربما هذا الأداء يستحق أداة أفضل، راعها كحيوانك الأليف، فهي أقيم ما كنت أملك يومًا.

***

شرعت ذكراي الأخرى في التلاشي كسابقتها، وبدأ انفصالي عن جسدي الصبي، انفصال أصعب وأشد، عيناي تبتعد كعيون كاميرا السينما في مشهد النهاية، أراني وأبي في وضوح يتلاشى بالظلام المألوف شيئًا فشيئًا إلى أن اختفينا ونشأت الصفحة السوداء ذاتها التي تتلون حينما يفتح جسدي الحالي عينه، أحاول جاهدًا فتحها، لكن قلبي تزداد ضرباته مع كل محاولة، عيني ثُبتت بدبابيس ومسامير، وجسدي لا يملك قرار الحراك، أشعر بوجود الأغلال حول كتفي ملتفة لفة ثعبان أدرك وجبته المفضلة، أعضائي كلها في شبات مستفز، فقط عقلي تحركه أفكاري للإفاقة، يبحث عن مخرج من الشبات القاتل.

ووجد عقلي المخرج عبر أذني التي بدأت في سماع أصوات حيوانات الغابة المألوفة، بوابة لم أكن أملك سواها نجحت في منحي الوعي وأعطتني القدرة على تحريك أنامل أصابع يدي اليمنى بحركات طفل حديث الولادة، أحسست بجنزير يحكم معصمي، بدأ مفعول الوعي ينتشر في جسدي عبر أوردتي وخلاياي حتى نجحت في تحريك يدي الأخرى، ومن ثم ذراعي وأصابع أقدامي ورقبتي، وحركت جفني لأفتح عيني وأعيد التحكم في جسدي، ولكن دون جدوى بعدما بصرت السلاسل المحكمة المتواجدة حول جسدي بالكامل، وتمتد بستة أشرطة بأطراف من يميني والأخريات عن شمالي وأمامي وخلفي، يمتد طولها أبعد من مستوى نظري.

يجلس جسدي المكبل في بداية مسار سباق سرعة، وأرضية باللون الأزرق المعتم، وسط غابة عن يمين وشمال وأشجار لا تملك ألوانها، لا يوجد شحب ولا سماء، فيعلو المشهد سواد معتم، وحيوانات تحاصرني في بداية المسار مصطفة عن جنبي، أتوسطهم أنا بوضعية تأملي وسلاسل جسدي، كلاب ونمور وغزلان، أسود وقرود وضباع ونعام وثيران، كل شيء يملك اللون الرمادي باستثناء أرضية السباق التي أجلس أمامها بجسد مضيء يُنير كل المحاط من حوله.

الحيوانات ينظرون جميعهم إلى النور النابع، يسيرون إلى هدف واحد غير قابل للجدال لكنهم لا يتحركون نحوه، منتظرين إشارة بالأحرى حتى يعبثوا بي في تنافس ليس بالعادل.

وبعد أقل من عشر ثوان أصدرت الحيوانات أصواتها طالبين لحظة بدء لينقضوا عليّ، تتصاعد أصواتهم علوًا حتى بلغوا أعلاه، الكل يصرخ في ذات الوقت ليتحول ضجيجهم من المزعج إلى المؤذي الكل دون توقف يتلفظ بلغة ما لا أفهمها، صار الصوت يدمر ما تبقى من قدرة تحمل بداخلي، فلم أشعر إلا وأنا أقول لا إراديًا وبقلة حيلة مع صوتٍ يعلوهم جميعهم:

- صمتٌ.

باتت محاولتي الفاشلة مجدية دون توقع، وكأنهم يفهمون

ما أقول صمت العويل وصاروا أكثر غضبًا، ولم تُسفر كلمتي عن الهدوء فقط، بل امتدت قدرتها لتحويل السلاسل حول جسدي إلى أطياف بيت مسكون تلاشت مع هواء غير مرئي لأصبح حرًا دون قصد.

لم أكن أعلم بأني أنا من يملك صافرة بداية السباق، بعدما تحررت تحركت الحيوانات نحوي انقضاضًا ولا مفر سوى العدو، الركض بكل ما أملك من سرعة دون مقصد، ودون النظر إلى هول الحيوانات خلفي، الإسراع مع التوقع بوجود إصابات وخدوش إذا لمسوني، أو ربما توقع السقوط والموت كفريسة إذا أمسكني أحدهم، كل ما علي فعله هو الركض، والهروب وسط أصوات مفزعة ومكان شنيع.

انطلقت دون تنظيم لأنفاسي أو انتباه لدقات قلبي التي زادت حتى وصولها لدرجة طبول عزف عسكري، لكني لاحظت بعض أصوات الحيوانات الغاضبة، لألف وأجد استباقي لهم بفارق ليس بالهين، أبتسم فخرًا بسرعتي التي غلبت كائنات الغابة، وأعيد رأسي ملتفًا إلى الأمام، تبصر عيني مسار السباق، تحول إلى ماء نقي أسير عليه مسرعًا كحجر أُلقي بيد قوية غير قابل للغرق، توهجني الفضول لأكتشف البوابة التي ستخرجني من هذا المسار إلى مكاني المقصود، وفي ذات اللحظة تزيد الحيوانات من سرعتها، ويقترب صوتها لتصبح قريبة مني مرة أخرى كلحظة بدء السباق.. تأتي في بالي حيلة، فأخفف من الركض حتى التوقف. الإنهاك يملأني، تصاعدت أصوات الحيوانات معلنة

الاقتراب، لاحظت إضرابهم، فقفزت عليّ الحيوانات فجأة منقضين بمخالبهم البارزة، محيطين بي بشكل دائري، ينتظرون فقط وصولهم لجسدي حتى يلمسوني، سحبني الماء قبل وصولهم إلى جسدي بجزء من الثانية.

أغطس في الماء دون أن تبتل بدلتي أو جسدي، أو أفقد القدرة على التنفس، أسقط دون عناء أو احتساب وقت صمودي تحت الماء، أنظر إلى أعلى لأجد الحيوانات لا تستطيع أن تغرق مثلي، ومكان سقوطي تملأه خلايا صغيرة من الزجاج لتسده فيصبح سطح الماء سقفًا من الحجارة الشفافة الصلبة، أستمر في السقوط بالماء حتى لامست قدمي القاع؛ لأنتصب على عشبٍ أخضر يناسب السطح غير المائي، شحبت قدمي في بطن العشب ليبتلعني نبات الماء في قاعه في ظل محاولاتي للهروب البائسة، دُفن جسدي بالكامل وعن آخره. مددت يدي لأعلى، وظلام معتم يسيطر على بصري.

في غفوة العين أجد نفسي مبصوقًا من أرضِ غابة إلى أعلى لأُرفع إلى درجة علو أكبر الأشجار وجهي نحو السماء الصافية، وظهري تجاه الأرض، عدت إلى لحظة ثبات الرؤية عند آخر الذكرى التي أمتلكها، إلى قوانين العالم الحقيقي من جاذبية وضوء وألوان، جاذبية قادرة على إسقاطي أرضًا بكل قوة، وهذا ما حدث.

تألمت بتعابير مضجرة وسط صمت ليل بارد ومظلم، تحركت ونهضت بنصف جسد بعين شبه مغلقة من آثار

السقوط، تُفتح على أبي وهو يقف أمام جسدي الصبي ينظر بالأحرى إليّ لكنه غائم، بدأ في التلاشي التام مع مشهد ذكراي وكل ما يحيط في هذا العالم من أشجار وأرض وسماء وحيوانات وطيور، يقبع أكثر التشويش بوجه أبي، هذا الوجه الذي لطالما حافظت على ذكراه حتى لا أنساه، حتى يتسنى لي النظر إليه كلما أغمض عيني، كلما أردت الهدوء، كلما أردت النجاة والونس والنشوة، دائمًا حين أريد معرفة بدايتي، انتمائي، كينونتي وسبب ثقتي.

تنهدت بالوقوف بجسدٍ شامخ وبطقطقة رقبتي وكتفي، تحركت صوب أبي أقف أمامه ومن خلفي جسدي الآخر، أتطلع إليه بتعجب سائلًا ذاتي، فأنا أعلم بعدم حقيقة وجوده وبماضي فنائه، لكنني أشعر بواقعية وقفته أمامي، وكأنني أنا هذا الصبي خلفي الآن، اقتربت إلى جسد أبي فالتف بذراعيه حولي يضمني إليه، أحتضنه بكل قوتي أثناء تناثر ذراته، لتقتحم ذراته داخلي كلها ولم تنفك أذرعي من حوله حتى تفتت جسده كله واستقرت إليّ ببطء كحبات الرمال في قاع المحيط، أنا لا أبكي لكنني إذا أردت، فسأختار هذه اللحظة لتكون هي سبب انهيار مشاعري.

أثناء سرحي الذي عكرته ضرورة سرعة التحرك نحو التأمل الجديد، قاطع كل هذا ذات الصوت الشؤم، كما أنه صار أكثر غضبًا وإزعاجًا، وتلفظت:

- لا أقصد الإزعاج، لكن انظر من عاد سريعًا إلى قفصه المُحبب.

يلتف جسدي منذ سماعها غير قاصد وجهةً، باحثًا في كل مكان، سماء وأرض، لم أعثر عليها، كونها طيفًا أعتاد ظهور صوته فقط أمرًا مقلقًا، وزاد التوتر حينما أضافت:

- لا تخدع عقلك، لقد واجهت العالم كعصفورٍ مدلل، وهربت تنوي الحرية، لا تخف شيئًا ولا تخشَ الصعب، حتى واجهت ما لم تكن تتوقعه، ووجدت ما لم تكن تصادفه في أيامك العادية، فمللت القسوة التي لم يفرضها أحدٌ سواك، وحين رفضك العالم عدت من رحلة بائسة إلى نهاية ساذجة نحو ظلمة أكثر عتمة، لا تحسب أنك تجدي نفعًا بكل هذا، أنت لا تجد نفسك بهذا الشكل، بل إنك تخبئها بإحكام وتكثر التفاصيل لتنسى مكان وضعك إياها.

زاد كلامها من التفات ذهني، انتباه جوراحي ومن توتر أفكاري، ففي هذا العالم يوجد بعض النقاط السلبية، أهمها عدم القدرة على إيذاء من هم مأذيون بالفعل، فلن يخترق سلاحك جسد المصوب عليه، لم أقدر على إسكاتها داخل عقلي، فلقد وجدت لنفسها هنا مكانًا استطاعت أن تفرض سيطرتها الكاملة عليه، وتنشر قوتها فلا طارد قادر ولا قاتل يمكنه النجاح، ولا حل سوى الهروب.

لم أكن مستعدًا كالعادة، فالوقت ذاق -بسبب تأخري في الانتقال- ثبات مشهدي تتلاشي تفاصيله، فكان علي إسراع التأمل، وأنتقل إلى ترتيب ذاكرتي حتى لا أفيق من سباتي الأصيل، فإذا اختفت كل تفاصيل ذكراي التي وصلت إليها

سأصبح بداخل صفحة بيضاء كبيرة مشتت الذهن، تائهًا ولن أجد سوى الإفاقة، ولن تنجح طقوسي حينها، فهذا الوقت من العام هو المثالي بالنسبة لي.

استمر بحثي عنها مع انتظاري لتضيف كلمات أخرى فلم تنطق، اختفى صوتها، ومن ثم تلاشى معظم أجزاء العالم، فأيقنت تأخري بالتأمل، هرولت نحو جسدي الصبي لتحريكه بوضعية التأمل، وحين انتهيت جلست أمامه بنفس الوضعية وكانت أنفاسي قد تعكرت بعدم التنظيم، بدأت في تنظيم أنفاسي ساعيًا للهدوء غير متوقع الحسن خصوصًا مع اختفائها المفاجئ، وفي أثناء آخر أكسجين دخل رئتي، وعند لحظة إخراج ثاني أكسيد الكربون، شعرت بوجود هواء زفيرها يلامس أذني، فتشتت ثم انتفضت مفزوعًا، حينما تأكدت من شكوكي، والتف جسدي لأجدها مبتسمة ابتسامة انتصار بأسنانها البُنية وهي تقول في ثقة مستفزة:

- مفاجأة غير سارة.

وجهها أبيض يحمر عند التلاعب بقسماتها، يغطيه الحلقان في كل مكان، أنف وآذان وشفاة وحاجبان، مع القليل من الرسومات على الكتفين، وملابس ممزقة بطريقة غير عشوائية تناسب رداءها، هيئة أشبه بالفروعنية المُفزعة ولكنها ليست كذلك، ومظهر عام ينم على السحر الضار الذي أهلك متعلمه، فعاد تنفسي إلى سابقه غير المنتظم جراء الارتعاد من رؤيتها عن قرب.

أخرجت ضحكة مميزة لا يمكن سماعها من شخص آخر بصوتٍ متوسط، فصوت ضحكتها أشبه بصوت امرأة عجوز كثيرة التدخين تحاول الكلام لكن لزوجة حلقها تنبلج، ثم جلست في وضعية التأمل ذاتها، وقالت:

- أحب هذا الوجه المفزوع، يغذيني خوفه، يلتهم ما تبقّ من عبوس وجهك، اهدأ قليلًا لن التقمك الآن، فمشهدي المفضل لم يأتِ بعد، أنا فقط أشرع في تعكير مشاهدك المفضلة، هيا اعتدل واجلس في الوضعية المناسبة، فلم يتبقَ الكثير من الوقت.

اعتدلت سريعًا وقعدت في ذات الوضعية، حتى أتجنبها وأهرب مع انشغال تفكيري، بما هو قادم من أحداث وصدامات متوقعة معها، نظمت أنفاسي مرة أخرى وأنا أتطلع إليها في تأهب لغدرٍ منها في آية لحظة، لكنها تفاجئني بمكوثها مبتسمة هادئة، وبدأت شفاهها في التحدث مرة أخري:

- ما رأيك إذا انتقلنا سويًا في نفس الوقت برحلة مزدوجة؟

أتجاهل حتى لا أنطق وأتحدث معها، فأقع في فخها المنصوب نحو مناقشة قاتلة، أصب تركيزي فقط في تنظيم أنفاسي وأغلق عينيّ وأنتقل، لكنها عادت في الحديث مرةً أخرى بملامح سعيدة وقالت:

- لا، لا، أظن أني سأنتقل قبلك، أراك قريبًا.

تلك العاهرة المريضة أغمضت عينيها، فاختفت كأنها لم

تظهر، واختفى معها ذهني المتأهب لوجودها مرة أخرى، ينتظر المعركة الحتمية، لكنني لا أملك وقتًا، سرعان ما تحكمت في أنفاسي التي لا أخطط أن تكون الأخيرة، حددت هدفي، تراخت عضلاتي، ثم أغمضت عيني.

***

الساعة الثالثة عصرًا، نسير بحافلة البيت المتنقل على طريقٍ صحراوي متجه إلى مدينة ساحلية للاحتفال بمناسبتَين، يوم ميلادي الثامن عشر، ونجاحي بامتياز في مرحلة تمهيد الدراسة الجامعية، العائلة بأكملها هنا؛ أمي، أبي، أخي وزوجته وابنه ذو الخمسة أعوام، الجميع فخورون كفوزهم باليانصيب، وذهابهم إلى جزر ساحلية للاحتفال.

يتشتت عقلي بين حينٍ وآخر ليفتح لي تفكيرًا في تخصصات الجامعة أي منها سأختار، يلاحظ أبي -سائق الحافلة- شرودي ويصيب تخمينه في ما أفكر، ليقترح بعضًا من التخصصات، وأخي يذكر بعضها، لم يدركا أن المشكلةَ ليست وليدةَ موقف، بل الأمر عدم القدرة لتحديد مصير حياتي منذ إدراكي لحتمية اختيار مسار، لم يفهما حقيقة وضعي، ضَدَف المواقف دائمًا ما تمنحني الاختيارَ الذي لا يشوبُه تردد، ولم أقابِل ضدفَتي بعد.

أمي تتحدث إليّ دائمًا بنبرة الحب المعتادة، لكنها تنسحب منها إلى أوامر غير مباشرة لاختيار مسار محدد في حياتي قد اختارته لي من قبل، كلية محددة تريدني أن أدرس

مجالها موضحة مميزاته وناكرة عيوبه كلها، وذاكرة عدم رضائها التام إذا اخترت مسار آخر غير مسارها الأصح، أبي يعطيني الحرية الكاملة مع شرح كل ما هو غير واضح في مجالات مختلفة لكنه يحدد لي اختيارات لا يصح تجاهلي لها، وأخي لا يكف عن ذكر أمثلة بفشل الكثير من الناس الذين عاندوا واختاروا مجالات غير مفيدة عمليًا لدراستهم، الكل يغني على ألحانه الخاصة، منتظرين مني اختيار نغمة صنعوها للرقص عليها برضا وفرح.

الكل على شاكلته في الرحلة راضٍ، أبي يقود مبتهجًا وهو يسمع الموسيقى المفضلة لديه، وأمي من وقتٍ لآخر تخرج بعض المقبلات وتوزع منها القليل، أما أخي وزوجه أغلب الوقت يلعبون مع ابنهما وابنتيهما التوأم ذواتي التسعة أعوام اللتين لا تكفان عن الإزعاج المحبب لدينا جميعًا، تحركت أمي نحو أبي السائق، متحدثة معه باللغة الجديدة التي أجبرتنا جميعًا لنتعلمها، حتى تناسب البلدة الجديدة التي ستنتقل للعيش فيها بعد شهرين، هذا بسبب ترقية أبي في العمل للمنصب الأعلى بفرع آخر في القارة العجوز، فتسأله عن وقت الوصول، فيجيبها بذات اللغة التي تحدثت معه بها، ثم توجه لأخي سؤالًا فيبدو منزعجًا قليلًا وهو يرد عليها بقوله:

- أنا لن أنساق نحو تلك اللغة، نحن في إجازة، ما الذي يجبرنا للتحدث بعناء؟! ثم إنكم جميعًا ستنتقلون هذا الخريف، لكنني لن أنتقل في الوقت الراهن، يتوقف انتقالي عن وظيفة تناسبني في البلد الآخر، وأنتِ نسيتِ الأطفال يا

أمي، الأطفال سعداء في مكانهم، لن أجبر زوجتي والأطفال على الرحيل المبكر، ومن الممكن أيضًا أن تعودوا أنتم إذا ما لم تجدي جامعة تناسب التخصص الذي سيختاره أخي، إذا كان لم يُخترع التخصص بعد فلا تخططي الاستقرار.

بذكائه، وجه مدفع أمي من أمامه إليّ، نجح في قلب الطاولة عليّ، وأنا لست بطرف في حديثهما، فانتقل الكلام من أمي موجهًا إليّ:

- أعتقد أنه اختار التخصص، أليس كذالك؟

سؤال تنهدت للرد عليه، لكنها لم تمنحني الوقت المناسب، فقاطعت شفتيّ اللتين تحركتا وقالت بشدة خفية:

- لا أظن أنك أحمق لدرجة أنك لم تختر بعد ما كنا نتحدث عليه منذ أكثر من ستة أشهر.

نظرت إلى أخي بنظرة غيظ مكتومة، لأجده يضحك ضحكة واضحة بصوت غير عالٍ، ويلفت أبي نظري بصوته حين وجه كلامه للعامة، ولأمي خاصة:

- أرجو أن نتجنب الحديث في مثل هذه الأمور، دعوا كل الأشياء المُعلقة جانبًا، كل ذي أمرٍ سيتخذ قراره، لكن ليس بوقت الرحلة.

اعترضت تعبيرات أمي على حديث زوجها، فأضافت بكلام غير مفهوم من اللغة الأخرى التي من الواضح إعجابها الشديد بها، ليضحك أبي ضحكة مختلطة بكلام وهو يرد عليها بلغتنا

الأم ويقول:

- لقد أحببتِ اللغة بالشكل الذي دفعك لتعلم شتائمك المفضلة بها.

الكل في وقت واحد ضحك وخصيصًا أنا، دائمًا ما يكون الحديث بين أبي وأمي شيقًا ويستحق المتابعة، ما قل منه وما كثر، وفي وسط ضحكاتي، يناديني أبي وهو ما زال يضحك وفي وقتٍ ما يشير لي لأجلسَ بجواره وهو يقود حتى يتحدث معي على انفراد، أتوقع حديثه معي بخصوصِ اكتشافه أنني أدخنُ حشائشَ مُخدِّرةً في آخر مرةٍ ذهبنا للاصطياد بالأسلحة، نظر إليّ نظرةً بأعين متكلمةٍ قاتلةٍ مُحذِّرةٍ حاضِنةٍ خائفةٍ راجيةٍ متفهمة، لم أستطِعْ تسليط ناظريّ عليه لأكثر من خمسِ ثوانٍ، أدرتُ وجهي تجاه الأرض، فقال:

- حسنًا، لنتكلم من زاويةٍ أخرى هذه المرة، أتُحِب الأمر؟

هززتُ رأسي حتى أعبّر عن اقتناعي التام، أدارَ رأسه إلى الأمام ليظهر عجزُه الكامل، اعتاد الكلام بيني وبينه على الخلو من التلاعب والكذب والتراهات التي تؤدي إلي سراب، لذا لم يكن أمامي سوى طريقٍ واحد يجب عليّ اتخاذه للكلام، فأخبرتُه:

- لست بمُدمِن ولن أكون، وإذا كان خطأً، فلنفعل ما يحلو لنا ونستغل غفران الله لنمارسَ ما نحب ونكفّ عندما نشاء.

ابتسم لي ابتسامةً منعدمةَ الرضا وقال:

- ربما لن يكون لديك وقت حينها.

جاء ابن أخي بلعبة تجاهي واستغللت وسيلة إنقاذي من المناقشة التي لا أملك فيها طريقةً للنجاة، جذبت الطفل وخرجنا من مكان القيادة إلى وسط العربة وجلسنا رفقة أخته، كان أمامهم الكثير من أقلام التلوين وكراسات يستخدمونها في ألعابهم المُختلفه، أعطاني ابن أخي ورقة وقلمًا، ووجه كلامه إليّ قائلًا:

- لنعلب لعبة البلدان، أكتب لنا بلدانًا أكثر هذه المرة.

بعينين شغوفتين كان يحدثني وبصوتٍ عالٍ وافقت أخته على اللعبة وأضافت الكثير من الكلمات المتداخلة مفهومها الإعجاب الشديد، ما كان عليّ سوى إمساك الورقة والقلم وكتابة الكثير من الدول ليتسنى لنا بدأ اللعبة، اللعبة ببساطة تتكون من راوي يختار بعشوائية من أوراق مطوية من الدول المكتوبة دون الإفصاح عن الاسم، يمثل الدولة كأنه هي ويذكر معالم أو أشياء تميز تلك الدولة، وما على المستمعين سوى أن يخمنوا اسم الدولة أو القارة التي تقع فيها، وإن أصاب أحدهم يفُز بنقطة، ومن ثم يصبح هو الراوي ويختار اسم دولة ليخمن الآخرون، وهكذا ينسجم المرح والتعلم.

بدأت في كتابة الدول وأثناء انشغالي مع القلم والورقة دخلت ابنة أخي وقالت:

- هذه المرة توقف عن كتابة دول في القارة العجوز والقارة الشمالية فقط.

ابتسمت ابتسامة أخبث من ورائها الكثير من الخداع، وقلت دون تفكير وبطريقة ساخرة:

- نعم بكل تأكيد.

اكتشف أخي خداعي الواضح لأولاده، وسخريتي في الرد، ليقول موضحًا أمرًا يجهله الأولاد:

- هو يخدعكم، لن يكتب سوى دول في تلك المناطق، لأنه لا يحب سوى الدول ذات السيادة، الدول الكبرى في العالم.

اتفقت معه بمعالم وجهي وتعابيره، لكن كان يجب إضافة أمر ليتعلمه الصغار في هذه المرحلة العمرية، فشرعت بالقول:

- حسنًا، ماذا بالدول الأخرى الأقل شأنًا يحركني للإعجاب بها؟! تلك الدول في تخلف مستمر، فلِمَا أختارها لن يكون الأمر مرحًا.

انتبهت إليّ زوجة أخي وأنا أتحدث فتحركت مسرعة مقتربة مني وهي تحمل في يدها كتابًا تقرأه، ودون سابق إنذار قامت بضربي بالكتاب، وتقول وهي بين الغضب والرفض وبمزاح مستتر:

- كفاك عنصرية، وإياك أن تنقل أيًا من هواجسك إليهم.

تألمت من أثر ضربتها مبتسمًا، مضيفًا ناطقًا:

- حسنًا حسنًا، لن أفعل.

وبعدما أدارت ظهرها لي نظرت إلى الصغار بابتسامة خبيثة

وقلت لهم:

- لن أنقل هواجسي، لأنها انتقلت إليهم بالفعل.

لم أكفّ عن المداعبة حتى وصلتُ إلى الضحك الهيستيري من كل الموجودين، كان ظهري صوبَ مكان القيادة، ستائر نوافذ سيارة البيت المتنقل مغلقة، لكنني سمعت صوت محرك سيارة عن يميني ينمُّ عن سرعةٍ متهورةٍ، وفي أقل من دقيقة تغيّر الضحك إلى صُراخ، انقلبت الحافلة وحادث مروع حدث أمام عيني كلوحة سيريالية عن كابوس أسود، فمات وقت المرحِ العاديِّ بالنسبة إليّ منذ تلك اللحظة، انتهى ما لم أدرك قيمته، لم أفهم حينها أنني كنت في الفردوس فطردت بقساوة بذنب إبليس الذي لم أرتكبه، الأفراد داخل العربة رأيتهم يتناثرون كذرات غبار وقت الإعصار، الجميع يتحلقوون أمام عيني بشكل عشوائي كتواجدهم داخل سفينة فقدت جاذبيتها، عيني وقعت عليهم بألم عدم القدرة على التوجه والمساعدة حتى اصطدم رأسي بمعدن صلب تسبب في إظلام الصورة غير المرتبة.

***

أفقت بعينٍ غير ثابتة، غير مدركة وغير مُميزة، ثم انتبه عقلي الباحث عن الاطمئنانِ فأجبر عيني بعد عناء اتخاذ وضعها الطبيعي حتى تبصر أمان العائلة، كنت بعربة إسعاف حينما أحسست بدماءٍ على وجهي وكدمات ورضوض بجسدي بالكامل، لم أستطع تحديد الأماكن المصابة، كان

أمامي هدف أكبر؛ البحث عن أفراد عائلتي لأهون عليهم إصاباتهم، لم يمضِ الكثير حتى أبصرت دماءهم على الأرض، توقف الزمن للحظات، ووفد الواقع هامسًا داخل أذني بصوتٍ لم يسمعه سوى روحي: «ماتت عائلتك».. في أقل من دقيقةٍ أصبحث لا أنتمي إلى الأحياء، غاب وعيٌ لدقائق وغابت أرواحهم إلى الأبد.

ربما لم أكن أهتم بكل التفاصيل من قبل، لم أهتم بالأعوام، الشهور، الأسابيع، الأيام، الساعات، الدقائق، واللحظات، لم أكن أعلم بمرارة الحسرة على أشياء وأشخاص بدوا لي تواجدهم طبيعي، فاعتقدت سيادة الأمان والترابط وعدم إصابتنا بمكروه، خمنت السعادة العمر بأكمله.

أفقث من جديد بحزنٍ دون دموع بعين ثابتة ووجه لا يميزه شعور، ملامح حادة لا تدري ما إذا كانت غاضبة أم حزينة، متقبلة أم لا تهتم، حتى شكك أفراد فرقة الإسعاف بانتمائي للأموات، سألوني الكثير من الأسئلة: «هل تقربهم»؟.. «هل تسمعنا»؟.. «هل تشعر بشيء يؤلمك»؟.. «أأنت بخير»؟.. «حرك يديك اليسرى إذا كنت تسمعنا».. لم أنتبه ولم أوجه عينيّ إلى أحد، لم يشغل بالي حينها سوى فهم ما حدث، حتى أبصرث بمن فازوا في الحادث، أناس آخرون في العربة صاحبة الصوت.. الذين سمعتهم يتحركون بتهور بجوارنا، يقفون بجانب عربة شرطة يزعمون خطأ سائق حافلة البيت المتنقل، سالمين بالكامل وأنا خاسرٌ أجلس على سرير الإسعاف بعينين جاحظتين ناظرتين

صوبَهم بتمعن، حاسدًا، حاقدًا، كارهًا، مخططًا.

أبي لا يخطئ أبدًا، تلك قاعدةٌ لا تشوبها الظنون، عدَدتُ الأفرادَ الموجودين، أربعة من أشخاص الشرطة، المسعفون اثنان بصحبتهم طبيب، والعائلة الأخرى منها رجل وامرأة، شاب، آنسة، وطفل، يتحركون كلهم كسرب نمل غير منظم باستثناء العائلة يجلسون بجوار سيارتهم يرافقهم شرطيين مع مسعف، سيارة الإسعاف التي أقتعد بها تبعد عنهم ما قارب كيلو من الأمتار، بجواري مسعفين ويبعد عني بنصف مسافة سيارة العائلة وسيارة الشرطة يقف بجوارها شرطي برتبة كبيرة، وشرطيين يبدوان صغيري السن يتحدثون مع الطبيب، تركيزي مع تفاصيل المكان والأشخاص لم يكن فراغًا أملأه بنظرات عين على الناس، بل كان نابعًا من إغواءات أفكاري التي استسلمت لها، لكنني لم أكن أعلم من أين أتحرك للتنفيذ، حتى وجدت حافظة المسدس في جانب الشرطي الصغير منفتحة.

انتظرت حتى يتحرك من يقفون حول سيارة الشرطة ليديروا ظهورهم إليّ كي لا ألفت انتباههم بتحرك العائد من الموت إليهم، توجهت صوبهم بخطوات وئيدة صامتة، وصلت إلى الشرطي المنفك جراب سلاحه فانتبه إلى صوت قدميّ فنظر إليّ وأنا أقترب فقال:

- أيها الفتى، لا ترهق نفسك، عد إلى عربة الإسعاف، أنتَ لست بخير.

لم ألتفت إلى عين الشرطي أو وجهه، ولم تتوقف أقدامي المسحوبة بصعوبة بالغة، عيني نحو خصره لا تتحرك، وقلت له في لحظة وصولي:

- في الحقيقة أنا بأفضل حال.

وضعت يدي علي سلاحه وسحبته قبل أن يحرك جسده، أمسك يدي الممسكة بالسلاح بطريقة عنيفة، فوضعت يدي الأخرى على السلاح وسحبت زر الأمان، ثم لففت يدي حتى توجهت الماسورة إلى أعلى فضغطت على الزناد لتتحرك الرصاصة إلى ذقن الشرطي، فانفجر رأسه وانتشرت قطرات الدم كحبات المطر من فوقنا، سقط الشرطي تاركًا يدي فوجهت السلاح صوب صدر الطبيب وأطلقت رصاصتين.

انتبه الشرطيان بجوارنا للأمر وكان أحدهما بالجانب الأخر من السيارة، والآخر بداخلها، اسرعا بإخرج سلاحهما، اخترت الأسرع وأطلقت النار على رأسه وهو بداخل السيارة، من ثم انتهى الآخر من إخراج سلاحه صوبي مُحذرًا بلهجةٍ شديدةٍ، خفضت رأسي فتخفيت بالسيارة، وتحركت يسارًا مدبدبًا قدمي، ثم اتجهت إلي اليمين بقدم صامتة، فوصلت إليه وأطلقت النار على ظهره ثم رأسه من الخلف.

تبقى شرطي ومسعفان عند عربة العائلة، احتمت العائلة داخل سيارتهم المخربة، وتخفيت أنا خلف سيارة الشرطة أمام عجلاتها، الشرطي أطلق ثلاث رصاصات نحوي ولا أدري إن كان تصويبه سيئ أم كان يريد فقط تخويفي، صغر عمري

كان يعطيه الثقة للتقدم خطوة بخطوة إلى سيارته دون ساتر، كسرت مرآة سيارة الشرطة وشعرت بقربه، فاستعملتها لأرى مكان جسده بوضوح، وقال وهو يقترب:

- ارمِ سلاحك أيها الفتى وأظهر يديك.

أخذت سلاح الشرطي الميت، وقمت بإلقائه من خلف السيارة، اطمأن قليلًا فخفض يديه المصوبتين السلاح بعض الشيء، تقدم، وطلب مني المجيء رافع اليدين، أقترب من السيارة بالدرجة التي كنت أحتاجها، كنت أمسك مسدسين آخرين في كلتا يديّ، وجهت اليمنى من أسفل السيارة فأصابت قدمه، انخفض ساقطًا نحو الأرض بعض الشيء، فحركت اليسرى من خلف السيارة بشكل واضح فاستقرت رصاصة في جبينه.

نهضت من الأرض وتسلقت سيارة الشرطة حتى وقفت على سقفها، قمت بطقطقة رقبتي حتى توجه وجهي بالكامل إلى السماء، وأنزلته برقبتي ببطء حتى وجدت عيناي المسعفين يجلسان على الأرض رافعين أياديهما في استسلامٍ تام، وجهت لأحدهم للتأكد سؤال بصوت عالٍ:

- أهناك أفراد شرطة آخرين؟

فرد صائحًا:

- ماذا تقول؟

كررت سؤالي بصوتٍ أعلى، فرد عليّ بنفس نبرة الصوت:

- لا أستطيع سماعك ماذا تق..

لم أدعه يكمل جملته، قاطعته رصاصة سلاحي المستقرة في عنقه، ثم وجهت نفس السؤال إلى الآخر:

- هل هناك أفراد من الشرطة متبق...

لم أكمل سؤالي حتى قاطعني بأعلى صوت امتلكه:

- لا، لم يتبقَ أحد، كلهم رحلوا.

في هذا الوقت استطاعت العائلة تشغيل محرك سيارتهم التي من الواضح أنها تأثرت بالحادث، تحركوا بها كطفل يحبو ولأول مرة يلمس الأرض، كشفت انطلاقتهم المضحكة وجود عطل في الإطارات، كما أنها كانت تبعث بالكثير من الدخان، و تُخرج أصواتًا مزعجة، بالإضافة لوجود عطل بمخزن الوقود، تخطت السيارة رجل الإسعاف الذي كان مرتعبًا مهتزًا لا يعلم مصيره ويخمنه مفجعًا، حتى خطر لي أن أسأله:

- ألا تريد أن تذهب أنت أيضًا بسيارة الإسعاف؟

كأن أحدًا ألقى إليه حبلًا وهو في مراحله الأخيره للغرق، لم يصدق ما قلت، فأكد على سؤالي بسؤال:

- أتسمح لي؟

رددت دون أن أترك مجالًا للوقت بين كلامنا:

- بكل تأكيد.

هرول واقفًا وركضًا في ذات الوقت، أحببته عندما استغل

كلامي لينجو من حرب لا يدري سبب تواجده بها، سجنٌ أبدي لم يرتكب ذنبًا ليُعاقب به، لم تمضِ لحظات حتى اقترب من السيارة التي أقف على سقفها، تذكرت إمساكي بسلاحين، وفي لحظة مروره من جانبي الأيسر قمت بإطلاق رصاصة فأصبته فوق أذنه اليسرى وهو يركض كغزال نحو فهده، فسقط جثة هامدة.

السيارة الخاصة بالعائلة لم تبعد أكثر من ربعمائة متر، لاحظت انخفاض رؤسهم داخلها حتى لا أصيبهم في الرأس، حركت يدي اليمنى عاليًا حتى أصبحت في مرمى السيارة، اخترت مكان الرصاصة، لكن لم يكفِني هذا، تريثت متأملًا حركة السيارة، انتظرتها تبتعد حتى يشعروا بأمان الهروب، ثم أغمضت عيني، تخيلت نفسي هيكل السيارة، أتحرك بشكل مستقيم لكثرة تعطلاتي، شكلت نفسي كالرصاصة وأطلقتني ذاهبًا نحو هدف واحد، واثق بإصابتي للمكان الذي حددته، بعين ما زالت مغلفة صعد صوت انفجار، لأفتحها وأبصر نجاحي، انفجرت السيارة، تفقدت النيران كأنها ألعاب نارية ليلة احتفال العام الجديد.

هكذا رسمت لوحتي الأولى، وأثناء هذا المشهد وظفت موهبتي في مكانها الصحيح، استغرق حوالي ثلاث دقائق، والبريئون والفدانون صاروا كأشجار غابةٍ محترقة، لم أندم، لم أفرح، لم أحزن، لم يكن انتقامًا، كيدًا، تصرفًا عبثيًا، بل كان كتدخين الحشائش، كان الأمر برمته ضُدفة.. نزلت من فوق سقف السيارة، وأنا أستمتع بهواء صحراء الصيف المنعدم،

خطوت إلى جثة أبي، فتحت عينه لأطمئنه وقلت:

- لقد وجدتُ مساري.

***

اللون الأسود المعتاد، وخروج من الجسد كانفصال الروح أصعب من ميتةٍ طبيعية، أشياء اعتدتها بانتهاء الذكرى، أحاول الإفاقة سريعًا هذه المرة لتفادي الدجالة الخرفاء، ولكن الأمر يشبه الإفاقة من مخدر أثناء عملية في القلب، عيني تنفتح جاحظة منتبهة لمكاني ببئر مبتعدًا عن فتحته بمسافة لا أستطيع تمييزها من هول علو المخرج، مطر يسقط بها لكنني لا أرى ارتفاع مستوى الماء به لظلمته الشديدة تجاه القاع، مع ضوء خافت ينبع من قمر يبتعد قليلًا، أمكث على لوح خشبي معلق في مكانٍ ما به، لا أستطيع الحراك عليه لارتجافه واقتراب سقوطه، ولا أستطيع التسلق لغزارة المطر الساقط على حجارة البئر التي أضحت رطبة، فلن تتشبث يدي بها ولن يصمد حذاء بدلتي.

انتظار حتمي لن ينتج غاية، وجسد في حالة ثبات، وعقل لا يكف عن التفكير غير المجدي، شلت حلولي وتوقفت نبضات البديهة داخلي، وعليّ الخروج سريعًا لتفادي مخاطر لن أتحمل آلامها، زاد الأمر سوءًا حينما ألفت صوت أجنحة وطاويط، رفعت رأسي لأشاهد أعدادًا لا نهائية منهم تقتحم البئر الضيق، تُحلق لأسفله بطريقة عشوائية مرعبة، ثلةٌ اصطدمت بي وباللوح حتى أصدر صوت يمهد انكساره،

فتحطم معلنًا صعوبة الموقف، وقبل سقوطه أمسكت بحجرين بارزين من البئر شديدي الرطوبة، وتعلقت بهما مع قدمي التي تعافر للتثبت بأحجار أخرى، كثرة المطر تعيق تسلقي، يداي انزلقتا من على الحائط فتزحزحت إلى أسفل منقذًا نفسي بالإمساك بأخريات.

الخوف من الوقوع أكبر من الخوف من الموت، لا أبغي نهايةٍ كتلك، لم أنتهِ من ذكرياتي بعد، هناك الكثير الذي عليّ التفكير به، الكثير الذي يجب أن أواجهه قبل انتهاء طقوسي، تتزحلق يداي مرة أخرى وأسقط فأمسك بحجارة أخرى، الأمر يزداد صعوبة، يتعقد أكثر، قاطع قلقي ما كنت أخاف منه، صوت الشؤم مجددًا وهو يضحك الضحكة المعتادة ممهدًا ظهور شبح المرأة ذاتها.

تظهر من فتحة البئر كخيال مظلم ينوي اسوداد كل آمالي وإحباط كل أهدافي، هي لا تنوي سوى الخراب في وقتٍ أخطط بكل تنظيم لأهداف محددة، لا أدري حقيقة غايتها الأهم، كما أنني لا أتوقع أفعالها، ولا أريد احتكاكها بي بهذا العالم، صمتت قليلًا تطلع إليّ وأنا بالظلام الحالك، كأنها تراني وسط نور الظهيرة، تبتعد من مخرج البئر ثم تظهر رجلاها منسابه على حافة الفتحة، أنفاسي يعلو صوتها من سرعتها بسبب تشبثي بالحجارة، تقاطع الصمت والظلمة وصوت أنفاسي الواضح بقولها:

- تلك أهم ذكراك، هنا بدأ كل شيء، هنا أطلقت شخصيتك المحببة لدي، شخصيتك التي كانت مكبوتة بسبب اعتبارات

عائلية ساذجة، كما أنني فخورة بك -يا أحمق- لفعلك كل هذا، آه صحيح، هذا مشهدي المفضل أيضًا.

تتلفظ وهي تهتز فأدركت حركة قدميها كطفلة تجلس بمقعد أعلى من طول ساقيها، سقط حذاؤها القذر ليرتطم برأسي بطريقة مهينة أكثر من كونها مؤلمة، فقالت حينها:

- آسفة على هذا، لا أقصد، فأنا أخطط لإلقاء ثعابين لا أحذية.

تلقي واحدًا من يديها فمر بالقرب مني وسقط في الظلام دون لمسي، ثم أضافت:

- إلا إذا كنت فتى مطيعًا، وأظهرت احترمك وخضوعك للمطالب بالكامل، أولًا: أريد القبلة بكل الحب لتكون بداية لنقاشنا الطويل، ثانيًا: أن تفكر بذكراك معي، أريد رؤية نفسي أنا الأخرى، أطوق لمعرفة مدى تأثيري يا صديقي الحقير.

مهما كانت توقعاتي مبنية على دراسات لا تصيب تصرفاتها، لذا أنا أرتعب منها، لكنني لا ألقي لها البال الكافي لتحريك شفتي ولساني للكلام، إذا وجهت لها كلمة سأُسحب إلى ثقب أسود يهلك عقلي وتفكيري، لم أرد على كلامها قاصدًا لا بالوجوب أو الرفض، فاستفزها هذا، وأضافت غاضبة بنبرة عالية:

- حسنًا، لا تجيب، ستستغيث بي لأنقذك فيما هو قادم، ولن ألبي النداء أيها الوغد المغرور، خذهم بالكامل، فلتستمتع قليلًا في ظلمة هادئة.

تلقي الأفاعي من يديها لكن هذه المرة فوقي تمامًا، لم تقلقني الأفاعي أكثر من وصول هذه المخيفة لتلك المنطقة في عقلي، معناها عناء غير منقطع، خراب سيحل عليّ، وذكرياتي ستكون مشوهة ومبهمة لن تفيدني، لأول مرة تستطيع تلك الخرفاء منذ سنين الإمساك بي.

تلوت الأفاعي فوق رأسي وكتفيّ اللذين لا يتحملان طاقة إضافية، فاختارت إحدى الأفاعي رقبتي كمنطقة أولى لغرس أنيابها بها، وقد نجحت في لدغي من الرقبة، تبعها لدغات أخرى من أخريات في وجهي وأذني، لا أقوى على التحمل، يداي تنزلقان وأسقط نحو الظلام الدامس من فوقي الأفاعي ويعلو المنظر حجم مخرج البئر الذي يتقلص شيئًا تلو الآخر، يصطدم ظهري بلوحٍ خشبي أكثر صلابة من سابقه، يشرخ جسدي اللوح دون كسره لشمكه، تمسكت يدي وكتفي باللوح المشروخ ليصعد باقي جسدي عليه وينجو من السقوط الأبدي.

توازنت على اللوح حتى لا أطاح وأنزلق، وأضافت المرأة الدجالة بصوت أجلف صلب مُتحدٍ:

- ستكون حبيسي لفترة تختار مدتها الزمنية، وسأختار أنا الذكريات من الآن ليصبح عقلك متاهة لا تدري أين مخرجها، أنت من اخترت هذه القسوة، وأنت من سيختار متى نهايتها.

يتوسع شرخ اللوح الخشبي ويصدر أصواتًا أخرى تهم بحطام مؤكد، أسرع في الوقوف وأمسك بأحد الحجارة

لينكسر اللوح أثناء وقوفي ويتبقى منه جزء صغير مثبت بالحائط يكفي فقط لإحدى قدمي، لأكون واقفًا بقدم واحدة وأخرى في الهواء وظهري ملتصق بحجارة ويدين متمسكة بحجارة رطبة، تستمر المشعوذة بالكلام:

- أغلق عينيك ولنستمتع سويًا بكابوس جديد يا حبيبي الأبدي.

أغلقت في ذات الوقت، فتحة البئر بغطاء خشبي كبير يزيد من الظلمة التي كنت أنوي الهروب منها، أصبحت لا أستطيع رؤية أطرافي، لا أجد حلًا سوى إغلاق عيني لأرى ما ستؤدي بي تلك العاهرة.

***

أسفل سماء صافية بداية النهار، في وسط زحام مدينة متحضرة لدولة من دول النخبة في العالم، أمر بسيارة أجرة مع سائق لا يتحدث مع زبائنه، أرتدي معطفًا ثقيلًا أسفله بدلة دون رابطة عنق ونظارة شمس، وصلت إلى وجهتي فأعطيه ورقة نقدية تحمل الرقم مائة، التفت إليّ وقال:

- هل معك عملة أقل؟ لا أملك من المال لأعطيك المتبقي.

تفقدته باستعجاب مصطنع لتوقعي لمثل هذا الموقف، وقلت:

- لمَ لا تحمل نقودًا أكثر في جيبك تحسبًا لمثل هذا المواقف، احتفظ بالعملة بأكملها لا داعي لأن تعطيني المتبقي

منها.

ابتسم ابتسامة شكر وعرفان، أعاد وضعية جسده إلى الأمام، وبنبرة سعيدة قال:

- شكرًا جزيلًا، أتمنى يومًا جميلًا لك.

قبضت على حقيبة موظفين تقليدية كنت أضعها بجانبي، نظرت يمينًا ويسارًا للتأكد بعدم انتباه أحد للسيارة التي أنا فيها أو من بداخلها، أتظاهر بفتح الحقيبة لادعائي بتفقد ممتلكاتي بداخلها، وأرد على ما قال:

- وكذلك أنا.

أخرج سلاحًا بكاتم صوت من داخل الحقيبة، وأوجهه دون ملاحظة السائق إلى رأسه من الجانب الأيسر، وأطلق رصاصة ليسقط على محرك العجلات هو ودماؤه الغزيرة.

خرجت من السيارة مرتعبًا مهرولًا وسقطت على الأرض زاحفًا وسط زحام هائل في منتصف المدينة، أخرجت أصواتًا تدل على خوفي وهلعي، واخترت شخصًا لا أعرفه يمشي بجواري انتبه لتحركاتي غير المفهومة لأقول له بصوتٍ عالٍ وأنا أشير إلى السيارة:

- هناك جثة داخل السيارة، مصابة بطلق ناري

أنهض من ارتمائي على الأرض وقد انتبه إليّ عشرات مما يحيطون بالسيارة، والجميع بالكامل بدأ ينظر داخل السيارة في فضول وبحث عن حقيقة حديثي، ليراه الجميع، فتبدأ

أصوات الفوضى في الانطلاق مع الكثير من صرخات الفتيات والنساء المبالغ فيها، جموع من البشر يتوافدون ليروا ما الذي يدع مجالًا للذعر. تداخلت الأصوات والأعداد المحيطة، وحان وقتي لكلامي المرتب فنطقت بأعلى صوت أملكه وأنا أشير إلى أحد المباني المحيطة:

- هناك شخص يظهر من هذا المبنى يحمل سلاحًا، أخفضوا رءوسكم واركضوا بكل سرعة ممكنة.

أكون أنا أول الراكضين خافضًا رأسي، ويتبعني الأعداد الهائلة من الناس بنفس الهيئة لكن الكل في اتجاه مختلف، فأصبحنا مثل سرب طيور مهاجرة خربت طلقة صائد طائشة هيئتهم المنظمة.

أركض نحو اتجاه مستقيم، وأنا أذيع الخبر ليخرج أصحاب المحلات ينظرون إليّ بهلع والناس حولي يرتعبون، لم أتوقف عن الركض، بل أخرجت من حقيبتي قنابل صغيرة المفعول، ألقيتها على جوانب المباني وداخل بعض المحلات بشكل غير ملحوظ، فتفجرت وزادت من ذعر وخراب وعشوائية المكان، بدلت اتجاهي المستقيم بانعطافٍ نحو اليسار في فراغ بين مبانٍ، وأنهيت الزقاق وولجت يمينًا، ثم يسارًا ثم يمينًا حتى وصلت إلى جانب مبنى محدد بجوار صندوق مخلفات ضخم.

خلعت المعطف وألقيت به داخل صندوق مخلفات، انتزعت القميص والبنطال والحذاء التقليدي والشعر الأصفر المستعار ومكبر الأنف ودفستهم بجاور من سبقهم، ثم أخرجت من

الصندوق حقيبة ظهر ضخمة تخص المسافرين شديدة الثقل، ظهرت بصلعة مصطنعة ولبسي الرياضي الضيق الذي يظهر عضلاتي بوضوح، ارتديت حذاء رياضيًا يناسب ملابسي، لبست قفازات رياضية و نظارات تشبه الخاصة براكبي العجل العدائين، وخطوت حولي عشر خطوات للأمام لأجد على يميني دراجة رياضية فاستقللتها وتحركت بها نحو هدفي التالي.

أتحرك بالدراجة نحو أربعة آلاف متر، أصل إلى مبنى عملاق أسفله بنك تابع لشركة خاصة، أصعد بالدراجة حتى أصل إلى البوابة الزجاجية للبنك، يجلس أمامها فردا أمن عن يميني ويساري يحملان أدوات بدائية بلا أسلحة خطرة، وعسكري شرطة يجلس أمام المبنى مبتعدًا بمسافة بسيطة، أنزل من الدراجة وأنزع الخوزة لأعطيها لفرد الأمن من علي يساري طالبًا منه حملها لبضع ثوان، أنزع الحقيبة من ظهري، أخرج منها مغطي الوجه مظهر للأعين، ارتديته وأخرجت في نفس الوقت سلاحًا رشاشًا آليًا، صوبته نحو الواقف على يميني وأطلقت بعض الرصاصات وبسرعة بالغة لففت للذي على يساري قائلًا: «شكرًا لك»، ثم رشقت رصاصة في قلبه.

وجهت السلاح للعسكري خلفي فسقط أرضًا مضرجًا بدمائه بعدما أطلقت النار، ولجت عابرًا البوابة الزجاجية لأكشف امرأة ورجلين ببدل موظفي التأمين لدى بنك يتوجهان صوبي، أطلقت ثلاث رصاصات فسقطا، قمت بتفعيل جهاز إنذار البنك وأغلقت مخارجه بأكملها، البنك مصمم من

طابقين، أرضي بساحة كبيرة، وعلوي بساحة أقل نسبيًا، أثناء فزع العملاء والموظفين داخله، أصوات اعتدت سماعها عندما أنبلج بسلاح للعامة، أخرجت قاذفًا للقنابل، وجهت فوهته صوب الطابق العلوي وأطلقت ثلاث قنابل في اتجاهات مختلفة، سقطت في الأماكن المختارة وانفجرت لتخلق ذعرًا مهولًا، لاحظت بعدما أطلقت القنابل الأفراد الذين تملكتهم الشجاعة وهموا للتحرك يمكثون في أماكنهم حفاظاً على أجسادهم من معركة خاسرة، اخترت كرسيًا لأقف عليه وأطلقت بسلاحي الآلي رصاصات نحو السقف وتلفظت بعدها:

- صمتً أرجوكم، أريد إخباركم بعض الأشياء، بعدها أكملوا صياحكم المبرر، في مثل هذه المواقف يقول أمثالي ممن يقفون في هذا المكان: التزموا الصمت حتى لا تصابوا بأي مكروه، إذا اتبع كل من في المكان تعليماتي لن يموت أحد. لكن هذا غير صحيح، ستموتون جميعًا اليوم، فمن التقليدي أن يكون دورنا نحن الأشرار مقتصرًا على منحكم الأمل والأمان مقابل مساعدتنا لتنفيذ خطتنا، لكن في تلك الحالة الأمر مختلف، أنا لا أحتاج إليكم، فجزء من خطتي هي أن تموتوا جميعًا، لذا لن أكون قاسيًا عليكم وسأترككم تخرجون أصواتكم المزعجة خوفًا وحزنًا بمنتهى الحرية ولن أعيقكم، ولا سيما أن تتحركوا حركات عشوائية وأنتم تصرخون، سيكون هذا أفضل، هيا تحركوا، وستموتون بطريقة ممتعة كلعبة مسلية، سأعد حتى الرقم خمسة أول من تقع عيني

عليه أو من يقارب جسده مني سيموت أولًا، هيا لنستمتع جميعًا.

بعدما انتهيت من كلامي انطلقت أصواتهم كمنبهات الحرب، عددت حتى وصلت إلى الرقم خمسة، اخترت موظفًا وأطلقت النار على كتفه من السلاح الآلي، فارتعبوا وتضاعفت أصواتهم وحركاتهم، ومن ثم تحركت وكلما خطوت خطوة يبتعد عني الجميع، جزء من الخطة هي تحركي وسطهم دون تتبع أو إظهار من أحدهم شجاعة تعيق مهمتي، ذهبت ناحية السلم متوجهًا إلى أعلى، وأنا أعد أرقامي، وحين اصل للرقم خمسة، أطلق طلقة نحو هدف غير بشري كالكاميرات والشاشات فيرتعبون ظانين موت أحدهم، حتى وصلت إلى الطابق الأعلى فنظرت إليهم من شرفته وأطلقت الكثير من الرصاصات وقلت لهم:

- حسنًا اهدءوا قليلًا فأنتم سيئون بهذه اللعبة، سنغير القوانين، ستبقون منحنين في وضع الأجنة في ثبات تام، ومن يحرك عضوًا من أعضائه يخسر ويموت، هيا سأعد لخمسة، من لم يظهر بالوضع المطلوب سيكون أول من يُطلق عليه الرصاص، هيا واحد، اثنان..

يتحرك الجميع لينفذوا الشكل الذي طلبت، ولكني لم أكمل العد إلى الرقم خمسة وأطلقت النار فور رقم ثلاثة على قدم أحد الرجال الموجودين، ثم أقول:

- أنظروا إليه كم هو سمين، لم يكن ليتشكل جسده بالمنظر

المطلوب في الوقت المحدد.

يتطلعون إليّ جميعهم بنظرة حقارة وعيون يملأها الخوف والدموع، متسائلين بسؤال واضح عن عدم إكمالي عد للرقم المحدد، فأكمل كلامي وأنا أطلق بعض الرصاصات:

- لا تنظروا اليّ هكذا، أنا من أضع قوانين اللعبة وبإمكاني تغييرها في أي وقت.. هيا، الكل إلى الوضعية المطلوبة.

يتحركون في هلع بشكل جنوني نحو الهيئة التي طلبتها، أدير ظهري إليهم وأدخل إلى وجهتي المحددة مكتب مدير المصرف، أجده يجلس على كرسيه وأمامه مكتبه وفي المقدمة كرسيين يجلس على الكرسي اليساري رجلي المنشود، أقول لهما بطريقة لطيفة:

- صباح الخير أيها السادة، أتمنى لكما نهاية سعيدة.

ثم أطلقت النار على مدير المصرف نحو رأسه، وأدرت وجهي صوب الرجل الذي يجلس في غرفته، وأخرجت من جيبي صورته للتأكد من كونه المنشود، ثم دفنتها في جيبي، وتفوهت:

- آسف على هذا، كان عليّ التأكد من كونك الشخصية المطلوبة، ففي آخر مرة قمت بقتل أحد آخر غير المنشود وأعدت العملية مرة أخرى دون دفع إضافي، لأنه كان خطئي، بعدها قمت بقتل من استأجرني لأنه لم يعطِني صورة قديمة للمطلوب قتله بدون ذقن، لا عليك من كل هذا فنحن لا نملك سوى أقل من ثلاث دقائق بسبب مدير المصرف الذي أطلق

إنذار الشرطة، أعرفك بنفسي، أنا قاتل مستأجر محترف، استأجرني أحدٌ لأقتلك اليوم، ولكن لزيادة الإهانة، طلب مني إنشاء حديث بيننا قبل القتل وتعريفك بذاتي، مع العلم بإخباره بعدم ضرورة هذا لكنه أصرّ، وطلب في النهاية قراءة رسالة كتبها لك خصيصًا قبل قتلك مباشرة، والرسالة تقول: «مرحبًا أيها العجوز الحقير، لم يكون من الذكاء التصرف بهذه الطريقة في الاجتماع الأخير، لقد أهنتني أمامهم جميعًا وحتى مع اكتسابك احترامهم فستموت وتخسر كل شيء، ضحك، ضحك، ضحك».. تلك هي الرسالة.

أعدت الورقة إلى جيبي، فسألني:

- أيمكنني أن أدفع لك مبلغ أكبر وترحل؟

ضحكت بصوتٍ خافت، أجبته:

- للأسف لا يمكنك، فالأمر لا يتعلق بالمال، بل ببعض المبادئ، وطبيعة حياة القتلة المستأجرين، فإن فعلنا هذا، سنستمر في تهديد من نقتلهم ونأخذ نقودًا فقط وسنظل بلا عمل فعلي، وسيحدث خلل في توازن البيئة الإجرامية ولن نقتل، ونحن نحب القتل أكثر من المال.

يئس الرجل واسود وجهه، وارتبك منتظرًا الموت الحتمي، لكنه همّ وكأنه وجد كنزًا ثم قال في عجلة:

- حسنًا، هل بإمكانك قتله بعد قتلي؟

رددت على سؤاله بمنطقية شديدة:

- نعم، هذا يمكن أن يحدث، لا مانع، لهذا السبب أخبرت هذا الغبي بعدم ضرورة التحدث مع بعضنا.

أخرج دفتر الأوراق المصرفية وهو يكتب لي المبلغ المطلوب لصرفه فيما بعد، وسألني عن الرقم المطلوب، نطقت:

- أربعة عشر مليون من العملة الخضراء للقتل السريع، وخمسة وعشرون للقتل بعد التعذيب، أرجو كتابة تاريخ منذ شهرين لسهولة صرف الشيك والابتعاد عن الأمور الميراثية.

تعجب من الأرقام قليلًا، ثم أضاف سؤالًا آخر:

- وكم ثمن قتله وعائلته؟

أعجبني هذا العجوز، أحب المتحدين من البشر، أجبته على سؤاله بالرقم المطلوب، وقام بكتابة الشيك المصرفي وتسليمه لي، ومن ثم سألته عن المكان الذي يحب أن تستقر الرصاصة فيه احترامًا له ولتفهمه الوضع، فأشار إلى قلبه، ثم أضاف سؤالًا أخيرًا:

- هل بإمكانك أن تقرأ له رسالة أيضًا قبل قتله.

ابتسمت داخل قناعي، ثم أجبته:

- يا لها من نهاية درامية له، حسنًا أحببت هذا، قل لي الرسالة.

أخرجت الورقة التي كان مكتوب بها رسالة قتله، وأدرتها للمكان الفارغ، منحني قلمًا، وشرعت بالكتابة ثم بدأ هو في

إملائي يقول:

- أيها الوغد..

أثناء تلك اللحظة دقت ساعتي بالتنبيه لوجوب التحرك، فأطلقت النار على رأسه، ثم تحدثت مع جثته وأنا أجهز نفسي للذهاب:

- هذه الكلمة تكفي فلقد انتهى الوقت، وآسف لعدم الإطلاق على قلبك، لقد تشتت بهذه العلاقة الرائعة بينك وبين قاتلك.

توجهت صوب الباب الخلفي المغلق مع وصول الشرطة إلي البوابة الأمامية، في وظيفتنا هذه ما يميز شخص عن شخص ليس فقط طريقة تنفيذه للهدف، بل طريقة تنظيم خروجه السالم، توجهت إلى فتحة بلوعة مجاري صرف صحي مغطاه بغطائها المعدني أمام المخرج، نزعت الغطاء وغطست فيها ثم أعدته إلى مكانه، خندق طويل على يساري مخصص لمرور أشخاص الصيانة يجاور مياه الصرف الجارية إلى الأمام بحركة ليست بالبطيئة، خطوت إلى الأمام نحو ألف ومائتي متر حيث حقيبتي الأخرى التي بها ملابس القوات الخاصة للحكومة المحلية بالبلدة، نزعت القناع والنظارة واللبس الرياضي وارتديت كما يرتدي من يفتشون عني ملابس وقناعًا، من فوقي مباشرة غطاء حديدي لفتحة أخرى من فتحات المجاري، تأكدت من حالة المتفجرات بها وجاهزيتها للانفجار عند ضغطي الزر الخاص بالجهاز المتحكم في جيب سترتي، أحتفظت بالسلاح الآلي فقط

وألقيت باقي أسلحتي والملابس في المياه المتحركة بجانبي لتعوم عكس تحركي، وخطوت لفتحة البلوعة التي ولجت منها، وقبل وصولي بنصف المسافة ضغطت على زر تفجير مدخل البالوعة الثاني خلفي، انفجر المدخل مسببًا صوتًا يسمعه المحيطون القريبون والبعيدون المجاورون، وصلت إلى سلم للصعود إلى سطح الغطاء الأول، وقفت منتظرًا نزول القوات الخاصة الباحثة عن الشخص المسبب لكل هذه الفوضى، تبدأ القوات في نشر أضواء كشافات أسلحتها الآلية إلى الفتحة الأخري ممهدين ظهورهم، فصعدت إلى الفتحة الأولى أمام باب الخروج الخلفي بهدوء منتبهًا لكامل عددهم، لأجدهم ملتفين ظهورهم لظهوري.

أخرجت جسدي كاملًا من الغطاء ثم أغلقته، ولجت مرة أخرى بهيئة القوات الخاصة إلى البنك لأجده خاليًا من الشرطة حيث البعض خارج الباب الخلفي نحو صوت التفجير والآخر أمام الباب متأهبين لأي شيء، نزلت إلى الدور الأرضي حيث ساحة البنك الكبرى لأجد الأشخاص المصابين من رصاصاتي يحيطهم السالمون لتهوين الألم، فتوجهت صوب المصاب في قدمه لأخبره:

- لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام، إصابتك ليست خطيرة، سيصل رجال الإسعاف في الحال، قم بالضغط عليها حتى لا يسيل كثير من الدم.

انتصبت من قرفصتي وأخرجت الجهاز المتحكم بالمتفجرات وضغطت على زر انفجار الفتحة الخاصة

بالمجاري أمام مخرج المصرف لتنفجر جاذبة باقي أفراد القوات الخاصة إلى داخل المصرف ومن جانبيه، متوجهين إلى صوت الانفجار الثاني، وأنا أتحرك عكس حركاتهم إلى سيارتهم أمام سلالم المدخل الرئيسي للمصرف، وصل المسعفون يركضون إلى الداخل، فصدحت بصوتٍ يبدو عليه القلق والشدة وهم يركضون:

- أسرعوا، هناك مصابون ينزفون حتى الموت.

مشيت وعبرت الشارع الرئيسي للمصرف لأصل إلى الجانب الآخر، ركبت سيارة سوداء، أقودها وفي ذات الوقت أغير ملابسي بأخرى كانت داخل السيارة مكونة من قميص أزرق وبنطال أسود وحذاء بني، نزعت القناع ووضعت عدسات لاصقة بلون أخضر وارتديت نظارة نظر مزيفة، مشيت بالسيارة نحو خمسة عشر كيلو مترًا، ثم ترجلت منها تاركها في مسافة بين عمارتين، وأخذت حقيبة ظهر بسيطة، قمت بإيقاف سيارة أجرة لتوصلني إلى محطة قطار أنفاق وسط البلدة، خطوت إلى حمامه، ودخلت لأغير ملابسي مرة أخيرة إلى قميص أبيض وبنطلون أسود ومتلحفًا بشعرٍ مستعار تاركًا النظارة والعدسات الأخيرة لأرتدي أخرى شمسية لضعيفي النظر وأنا لست كذلك.

استقللت قطارًا لأصل إلى محطة مجاورة للجامعة الحكومية الكبرى بالبلد، والتي تعد من أفضل عشر جامعات بالعالم، تفقدت ساعتي لأجدها العاشرة إلا ثلث، أوقفت سيارة أجرة لتوصلني إلى باب الجامعة، حيث امتحاني

النهائي في كلية علوم الاجتماع بالسنة الأخيرة وبهوية مزيفة، عبرت من بوابة الجامعة، لا أحد يعرفني ولا أنتبه إلى الطلاب والأشخاص داخلها، لا أتعرف على أحدٍ ولا أصرح حتى عن هويتي غير الحقيقية، لم أزر يومًا القاعات الدراسية ولا أحتاجها، كل ما يلزمني هو إحدى الطرق الملائمة لدراساتي المختلفة ولأهدافي غير العقلانية، كطريقةِ اختيار شخصيات جامعية حقيقية كسولة أنوب عنها بالامتحانات النهائية بإغراءات مادية وميزة التفوق الدراسي، أو كاختلاق شخصيات غير موجودة والولوج إلى المنظمات الرقمية الخاصة بالجامعات المتردد عليها للدراسات المختارة، وإضافة الشخصية الوهمية إلى نظامهم الرقمي، وكل هذا ليس للدراسة، فأنا أدرس الدراسات النظرية بمفردي، والعملية أخترق آلات المراقبة الآلية الخاصة بالقاعات العملية في وقت تصويرها، أو تسجيلات ذات آلات عندما لا أحضر المحاضرات في أوقات انشغالي، ولا أحتاج سوى شغفي وإصراري على الهدف المنشود، وأحضر الامتحانات النهائية فقط لمعرفة المستوى الموصول إليه، ودائمًا ما يكون المستوى الامتيازي.

لا يبدو كل هذا عبئًا، فقد اعتدت هذا منذ سن الثامنة عشر حينما اخترت عدم اختيار مجال دراسة واحد فقط لتسكين تفوقي ومهاراتي وقدراتي الدراسية، فلما حددت مساري وأهدافي ومواعيد الوصول إليها، كان تفوقي وتميزي وأهدافي في مجال القتل تحتاج لدراسة مجالات دراسية

معقدة حتى أضيف التعقيد إلى شخصيتي فترة بنائها، لأرث مزاياها وصعوبة الوصول إلى مستوى يقارب مستواها عند بلوغي لعمر متقدم ومستوى الاحتراف في مجالي المختار.

لكن الصعوبة كانت تكمن في اختياراتي لمجالات يصعب تنسيق أوقات دراستها واختباراتها سويًا، ولأن كل مجال دراسة في دولة مختلفة عن أخرى، فكان يقترب من الاستحالة موازنة فروق التوقيت بين الدول وإمكانية حضوري في كل اختبار دون تأخير، لكن تلك العوائق لم تعطلني، فحتم عليّ اختيار مستويات أقل في الجامعات عن العشر الأفضل في العالم، بالإضافة إلى تأجيل امتحانات في بعض المجالات لدورها التخلفي عن الدور الأساسي، ومع كل تلك الصعوبات كانت دائمًا النتائج متوقعة.

وصلت إلى بوابة قاعة الامتحان الكبيرة، الطلاب مرصوفون كأحجار الأموات الرخامية في مقابر النجيل الأخضر، البعض متوتر ببلاهة والآخر متأهب، لا أضع كل تركيزي حول المكان بعدما تأكدت من طبيعية الأمور ومسارها الروتيني، لأوجهه على اختبار اليوم الأخير لي في هذه الجامعة، جلست في مكاني المخصص ولا تمر ثلاث دقائق حتى تُمنح أوراق الأسئلة المنتظرة.

الوقت المخصص لإنجاز أسئلة الاختبار ساعتين، انتهيت واثقًا في صحة حلولي بعد ثلاث عشرة دقيقة. طلبت المغادرة بعد انتهائي ورحلت في ذهول وتساؤل الطلاب لصعوبة الاختبار عن المستوى المتوقع، تحركت في ساحة

المبنى الرئيسي الكبير، منتظرًا وجهتي لتصطدم بي، مشيت بحركةٍ غير سريعة دون الالتفات، أفتش بعيون غير ثابتة عن شخصي المفضل، عمن يبحث عني، أتمشى بشكل يمنحه ظنًا بتهربي، مرتديًا نظارتي، فلا يعرف المحيطون إلى ماذا أنظر وأين تتجه عيناي بهيئة غير واضحة، إنها تنقب عن أحد.

لم أنتظر طويلًا حتى انتبهث إلي الشخص الذي أنتظره وينتظرني، هو خطئي الكبير الذي لا أندم عليه، هو صديقي الذي لا يعرفني، وهو الأمر الذي قررت نهايته الآن وإلى الأبد، أستاذي الجامعي الذي وودته وقابلته كثيرًا طيلة فترة الدراسة وما كان عليّ أن أفعل، وقد عرفني رغم تلاعبي بهيئتي كالمعتاد، وشخصيتي المزيفة غيرت فيها لتكون أكثر تزييفًا. توجه إليّ يظن بأنني لم ألاحظ مروره، فتلفظ مناديًا مرة ثم أخرى، فتصنعت عدم السمع وتخطيت وتباطأت خطواتي حتى اقترب من ظهري سريعًا وعلا صوته من جديد بمناداتي، فالتفت جسدي وأنزلت نظارتي من وجهي، فظهرت عيني بألوانها المزيفة وملامحي بابتسامة تملكت وجهي بالكامل ثم قلت:

- كنت أخشى انتهاء اليوم دون مقابلة.

تبدلت قسماته كأنه كان يبحث عن أمرٍ غير طبيعي فيّ، كمن كان يراهن نفسه بعدم قدومي اليوم، تزعم صمتٌ طويل، هدوء يحمل معه تركيزًا منه على أشياء غير التحية التي ينوي إلقاءها والمصافحة المعتادة بيننا، فأردفت:

- هل أنتَ بخير يا بروفيسور؟

نظراته الغريبة وتعلقه على هيئتي أكثر من اللازم وملامحه الحادة أربكت تصرفاته التي كانت طبيعية في كل مرة أقابله فيها، إلى أن بات هو الآخر متيقنًا بعدم طبيعة مظهره، فأردف سائلًا:

- ما الذي كنت تفعله اليوم هنا؟ هل امتحنت؟ ترتيب اسمك أبجديًا مُحدد ليوم غد.

بش وجهي وأنا أرد على سؤاله المتوقع بطريقة تُضاعف تساؤلاته:

- لا تطلق تركيزًا حول هذا يا بروفيسور، المهم خوض الامتحان.

مددت يدي لأصافحه أثناء حديثنا في خطوة متأخرة، لكن تأخرها مناسب لتوتر الحدث، قبض على يدي بقوة كسابقها، لكن الغريب في تلك المرة هو شعوري بأنه يعلن التحدي الصريح بين شخصين. انتبه هو الآخر.. شيءٌ غريب فيّ، عيني حادة منتبهة ومتأهبة، نزعت رداء الطالب المثالي الذي أتعامل به طوال فترة معرفتي به، وابتسامة يظن أنها مصطنعة، لكنها تعلم القادم. شرعت يداه في التراخي والانسحاب، وبدأت عيناه في الهروب من عيني، وقبل رحيل يديه بالكامل من يدي أردف قائلًا:

- بالتوفيق، هناك مكالمة متأخرة عليّ القيام بها الآن، عذرًا، سنكمل حديثنا لاحقًا.

يظنني سأتركه، يعتقد بأن سذاجتي ما زالت في مراحلها القوية، لم أترك يده وهو يتكلم، ثم أسرعت بالرد:

- يمكن للمكالمة أن تنتظر نحو عشر دقائق، فأنا كنت قد بدأت في البحث عنك وأنتَ الذي وجدتني للتو، ما رأيك بكوب من القهوة التي تفضلها في آخر أيامي بالجامعة، سأدفع أنا.

السكوت ملأ تعابير وجهه، قلق شرع في الظهور، وارتجاف يمهد وصوله، لكنه يتماسك، يبني جدار الثقة بالنفس الذي بدأت تتساقط حجارته، فأكمل بالرد على حديثي بعدما قام بإغلاق جفنه عدت مرات:

- بالتأكيد يمكننا، كنت سأعرض عليك الأمر ذاته في مكتبي، لكن علي الاهتمام ببعض الأشياء التي لا تحتمل التأخير، وبعدها سنتحدث...

لم يكمل حديثه براحة، فقد قاطعته:

- أنا لا أملك الكثير من الوقت مثلك يا بروفيسور، من الممكن أن تكون تلك هي آخر المرات التي تراني فيها، ستفوت على نفسك أمورًا كثيرة تحاول فهمها إذا رفضت عرضي باحتساء القهوة سويًا، وأعتقد أن الخمس عشرة دقيقة لن يأخروا عليك الأمور المهمة التي تتحدث عنها، لكنني لن أقف معترضًا إذا قررت عدم المجيء، فننتظر أن تحمل الصدف ميعادًا يجمعنا.

تركت يديه وأدرت له ظهري وذهبت، ولم تمر أكثر من عشرين ثانية حتى تابع جسده جسدي ووصل إلى المرافقة، اتجهنا إلى مقهى وسط مباني الجامعة والطلاب يتدفقون حولنا، ظهر متلقي الطلبات بعدما جلسنا بمنضدة على أطرافها كرسيان يواجهان بعضهما، طلبت قهوة دون كافيين تحمل الكثير من السكر، طلب هو القهوة ذاتها بلا سكر، ذهب الرجل وتركنا لنبدأ حوارنا الأخير.

توتر يتجلى ظهوره، وصمت يتداخل بيننا مع ضوضاء النظرات المُقابلة، أسرع عقله لينقذ ثباته حين سألني:

- أكان الاختبار صعبة أسئلته؟

سؤال ساذج من شخص يجاهد ليثق بنفسه في معركة يجهل فيها قدرات عدوه، ومن الغباء الاستدراج نحو إجابة، وإلى موضوع كهذا وأنا لا أملك وقتًا، تجاهلت تساؤله المصطنع وطرح سؤالًا آخر:

- أتعلم كم المدة التي لم نتقابل فيها يا بروفيسور، أكثر من ثلاثة أشهر.

تغاضى عن تجاهلي لسؤاله، وتنهد محبذا الرد على كلامٍ ظنًا منه أنه بداية لنفق نحو نقاش عادي بين طالب وأستاذه، لكن الوضع هنا مختلف، فالطالب ليس بالطبيعي، شخصيته مزيفة، والأصلية يجهلها الأستاذ الذي وقع شيء آثار فضوله لينقب خلف شخصيتي منذ أكثر من شهرين، أجهل ما حدث، لكن علمت بقدومه لعنواني المزيف، والأشخاص المحيطين

بالشخصية المزيفة، ثم البحث حولي بشكل مباشر، لم يصل إلى حقيقة واضحة، لكنه أبلغ إدارة الجامعة بالتحري، وضرورة التحقيق معي، لكنني ظهرت اليوم بشخصية مزيفة عن شخصيتي المزيفة الأولى مع قليل من التغيير عن شكلي المزيف الأول.

شرع في الحديث بالحوار المعتاد بناؤه مني وقال:

- لاحظت غيابك، لم تتواصل معي بعد الاختبارات الأخيرة، ولم تظهر في أي من محاضراتي، لكني أعتدت مثل هذه التصرفات من قبل طلابي على مدار وقتي كأستاذ.

ابتسمت ابتسامتي الودودة المصطنعة معه، ثم نطقت:

- لا أظن أنني أشبه أحد طلابك على مدار تدريسك، أو حتى أشبه زملاءك النابغين.

بعدما كانت عيناه تهرب من نظرات مباشرة في بعض الأوقات، حتى لا تكشف شكوكه بشكل كامل، أثار حديثي حواره المدفون بأعماق صدره، أرغم عينه لتنظر محتدة مبتسمة تظن غروري سقوط في فخ لم يزرعه، فأضاف سؤالًا ينوي به بداية صراحة بين كلينا:

- وما الذي يجعلك مختلفًا؟

مرة أخرى يقف عند الدائرة البيضاء المضيئة التي أريد، ومرة أخرى أأجل سؤاله وأرد بسؤال آخر:

- ما الذي يُحدد وظيفة الفرد في المجتمع التي تُحدد بشكل

كبير دوره؟

لكزت روح المبارزة بداخله، فلم يلبث متنفسًا بزفير حتى رد على الكلام بنظرية دمت أعرفها:

- دورك لا يرتبط بوظيفتك، لا شك أن الوظيفة لها الدور المباشر في التأثير، لكن تلك نظرية من نظريات مختلفة حول ارتباط الدور بالوظيفة يا بني، لكن الأمر دائمًا يرجع إلى مدى تأثيرك كشخص، إذا كنت مؤثرًا في مكانك كموظف، ستكون مؤثرًا بدورك كفرد في المجتمع، والذي يحدد وظيفتك ومدى الفعالية هي مهاراتك وقدراتك ومستواك التعليمي ونبوغك والتزامك.

أنهى كلماته في لحظة قدوم مقدم المشروبات، وضع القهوتين وانصرف، كان رده على سؤالي منطقيًا لوجهة نظره ونظر أناس أمثاله، فلن أعترض على ما قال، ليس لموافقتي، لكن لأن هدفي في الحوار هو ألا أفوز به، فقط هدفي هو الإشارة إلى بعض الأمور التي يجهلها، حتى يتعرف عليها وتجيب على تساؤلاته، فرددت على كلامه بثبات:

- وهل يشترط أن يكون التأثير دائمًا بشكل إيجابي؟ إذا كان التأثير الإيجابي هو التأثير المطلوب فقط، فلن يكون هناك تغييرات في طوابع العالم، إذا لم تظهر الشخصية النازية في المجتمع الغربي، فكيف كان للحرب العالمية القيام؟ ولقد أفضت سيادتك أن الحرب العالمية كانت لها مكاسب أكثر من خسائرها، فلو لم تقم، هل كنا سننعم بمجتمع محب للسلام

كهذا، في وقتنا الحديث؟!

طريقة كلامي القاسية في آرائها الجديدة بالنسبة له بعثت عليه التفاجؤ، سبب تغير وجهات نظر شخص بالكامل، ثارت تساؤلات تظهر بين عينيه ونظراته، مضمونها انخداعه بشخصيتي السابقة، هم ليسأل سؤالًا في غاية الأهمية بالنسبة له وهو يشرب من قهوته بعدما قبضها:

- وهل الشخصية النازية بالنسبةِ لك شخصية لها دور هام في بناء مجتمع صالح؟

رددت دون منح مجالًا للصمت:

- لن يكون هناك مجتمع صالح إذا لم تظهر التأثيرات السلبية في المجتمع لنعالجها، بل هناك أوقات يكون دور الشخصيات المنحرفة أكبر وأهم من دور المسعفين والمنقذين، لأنهم يظهرون مشكلات مكبوتة لم تكن في الحسبان ولم تطرأ من قبل على المجتمع، لذا فلم يكن هناك حماية لأنها لم تكن محسوبة الحدوث.

تضاعف قلقه مع تبديل آرائي التي كانت هادئة والآن كإعصار، وشرع في رسم شخصيتي الحقيقية، وأخذ يزيد من جرعة شربه للقهوة، وأنا أضيف:

- أنا لا أمدح في الشخصيات المنحرفة يا بروفيسور، بل فقط أمنحها حقها، لذا فتبع وجهة نظرك لن يكون التأثير في المجتمع مرتبطًا بالالتزام قط، لكني أتفق معك المهارات والقدرات والنبوغ والمستوى التعليمي بالطبع لهم الدور الأهم

في تحديد وظيفة الشخص.

أفتر باصطناع وهو يرد:

- من الجيد الاتفاق على شيء كما كنا.

جملة نزعت منه رداء الوقار، أنقصته الكثير من الثقة، أظهرت صعود توتره إلى أقصى الحدود بعدما تفوه بها وهي مصطنعة فلم يتقنها، وهو متأكد من تقليل شأنه وهو يقولها، وتأكدت تخميناتي حين يشرب القهوة باستعجال حتى ينهي المقابلة بيننا، فكل كلامي ينبئ بخطر يشعر بوجوده حينما بدأت الشكوك في شخصيتي، لكني أجهل متى بدأ في الشك، رددت عليه بابتسامة كادت أن تظهر صوتًا وبطريقة مصطنعة مثله:

- أنا دائمًا أفخر باتفاقي معك في الكثير من الآراء، لكن اتفاقي معك يشوبه تساؤل ما دام يثير تفكيري من الحين إلى الآخر ولا يوجد غيرك سينهي هذا التساؤل إلى فهم مطلق، ماذا إذا ظهر شخص، يملك من القدرات الاستيعابية والذهنية التي لن تتكرس فقط في مجال واحد؟ ما التصرف السليم لهذا الشخص في رأيك؟

فتحت له الباب ليظهر بعضنا لبعض الاحترام، ولنتحدث بكل صراحة إذا كان ذكيًا سيدخل وإذا لم، فأنا لا أريد منه ضياع وقت أكثر مما ضاع، لكنه صمت وحرّك قدمه ليضعها على الأخرى ووضعه للقهوة على السطح الثابت وانطلاق عينيه للكشف عن التحدي كان ينم لا محالة عن ذكائه، فقال:

- يكون منحرفًا، كم من المجالات تدرس يا من أجهله؟

دخل بابي بكامل إرادته فقط ليفهم كل ما هو مبهم له، ولن أرد له سؤالًا، لكني أريد معرفة بداية قصته أولًا، لذا فسألت:

- ما الذي منحك شك حولي؟

رددت دون تفكير في الأمر بعدما فهم قصدي من السؤال، بإعطائه الإجابة أولًا ثم أعطيه أنا، وهو يتيقن من كثرة أسئلته عني، فقال:

- بعد آخر اختبارات هنا في الجامعة دُعيت من أساتذة زملاء قدامى من الجامعة الكبرى في غرب القارة لحضوري بشكل غير رسمي مؤتمر تكريم زميل لنا في كلية الهندسة سيختم مسيرته المهنية، وصادف أن الجامعة لم تنتهِ من اختبارات طلابها، وفي يوم كنت فيه هناك، رأيتك بهيئة مختلفة وملابس مختلفة لكن التركيبة الكاملة كما هي، ظننتك شخصًا يشبهك لكن رحيلك بطريقة مسرعة أثار سؤالي عنك وجهته لزميلي في كلية الهندسة الميكانيكية، الذي أقر بعدم رؤيتك في أحد محاضراته، اهتمامي بك كشخص زاد إصراري، فطلبت منه البحث في سجلاتك الجامعية التي أفادت بتميزك بدرجاتك الدراسية طوال سنواتها، الدرجات النهائية بالطبع، حينها وجدت تشابهًا بين طيفك السائر أمامي وبين جلساتنا الفردية وجشعك للتفوق الذي يضاف دائمًا في الحوار بيننا.

لم أشك للحظة في صدق كلامه، ولم أغضب لتصرفه

الواقعي، بل كل الغضب وقع على الصدفة النجسة التي دمرت علاقة اجتماعية هي الأهم في حياتي بالوقت الحالي، وبعدما انتهى طرح سؤالًا واقعيًا:

- لم أجد حقيقتك ولم ألمح خيالًا لك، ربما تصرفاتي كانت طبيعية بافتراض التطرف من شخص يخفي هويته، ويحاول دراسة مجالين تبتعد العلاقة بينهما بابتعاد الكواكب، فهل تسمح لي بسؤالك، من أنت لتدرس المجالين؟

تجرع الحسوة الأخيرة من القهوة وهو ينهي سؤاله، لم أخطط باطنًا إخفاء حقائق يسعى لاكتشافها في الوقت الحالي، وطالما أردت إشراك شخص داخل بيتي المخفي، لذا فكان الرد عليه بالصدق الكامل فقلت:

- ليسا مجالين بل ثلاثة عشر مجالًا إدارة الأعمال، الإقتصاد، التكنولوجيا الحيوية، طب التشريح، الطب النفسي، القانون الدولي، اللغات الغربية والشرقية، السياسة، الأمن السيبراني، هندسة الحاسوب، الميكانيكا وهندسة الطيران.

ذهول فاض على تعبيراته التي كادت أن تصل إلى البلاهة، وأضاف وهو غير مصدق وغير مكذّب:

- وعلم الاجتماع.

اتفقت على تصحيحه لما قال ونطقت:

- عذرًا أخطأت العد، أربعة عشر مجالًا.

تنهد ممهدًا لبداية أسئلة أكثر تعقيدًا، وتلفظ:

- هذا مستحيل، دراسة مجالات تبعُد عن بعضها كتلك، كيف وفرت الوقت؟ كيف كنت تتفوق فيهم؟ منذ متى وأنت تفعل كل هذا؟ وما هي استفادتك؟

من الصعب التصديق بوجود من هم قد خرقوا القواعد الطبيعية المتعامل بها من قبل أذكى البشر، فما بالك بمقابلة أحدهم، والتعامل معه بمجريات روتينية لا تتوقع أبدًا أنه قد اخترق حواجز الواقع التي مرت حياتك وأنت تؤمن بها، من الصعب فهمه بل من الصعب تقبله وتصديق كافة الأحداث، حتى ولو فصلت له كل التفاصيل سردًا، لم أعترض على أسئلته لكنني لن أجيبها كلها، سأرد عليه في بعضهم بإجابة تمنحه القدرة في وضع باقي الإجابات لباقي الأسئلة:

- ربما الاستفادة هي الدافع لخلق قدرة خارقة تستوعب ما أقوم به الآن، هي التي منحتني الإيمان بطاقة لا نهاية لها، استيعاب الإنسان كالمساحات الدولية، إذا ما رسمت لدولة حدود معينة، فمهما كانت البلد متحضرة ومثقفة ومتفتحة ومؤسساتها قائمة على أسس علمية، ستكون حرة في بناء حضارتها داخل تلك الحدود، لكن إذا منحت دولة أخرى تتمتع بنفس الطاقة حدودًا غير متناهية من قارتها، بمساحة أكبر و أراضٍ أكثر، فحتمًا ستكون حضارتها الجديدة أكبر من كل حضارات من يجاورونها بحدود أقل، والاحترام الذي ستتلقاه سيكون أكبر من احترام يتمتع به ذوو البلدان المحددة حدودهم، وأنا لم أرسم حدودًا لقدراتي، أنا ملكت عالمي الخاص بلا حدود أو حتى سقف يعلوه سماء.

الفهم دائمًا يمنح متلقيه ثباتًا، نشوة أبصرها في عينيه، بدأ يرسو بأفكاره نحو شواطئ عقلي، بمحض إرادته، أجبرته على الاحترام، وبعينين اتسعتا لا تُغلق أجفانها قال:

- تلك القدرة الخارقة لو افترضنا وجودها، سيكون هدفها مناسبًا لطاقتها المبذولة، والأهداف الكبيرة غالبًا ما تكون خبيثة، خصيصًا لو كانت خطواتها تُؤخذ خلسة.

لقد وضع قدمًا فوق الأخرى أمام مدفع ينوي ضربه بكامل ذخيرته، ولن يرحم ضارب المدفع من يواجهه، فهم ما أنوي إليه، وفهم موقفه وصعوبة الخروج منه، فرددت لأؤكد على كلامه:

- الخبيث والطيب أمران يختلف فيهما بنو البشر فقط باختلاف نظرياتهم واعتقادهم، لكنني لا أؤمن باعتقاد يعيق أهدافي فقط لأنه يسمي أهدافي بغير مسمى يبدو حسن، أهناك أسئلة أخرى تود طرحها؟

دون تفكير ودون صمت ينم على التردد، قال:

- أكنت تتقرب في كل كلية من أستاذ بها؟

أجبته على سؤاله في عجلة غير واضحة بعدما نظرت إلى ساعتي مكتشفًا قرب استنفاد الوقت:

- أنت الوحيد الذي تقربت منه منذ قراري باتخاذ مسار يصعب فيه التقرب إلى أحد، بروفيسور، في مهنتي التي أنا عليها الأهم بها هو جهل حقيقتي وشخصيتي الحقيقية، حتى

أنا لا أفكر في ذكرياتي الأصلية، ولا أفكر في لقب عائلتي أو أشياء تجعلني دائمًا متذكرًا من أنا في الأصل، أنت تجهل خطورتي وخطورة موقفي، ربما عليك التأمل قليلًا فيما تبقى لك من وقت من تلك المقابلة، أنت الوحيد الذي تقربت إليه، ولا يوجد سبب مباشر لاختيارك عن غيرك، شعرت بحاجة إلى التحدث لأحد، واحتياجي لتكوين علاقة اجتماعية عادية بلا هدف مباشر فتحدثت معك دون النظر إلى مخاطر حسبما أتاكد في قدرتي على التخفي، فلم أتردد، لكن هذا الموقف سيساعدني في أخذ الحيطة فيما هو قادم.

تنهد يفكر في طرح أسئلة أخرى بعدما جاوبته على آخر سؤال دفعه إليّ، لكني قطعت كلامًا كان في المهد للظهور من فمه:

- أظن أن السؤال التالي سيكون فضولًا عن وظيفتي، سأختصر الطريق لك لأن الوقت قد نفد من كلينا، وسأتلو عليك روتين يومي بالأمس بما يمنحك الإجابة لما تبقى لديك من أسئلة، لكن قبلًا أود إضافة معلومة لك، أنا لا أشرب القهوة بسكر.

بدأ يشعر ببعض من الاختناق وأخذ يفك عقدة العنق قليلًا وأنا أتحدث مع إظهار سعال خفيف، وأكملت حينما حل صمت سعاله:

- البارحة في الساعة الثانية عشر بمنتصف الليل ذهبت إلى مصنع قهوة يبعد عن الجامعة ما يقرب تسعة كيلو من الأمتار،

وأنا مرتدٍ بذلة عمالة بسيطة من أحد المطاعم، أعطاني رجل يعمل بالمصنع عبوتين قهوة منزوعة الكافيين، ذهبت إلى منزل أقيم فيه بصفة مؤقتة، استخدمت حاسوبًا لتعطيل خيال بعض عدسات المراقبة في تلك الجامعة، وتنكرت في زي طالب يملك حق السكن في سكن الجامعة، دخلت إلى سكنه الخاص بعدما منحته هدية قضاء ليلتين مدفوعتي الأجر في أفخم فنادق المدينة، مما أكسبه شعورًا بتجاهل اختباراته والذهاب إلى هناك، لأبيت أنا مكانه وأنهض في الخامسة صباحًا أضع عبوتيي القهوة المسمومتين في هذا المقهى بدلًا من العبوات بالداخل، وكان علي التأكد من تزامن ميعاد فتح المقهى مع وصولنا حتى لا يشرب أحد قبلك المشروب المسموم مع اطمئناني بقلة من يطلب قهوة منزوعة الكافيين هنا، ذهبت بعدها إلى مهمة تشابه ما فعلته معك، وعدت في ميعاد الاختبار مكان الطالب الذي قضى ليلته في الفندق وتسمم بمشروب كحلي هو الأخر.

خوف وفزع ظهرا وتصاعدا أثناء سردي، لكنه لم يوقف شرارة الفضول داخله التي أجبرته على الاستماع إلى قصة نهايته بانتباه دون مقاطعتي بصراخ أو استغاثة، أثبت لي تحضره ووقاره بطريقة موته الهادئة، حيث بدأ السعال في التزايد وصعوبة التنفس في الظهور دون فرط حركة منه، ثم زاد اتساع عينيه وسعاله يتغير لصوت شخص ميت حي بدأ في التحرك، لكنه ما زال يدرك ووعيه لم يرحل بعد، لذا انتهزت تلك الفرصة وأضفت آخر كلامي:

- لم أجد صعوبة في قرار قتلك أو حتى في التخطيط وتنفيذ الخطة ولم أنتبه إلى كم من سيموت بعدك من نفس القهوة إلى حين اكتشاف السم، أصعب شيء كان في الانتهاء من الاختبار في ثلاث عشرة دقيقة بعدما صعبت الامتحان حتى لا أصل إلى الدرجات النهائية، واستعنت بنظريات غير مقررة في منهجك المحدد عندًا مع شخصي، سعدت بلقائك يا بروفيسور، لقد أصبت في كل أسئلة الاختبار.

انهار تماسكه، بدأ السم في الانتشار إلى خلايا جسده، وهو من النوع الذي يستهدف الجهاز التنفسي والعصبي فيفقد متلقيه وعيه بالكامل لينكب في غياب تام لحوالي ثلاثة أيام ثم يقضي على باقي الأجهزة الحيوية، سقط من على كرسيه الأمر الذي تتبعه إظهار مهاراتي في التمثيل، بعدما انتبه له الجموع لأفزع أنا وأنهض مهرولًا إليه، ثم قمت باستدعاء الإسعاف من هاتف المقهى، ناديت أمن الجامعة ليساعدنا مع تعبيرات الصدمة لما وقع والخوف الظاهر وقلقي على الجسد الملقى أرضًا.

***

شهيق طويل بصوت مرتفع يُعيدني من ذكرى غير مرتبة وغير مرغوبة إلى ذاتي الحالية، أقفز من موت إلى موت، صفحة سوداء معتمة، لا يمكن مشاهدة تفاصيل المشهد من خلالها، لكنني أحسست ذات الشعور بالخوف، قدماي تنهاران من شدة التركيز على عضلاتها للثبات حتى لا أسقط من فوق اللوح المكسور، وظهري يلتصف بالجدار المبتل من آثار المطر،

عدت حيث كنت، إلى البئر، بعدما أجبرتني العاهرة في تذكر ما أتهرب من تذكره، وعلى ذكرها، فتحت العجوز البئر ليظهر ضوء خافت مصدره سماء منطفئة وقمر مظلم أغلبه، وكأن العالم حزين.

تنكشف العجوز برأسها حاجبة النور الخفيف المنبعث من الأعلى وشعرها المتناثر يُحلّق لأعلى وأسفل، المسافة بيننا ليست بالهينة، ومعظم الألواح الخشبية غير ثابتة وترتجف، لكنها بدأت في النزول إليّ بشكلٍ مرعب، تتحرك إلى تحت بإمساك الجدران بيديها والخطو بقدميها على ما تبقى من الألواح المُحطمة، وهي تصدر من فمها صافرات لنغمة يقشعر معها بدني، لا تلقي بالًا إلى مصاعب السقوط، فقط تبغي الوصول إلي هدفها وهو أنا، أخذت تقترب مني وقالت قبل أن تصل إليّ:

- ما زلت أتمتع بلياقتي وخفتي حتى بعدما مت.

دعابة غير مضحكة من شمطاء مشعوذة، ما زالت تصفر بنغمة مستفزة حتى وصلت إليّ، كان هناك قطعتان خشبيتان من يمين قدمي ويسارها محطمتان لكنهما ثابتان بحائط البئر، وضعت قدمًا على إحداهما والأخرى على غيرها حتى باتت ماثلة أمامي مباشرة فاتحة قدميها وواضعة يديها حولي مستندة على الجدار فصنعت من جسدها قفصًا أنا حبيسه، رأسها مني واتجاه وجهها لأسفل فترى عيني، شعرها يغطي ملامحها وهو بلونيه الأبيض والأسود.

لا أعلم ما الأفزع في الأمر، السقوط أو رؤية وجهها عن كثب حينما ترفع دماغها، ظاهريًا عيني تركز على الجسد وينز العرق مني إثر التوتر، لكني ثابت بمحاذاة الجدار، متحكم في طبلة أنفاسي، بهدوء أشهق وببطء أزفر على نفس الوتيرة، داخليًا منهزم ومدرك مدى انهزامي أمامها، لا أدرك حركتها التالية، ولا أقدر على تخمين تصرفاتها، لا أدري كيف سأضَر، هدوء يخنق يعم الموقف فلا يُصدر صوتٌ إلا الهواء الخارج والداخل مني، ويمكنني سماع دقات قلبي من خلال أذني بوضوح، والانتباه للضوضاء الصادرة من ذرات الغبار المتساقط من الجدار نتيجة فرك يديها مع بعض الحجارة وهي مستندة، يقطع تلك الأصوات صوت يخرج من فمها وأظنها تجمع ما تمتلك من لعاب وأكد ظني صوت الخرخشة العالي من فمها لإحكام تجميع ما تبقى من سائل داخله وتمهيد لأخراجه بالبصق.

البصق في حد ذاته تصرف مقزز، فما بال إذا صدر منها؟! رفعت رأسها بطريقة مفاجئة وسريعة فعاد الشعر إلى الوراء بطبيعة الحركة، فظهر وجهها المشئوم، ومن ثم حركت ذقنها قليلًا، وتمخضت ما جمعت حتى خرج من فمها كم من اللعاب يكفي لأن يملأ كوبًا وسقط في الظلام تحتنا، بعدها قالت:

- اخفض أصوات أنفاسك قليلًا حتى نسمع متى ستصطدم بالقاع، وقم بحساب الوقت حتى تخمن بُعد المسافة، ربما سيكون هذا القاع هو سجنك الأبدي، لكن يمكنك الخروج وأنت تعلم الطريقة.

سحبت يدها من الحائط ووازنت ثقلها حتى تسقط، وفتحت ذراعيها وأضافت:

- عناق، صدقني العناق يحل كل شيء، وأنا لا أكرهك، على الرغم أنك من قتلتني، لكني لا أكرهك، على العكس تمامًا، مطاردتك والسعي خلفك باستماتة لا ينمّان سوى عن التقرب بِحب، ولا أريد استمرار رؤية تلك العيون التي تداري الكثير من القلق والخوف وراء نظراتها القاسية الثابتة، الثقة هي ما أحبذه في هذا الوقت، عليك بالثقة ثم العناق.

لم أحرك جفنًا، لم أضف انتباهًا زائدًا، فقط الصمت، هذا ما أتقنته، وحتى آخر اللحظات أتمنى اختفاءها، وأدرك بالتحديد ما ترغب فيه، النقاش الطويل الذي سينتهي إما بالبقاء في هذا العالم إلى ما لا نهاية، أو بالإفاقة في الواقع دون الوصول لترتيباتي المخطط لها، والفشل في هذا التوقيت لا يمكن تعويضه لأن طقوس هذا اليوم لا يمكن استبدالها بيومٍ آخر، إذًا فالفشل في إحدى الصورتين سيؤدي إلى خراب أجهل نتائجه، لن أردف كلمة، ولا أعلم نهاية هذا الموقف.

ظلت عيناي ثابتة وفمي مُغلقًا، لا أحرك عضوًا، مع العلم بقرب نهاية قدرتي على التحمل في مثل هذا الوضع المؤلم لكل عضلاتي، وبدأت هي بالضجر من عدم الإبداء برد فعل أو الاستجابة لعناقها، وظهر هذا في تعبيرات وجهها وصوتها الذي يمهد ظهوره بأعلى صوت وهي تقول:

- لا تتجاهلني أيها القذر، وامنحني بالًا، لمَ تسأم مني؟

لمَ تهرب وترفض الكلام؟ لا تلُم إلا شخصيتك النرجسية المتعالية، أنت سبب وجودي هنا أيها الغبي، أكنت تظن قتلك لي سيمر كغيره من قتل أحد الأوغاد عديمي الفائدة؟! ألم تفكر أنك حينها تطلق كابوسك الأزلي؟!

صوتها وهي تتحدث بعلو وتعالٍ يسقط من أثر صداه حبات تراب من الجدار، تناقض بين الغضب والتلذذ، وقالت وهي تقهقه بهستيرية:

- أنا حقًا فخورة بكوني الذكرى التي لا تستطيع التحكم بها، أكنت تحسب الموت سينهي حوارنا واختلافاتنا؟! أكنت تحسب امتلاكك زمام الإنهاء واختيار الأقدار لمن تود تغيير أقداره دعمًا لقدر يتماشى مع عالمك؟! غبي!!

شرعت تضحك حتى انتهت من استرسالها المدبر، ثم حل الصمت لحظة ممهدًا بركانًا، إلى أن قالت بالغضب الأعظم:

- لقد غيرت حياتك بأكملها، بتّ متحكمة وأنا لست على قيد الحياة، قل لي أيها الزنيم، كيف ستقتلني الآن، كل هذا التأمل والهروب من عالم إلى آخر والترتيبات بسببي أنا، أظهر الاحترام لخالقة نسختك الجديدة.

بدأ الثبات الذي يتلبسني ظاهريًا ينهار، أخذت حصوني بالانشقاق حينما تصارعت أنفاسي للخروج بشكلٍ وصوت عشوائي يبين للساذج مدى خوفي، لكنها لم تنتبه إلى خوفي، فهي تعلم كونه الآن أثرًا عارضًا، وركزت على إكمال ما تخطط، وقالت بطريقة منافية لغضبها بالضحك الهيستيري

ذاته:

- لطالما وددت تذوق خوف عدوي.

وبدأت في التمايل تجاهي حتى وصل وجهها إلى وجهي وأخرجت لسانها فظهر مدى طوله وانبعجت رائحة جثة فُتحَ تابوتها، من ثم لعقت وجهي بطريقة دائرية بداية من الخد الأيمن وصولًا للخد الآخر، ثم ابتعدت قليلًا وقالت:

- وعدتك بقبلة، ألا تتذكر؟

وقربت شفتيها المقززتين مني حتى وصلت أمام شفتيّ مباشرة، ورفعت ذقنها لتعيد توجيه شفتيها إلى جبيني ثم قبلتني فيه قبلة أشعرتني بعدما ابتعدت بآثار ثقب، وأحسست بيديها تقترب من جيب بنطالي الأيمن لتدخلها وتخرج منها بسحر الدجال صورة لامرأة بلا ملامح، لا وجه ولا جسد، وتضيف قائلة باستفزاز:

- يا لإخلاصك! تحتفظ بصورة لامرأة عمرك التي لم تقابلها في حياتك قط!

ثم أخذت تُخرج من ردائها الممزق نسخة أخرى وقالت:

- أنا أيضًا أحتفظ بواحدة معي دائمًا، فأنا لا أنسى أن تلك السيدة المجهولة هي عقدة ارتباط حبلينا، ولا تنسَ أنت أني من أعلمتك بها.

أضحت تملك نسختين لذات الصورة، لكنها لم تكتفِ وألقت بالنسختين في وجهي وأخرجت بيدها اليمنى من ردائها

نسخة أخرى وبيدها اليسرى أخرجت نسخة رابعة، ورمتهما إلى فوق، وأخذت تعيد الكرة وبكل مرة تخرج نسختين وتلقي بهما في اتجاه مختلف ولا تتوقف عن تلك الحركات، وقالت بصوت خافت وبطريقة هدفها كسر ما تبقى لدي من تماسك وهي تتابع إلقاء الصور:

- لا أدري ما هو المثير أكثر للشفقة، أن تحب امرأة لم ترَ شكلها قبلًا، أم البحث عنها دون معرفة مكانها وهيئتها؟

تكمل نفس الحركات بإخراج نسختين من الصورة وتلقيهما لكن بطريقة أسرع نسبيًا، وأضافت ما كان ينقص صبري لينتهي:

- كم وصلت من العمر؟ أيمكنك القول؟ سيمر فوق عمرك أكثر مما مضى ولن تجدها، لن تحل لعنتك أبد الدهر، ستفتش عنها دون وصول، دون فائدة، ودون التمتع بلذة النجاح، لن تنجح خططك تلك المرة، لأن المتحكمة بها هي عجوز ميتة بالأصل لن تستطيع قتلها مرة أخرى، القتل في حالتك الآن غير مجدٍ، وهذا ما يقتلك.

تزامن في هذا الوقت دخول تيار رياح كثيف وهواء ثائر داخل البئر وكأنها تتحكم بالطقس فأصبح الثبات على قطعة الخشب دون السقوط أمرًا مستحيلًا، وصل عدد الصور الملقاة منها لرقم لا يمكن عده، تتطاير الصور وتتناثر كخفافيش داخل غار صغير، حركات عشوائية تحجب الرؤية فبالكاد أرى وجهها يظهر، ثم يختفي عند حجب إحدى الصور

له، أصبح خوفي يدفعني للظن بقرب الانتهاء، بقرب تحكمها الكامل في هذا العالم، وكأني دخلت عالمها الخاص وليس عالمي.

في الحروب عندما ينهزم معظم الجيش ويتبقى عدد قليل محكوم عليه إما بالموت أو بالأسر، هنا ينتهي دور القادة والزعماء تقريبًا، تذهب قرارات تحديد المصير نحو الجنود كل على شاكلته يقرر، إما الاستسلام أو خلق ثورة هو ثائرها الوحيد، ويحاول جاهدًا قبل موته قتل العدد الأكبر من عدوه، هنا يموت فقط في تابوت كبريائه، وتلك هي الطريقة التي سأختار الموت بها في أية حرب أدخلها.

تخريب سيطرتها على عالمي فكرة هزيلة لضعف موقفي، لذا فكرت في الذهاب إلى بداية ذكراها، إلى حيث كانت وإلى هزيمتها مجددًا قبل قتلها، والسيطرة على مكاني أو خسارة كل شيء والانتهاء وأنا أحاول، ووسط ضحكاتها المستزفة قلت لها بصوت ضخم يكسر كل حواجر الضوضاء من أصوات الهواء وتحركات أوراق الصورة:

- ربما كان قتلك ليس الحل الأمثل في وقتها، كان يجب التصرف بشيء ضروري قبل أخذ تلك الخطوة.

تعجبت من قراري بالتحدث إليها، وزادت أصوات ضحكتها وهي تقول:

- انظر من قرر الخضوع والتحدث الأن؟! حسنًا يا خادمي المدلل، ما هو هذا التصرف؟

رددت دون إتاحة فرصة لفجوة من الوقت:

- عناق.

تحركت قافزًا من حيث قطعتي الخشبية إلى جسدها القريب محركًا إياها من حيث ثبوت وقفتها على الخشبتين ساقطين سويًا نحو ظلام نجهل قاعه، ثم قلت لها وهي ما زالت تضحك الضحكة ذاتها:

- أغمضي عينيكِ أيتها البلهاء، فلنغد من حيث بدأنا.

أغمضت عينيها وقبل أن أغلق خاصتي، كنت مستعدًا للخوض في رحلة ستنهي أحدنا، إلى مشهد رأيناهُ جيدًا، نحن أطرافه، فلن يكون هناك مفاجأة، بل الأمر يكمن بمن سيأثر هذا المشهد فيه حتى يُمنح للآخر زمام القيادة، سنتقاتل مرة أخرى لكن في هذة المرة سنكون بلا أسلحة، متكافئين، ولن يرحم أحدنا الآخر، أغمضت بصري، وانطلق عنان أفكاري.

***

صباح يوم مولدي الخامس والثلاثين، في مثل هذا اليوم ومنذ سن الثمانية عشر أطلقتُ تسعمائةٍ وأربعةً وستين ألفًا وثماني مئة وسبعةً وعشرين رصاصةً ناجحة، صفر إخفاقات، وما دام لا خطأ فلا توقف، وأنا لا أخطئ أبدًا، لم يكن هذا الإنجاز الأكبر، بل إنجازي هو كوني مجهولَ الهوية في العالم أجمع، بعد أول عشرة أعوام من عملي وصلَ بي الحال إلى إنشاء منظمةٍ سريةٍ أديرها بشكل شبه مجهول.

الآن أنا بهواء يطير بي كوني داخل مروحية، ألبس بدلة سوداء داكنة، ووجهي متغير بسبب التلاعب به، فالبشرة سوداء، وأحجام أعضاء الوجه متغيرة وتكوينها في شكله مختلف عن حقيقتها، لون عيني زائف وأرتدي نظارة سوداء، شعري مجعد على غير عادته، وتبدو هيئتي حقيقية لا تلاعب فيها حيث استخدمت في تحويل شكلي الأدوات الأفضل، يرافقني بالمروحية رجلان بخلاف الطيار متوجهان إلى مهمتي الأخيرة حتى أتفرغ إلى هدفي الأهم بالمرحلة الحالية.

تلك المهمة من أهم المهام وأصعبها، ولهذا فقد وضعتها في أول أولويات منظمتي، فإذا نجحت سيكون لمنظمتي قوة سيادية تضاهي القوة العظمى، منظمتي المنشأة منذ أكثر من سبعة أعوام، منظمة تجمع صفوة القتلة المأجورين، تنظمهم، تحميهم، تمنحهم الخطط والطريقة وتتكفل بفشلهم ونفقاتهم في كل الأحوال، فتمنح للقاتل أمانًا حتميًا، وتنظيمًا لمجهوداته ومهاراته وإدارة لشغفه، ونقودًا لن يستطيع الحصول عليها طوال حياته بعملية واحدة.

المنظمة تمتلك تسعة عشر مركز قيادة حول العالم، أربعة منها بالقارة العجوز، وخمسة بالقارة الشمالية، وثلاثة بالجنوبية، أربعة بالقارة الأكبر، وثلاث بالقارة السوداء، مراكز القيادة متواجدة في أماكن غير معلومة في مناطقهم لأي من الحكومات أو المؤسسات الدولية، أديرها أنا بشكل غير مباشر، لقد وقعت مع نفسي أهم الصفقات وأبرزها في

حياتي، فلقد بدلت المكانة الأهم والفخر الأعلى والاحترام الأسمى والوقار الأبرز والنفوذ الواضحة والهيمنة غير المحدودة، بالأمان والاستقرار، تلك الأشياء كانت بلا قيمة أمام بقائي بأمان في أي وقت وبكل مكان، كوني دائمًا مُحركًا للأحداث وصاحب الإدارة الكاملة، لا أعتمد على معرفة المدارين لشخصي وهيئتي واسمي وصفتي، وإذا حدث سينتج بعدها مباشرة وفي كل وقت بشكل متجدد معجبون وحاقدون، محبون وكارهون، مقدرون ومتطفلون، ولا أحتاج إلى كل هؤلاء، بل الأغلب الخطر يكمن بهم، سيتكون من بينهم عدو غير واضح بعدما يقترب من شخصي أحدهم، بعدما يكتسب ثقة وفي معظم الروايات القديمة تكون نهاية الإمبراطور من المقربين المحبين، لذا قررت عدم الحب وإعطاء الثقة لأي شخص، قررت صناعة إمبراطورية بإمبراطور مجهول.

حتى لا يعلم أحد بحقيقة شخصيتي بالمنظمة والاقتراب من واقع امتلاكي لتلك المنظمة وإدارتي لها بالكامل، ولأني أحب العمل الميداني وأعشق القتل بالأصل وأحبذ تنفيذ بعض المهام بنفسي كان من الضروري الظهور داخل المنظمة بشخصية مختلِقة كالعادة، لكنني اخترت الظهور بعشر شخصيات كموظفين قتلة من التصنيف الأهم بالمنظمة، أوطانهم مختلفة وبياناتهم متقنة التزوير.

المنظمة تدار بشكل سري دون علم أحد العاملين أو المديرين أو أي من المناصب -كبرى أو صغرى بها- بحقيقة

المدير، كل ما يعرفونه هو وجود ما يُدعى بالمجلس المتحد الأعلى مكون من ثمانِية أشخاص مختلفي الجنسيات والعرق، وهذا المجلس يختار ويقرر، يعين ويطرد، يحكم ويعفو، وبالفعل هناك مجلس متحد أعلى، لكن لا يوجد ثمانية أشخاص آخرين، بل شخص أحادي بالعرق الأميز، وجنسية ممحوة، أنا..

تتحرك شخصياتي الموظفة المزيفة من وإلى مختلف المقرات القيادية بأوامر نقل من المجلس المتحد الأعلى، حسب المكان الذي أريد في الوقت الذي أحدده، كل مقر قيادة يدار من ثلاثة أشخاص يتغيرون بعد فترات محددة، يحتاج الرؤساء من حين إلى آخر لمقابلة عبر الشبكات مع أحد من المجلس الأعلى مناقشة الترتيبات والقرارات الهامة تعلو سلطتهم بالمنظمة، لذا فأظهر بشخصية وهمية بشكل غير ثابت وأتحدث بشخصية مختلفة القرارات والانفعالات في كل مقابلة.

يمتلك كل مقر قيادة أجهزة وأسلحة هي الأكثر تطورًا، تتلقى طلبات القتل خاصتنا بطريقة يستحال تتبع آثار منفذيها، متوسط عدد الأفراد العاملين بالمقر الواحد ستمائة فرد، الجميع يشترط لتعيينه بأية وظيفة امتلاكه طباع عدائية، وقدرات خاصة عنيفة، يستغرق خطوات تعيين أي فرد ثمانية أشهر من التحقق، لا حدود لسن ولا حاجة لمتطلبات دراسية وهناك دائمًا فرص للترقي والارتقاء.

أهم العاملين بالمنظمة هم القتلة المستأجرون، وينقسمون

إلى خمس رتب، الرتبة الرابعة وهي بداية كل قاتل، وصولًا إلى الأولى وهم الصفوة، والرتبة سالب واحد وهم الأقوى والأمهر والأذكى والأتقن، وشخصياتي العشرة منها خمسة من تصنيف سالب واحد، وثلاثة من الأولى وواحدة من الثانية.

معايير نهاية الخدمة لدى المنظمة مختلفة عن نظيرتها الطبيعية، والعواقب دائمًا ما تكون إما مادية، أو تكلف حياة، أو فقد الهوية بذكرياتها والعيش بسلام دون معرفة حقيقتك الماضية، فرص اكتشاف المنظمة تكاد تصل إلى الرقم صفر، كما أن المنظمة محمية من هيئات ومؤسسات ودول كبرى نقدم لها خدمات دون الإفصاح عن معلومات تخص القوائم الأساسية لنا، وتُعد أكبر داعمين لنا هنا ست دول كبرى ذوات قوة سيادية بالعالم، والدولة الأكبر بالعالم أنا بمقر رئاستها الآن لمناقشة عرض خدماتنا مقابل خدمات من جهتهم، ويرافقني سبعة رجال يعملون بالمنظمة يحملون جميعهم تصنيفًا ثالثًا من حيث المهارة والقدرات، وقد أخطأوا جميعًا بآخر أعمال لهم أخطاء شبه كارثية، وقرر مقر القيادة بتلك الدولة ترئيسي لهم بتلك المهمة.

مركز القيادة التابع للدولة التي أنا بها الآن أمر قيادة شخصيتي المزيفة للمهمة ووضع الخطة والتنفيذ، واختياري هنا ليس نابعًا من المجلس المتحد الأعلى بل من نقاط تمتلكها شخصيتي الحالية لا يملكها أحد بالمقر التابعة له المهمة، وستتحدث شخصيتي مع الدولة بطريقة مفادها امتلاكي للمنظمة، وهذا بالنسبة للمقر والمنظمة تمويه ليس

إلا، لكن في الحقيقة هو الحقيقة.

نهبط في المكان المخصص لهبوط المروحيات بمقر رئاسة الدولة، عبارة عن مبنى ضخم لا لون له، تهبط طائرتان وبهما خمسة رجال يرافقونني إلى وجهتي، زيارتي للمكان غير معروفة للمضيفين، وغير مرغوبة وغير قانونية، أحدّ غيري إذا خطا خطوة داخل محيط البيت سيلاقي هلاكه، لكن هذا ليس نابعًا من تميز شخصيتي، فلا أحد يعلم هويتي وكينونتي، ولا تنبع من الخداع، بل نابعة من الإجبار غير الواضح، كل حراس البيت والعاملين به محاط أهلهم وذويهم بخطر غير مسبوق، ففي لحظة من الممكن لقاء حتفهم، وقد خُبروا وتأكدوا بخطر قتل أقاربهم منذ ست دقائق فقط، ولإنقاذهم عليهم التعامل كأشجار لمدة ثمان وأربعين دقيقة، أي عدم التحرك والتصرف كبشر أو أداء أعمالهم في تلك المدة.

لكن هذا الأمر لم ينفذ من قبل الجميع، ففي تحركي نحو البيت وفي طريق حديقته تحرك بعض الرجال حولنا وأطلق شخص منهم الرصاص مصيبًا أحد الرجال من حولي في كتفه وآخر أصاب من بجانبي في قدمه اليسرى، أخذنا حذرنا واستترنا بعدها في كتل مستديرة منتصبة من أوراق خضراء، هؤلاء الرجال أقوياء وبشدة ولقد خمنت مخاطرتهم بأنفسهم وأهلهم، لذا كنت قد بدلت ستراتهم الوقائية بأخرى تحتوي على رقائق صغيرة شديدة الانفجار مقاربة بحد كبير من القلب، أخرجت من جيبي جهاز تحكم بتلك الرقائق ثم

نظرت إلى رجل من مرافقي يحمل الرقم ثلاثة، وسألته عن أرقام من أطلقوا النيران فقال لي:

- هم على المدخل اليساري للبيت أظنهم، ارقام إثني عشر وأربعة عشر.

ضغط على تلك الأرقام بجهاز التحكم حوزتي، انفجرت سترة أحدهم ولم ينفجر الآخر، فنظرت لمن أخبرني بالأرقام، فاعتذر:

- حسنًا، لقد أخطأت في تخمين الرقم الآخر، جرب ثمانية عشر.

أعطيت أمرًا للرقم ثمانية عشر فانفجرت سترة الآخر ممن أطلقوا الرصاص علينا، وأضفت قائلًا بصوتٍ مرتفع موجهًا حديثي لحراس البيت:

- هل هناك آخر يحاول ألا يكون شجرة، تلك الانفجارات لم تكن فقط تصيب من سقطوا موتى، بل كانت تصيب عائلتهم بانفجارات صغيرة مميتة.

صمت من الحراس أشار إلى التسليم التام، تحركنا مرة أخرى أنا ورهطي من الرجال غير المصابين، أما المصابون فقد عادوا إلى المروحيات.

بعدما وجهت كلماتي إلى حراس البيت بصرامة قرروا تجاهلنا، تحركنا إلى مقصدنا دون تعرض بل كنا نأمر بعض من الحراس بفتح أبواب كانت تعيق وصولنا لوجهتنا، نزلنا

طابقين حتى وصلنا إلى قاعة اجتماعات البيت، ثم ولجنا دون استئذان، مسئول الدولة -وهو القائد الأعلى صاحب أكبر منصب بالدولة- يتزعم الاجتماع وتسعة أشخاص من أصحاب القرارات يجلسون بجانب طاولة الاجتماعات، يتعجب جميع الحاضرين من اقتحامنا للمكتب ومن هيئة الرجال المنضمين إليهم غضبًا، تصدر همهمات من الجميع والبعض يظن كون اقتحام الاجتماع هو اختراق للنظام الأمني، وسأل أحدهم من أنتم، لم ندع مجالًا لمرور أكثر من عشر ثوان حتى التف الرجال رفقتي بدورهم حول طاولة لإنقاذ أية مضايقات من الجالسين وقطعت كلام الجميع وقلت وأنا أجلس على كرسي مهمش بالجانب الأيمن:

- لا تعطوا الأمر بالًا أكثر من اللازم أيها السادة، لسنا هنا للمضايقة، بل نحن رجال مبيعات سنعرض لكم سلعة لا مفر من شرائها، ستشترون ثم نذهب وأنتم مدينون لنا.

استشاط مسئول الدولة غضبًا، وقال بعروق نافرة:

- كيف تجرؤ على الدخول بهذا الشكل والتحدث بتلك الطريقة.

أضاف نائبه مكملًا على تساؤله:

- أحاول الاتصال بالحراس لكن لا أحد يجيب.

الرجال رفقتي يقفون باستعداد وبطريقة غير مخيفة منحت نائب مسئول الدولة الشجاعة ليوجه كلامه لثلاثة حراس خاصة يقفون في آخر الغرف بأمر شديد الصرامة:

- لماذا تقفون كالعاهرات، كيف دخل هؤلاء إلى هنا، تحركوا، افعلوا شيئًا.

رددت بمنطقية موضحًا كل إجابات الأسئلة التي تعيق الكلام الأهم:

- كيف لرجال أسرهم مهددة بالموت أداء مهام وظيفتهم على أكمل وجه، كل حراس البيت مهددون بانفجار منازل أسرهم في حال إذا تدخل أحدهم، وبالفعل لقد مات اثنان منهم وانفجرت منازلهما، كان بإمكاننا الدخول هنا بمنتهى القسوة واختطافكم بشكل عنيف، لكننا نريد بناء ثقة في أولى المقابلات، عليكم الهدوء جميعًا حتى نخرج كما دخلنا ويسلم الجميع.

تحرك مسئول الدولة من على كرسيه واقفًا ليوجه سؤاله:

- أنحن أمام فرقة إرهابية؟

صمت يملأ الغرفة لكن ضوضاء الخوف تظهر في عيون الناظرين، فأجبته:

- سيادتك، نحن لسنا بإرهابين، بل نحن أخطر وأكثر تحضرًا، نحن منظمة.

أكمل صاحب أعلى منصب تساؤلاته:

- منظمة من أي نوع؟ ما طبيعة المهام التي تخططون لتنفيذها هنا؟ أتخططون لاغتيالي؟

نبست شفتاي بابتسامة، ثم قُلت:

- أهناك مناقشة تحدث قبل الاغتيال سيدي؟! كما أن دولة بحجم تلك الدولة لا تقوم على شخص باغتياله، يمكن الوصول لأهداف خاصة. سيادتك نحن لسنا هنا للإيذاء، يجب عليك تصديق هذا الكلام حتى نتحدث بحرية.

تحرك وحاول إطالة المناقشة لإتاحة الفرصة لنفسه حتى يضغط على زر تحت مكتبه للاستغاثة بالقوات الخاصة، وقال وهو يحاول عدم إظهار حركاته:

- ما الذي تريده منظمة مثل منظمتكم مني؟

حطمت آماله مخططًا لنزع عصا قيادة الحوار منه وتلفظت بحدة:

- كفى أسئلة هامشية، ولن يجدي الضغط على الزر أسفل مكتبك، ولو ألف مرة، جهاز استقبال قواتك الخاصة معطل لمدة تواجدنا هنا، نحن لسنا بهواة، أظهر بعض الاحترام.

جلس معلنًا استجابته لكلامي ونطق بهدوء:

- ماذا تريد بالتحديد؟

قمت برفع عصا محرك الكرسي المتحرك الذي أجلس عليه لأعلى، حتى يبلغ طوله أقصاه، واقتربت إلى الطاولة قائلًا:

- في بداية الأمر أحب تقديم كامل الاحترام لسيادتكم، والاعتذار عن الطريقة غير المرحبة التي أوصلتنا لكم، لكن لم يكن هناك خيار أقل فظاظة من هذا، وأوضح مدى الفخر الذي

أشعر به لجلوسي معكم على طاولة واحدة، نحن يا سادة وبمنتهى البساطة منظمة سرية غير معروفة باسم محدد، يمكنكم القول أننا المسئولون عن كافة القضايا المُغلقة في أدراج مكاتب شركاتكم ومنظماتكم الدفاعية، هنا وفي جميع البلدان، دائمًا ما كنا نبحث عن حليف لنا، نتبادل الاستفادات، يمنحنا قوة وسيادة، ونستجيب لمطالبه الخفية القذرة.

تدور عيني -وأنا أتحدث- على جميع الجالسين، أوزع نظراتي حتى أكتسب انتباههم الدائم، وأعطي الاهتمام الأكبر لمسئول الدولة:

- مؤخرًا تورطت جهاتكم بالكثير من المشاكل عندما لفقت الكثير من التهم لأشخاص أردتم الخلاص منهم، أشخاص يقفون أمام مصالح واضحة ويعيقون خطط لا مفر من تنفيذها، كان هذا موضع تساؤلات أمام الكثير من المنظمات الدولية والبلدات التي تشارككم القوة السيادية، فما بالكم من التخلص من تلك التراهات؟! ما عليكم سوى توجيه الرياح لتدفع الشخص المراد من فوق حافة جبل، وما علينا سوى أن نكون رياح تملك قدرة التوجيه، ونملك الجدارة التي تضع الشخص المراد على الحافة فيصبح الأمر ما هو إلا حادث مأساوي.

نظرات إعجاب بدأت في الظهور تغالطها من بعض الأشخاص نظرات استنكار وأخرى تكذيب، وأعين مسئول الدولة ثابتة لا تتغير ولا تعبر، فأكملت استرسال الكلام المخطط:

- أريد توضيح بعض النقاط حتى أنال حماستكم القصوى، نحن نملك من المعدات والتجهيزات والقدرات الاستخبارية، ما يعادل قدرات قوة عظمى بالعالم، لذا، فلقد استعنا بثلاثة ملفات من حوزة جهات المنظمات الدفاعية لديكم، عن تسعة أشخاص يمثلون خطرًا جسيمًا أمام الأمن القومي، لكن للأسف لا تستطيعون توجيه التهم والعقابات لبعضهم، وبعضهم محمي من قبل جنسياتهم، والآخرون معلومات أماكنهم تجهلونها، وبناءً على ذلك أمنحكم هذا.

أخرجت ورقة من جيب بدلتي، وضعتها في منتصف الطاولة، وأردفت:

- تلك الورقة بها أماكن تواجد من تريدون القبض عليهم، والباقي ممن تريدون قتلهم، ستتهيأ ظروف القتل التي تمنحكم عدم التورط في ثلاثة أيام من الآن، وأعتقد ستكون تلك عينة جيدة للمنتج الذي نقدمه، أما عن المقابل فهو بسيط.

وصل حماسهم للفكرة لحد واضح الظهور، خصيصًا بعدما أمسك مسئول الدولة الورقة ونظر إلى محتواها، فانتهزت الفرصة لأكمل:

- يؤسفني القول، بأننا الآن قد استولينا على ثلاثة مقرات سرية لقيادة أسلحة نووية تمتلكونها بثلاث ولايات مختلفة، أعلم بأن الأمر سيضايقكم، لكن نحن نأخذ دفعات مقدمة.

تصاعدت همهمات من الحاضرين، وتحرك مسئول الدولة

ممهدًا للتحدث ويقول:

- أيمكنك تحديد أي المقرات تقصد؟

أجبت سؤاله بعجلة لقرب انتهاء الوقت المحدد للمهمة:

- اثنان من المقرات المتوسطة، وواحدة من الكبرى، ستعلمهم بالتحديد بعدما تتفحص وتتواصل مع جميع المقرات عند مغادرتي.

من ضمن الخطة الموضوعة لتلك المهمة هي إدارة الحوار بشكل كامل، وأكاد أجزم بالنجاح في هذا بعدما أرى الصمت في أعين الحضور، حين لا تُطرح أسئلة، وحين تُسكت إجابتي أفواه الحاضرين، استطردت حديثي لمشارف إنهاء الحوار:

- لا تقلق سيدي، لن نستولي على مقرات أخرى، ولن نطلب أكثر في المستقبل، كل ما نريده لفترة طويلة هو السماح لنا بامتلاك تلك المقرات وتلبية مطالبكم حينما نطلب منكم بعض الدعم ببعض المواقف الصعبة، ولا يحتاج الأمر لكثير من التفكير، فالمنظمة موظف ماهر أنتم بحاجة ماسة لقدراته.

يبدي الجميع صمته، لعدم الاستعجال في اتخاذ أية قرارات، ولكن في الحقيقة الوحيد الذي يملك القرار هو مسئول الدولة، تتحرك تعبيرات وجهه الثابتة إلى التمعن الواضح وقال:

- هل نملك رفاهية التفكير واتخاذ القرار؟

شرعت في التحرك بالكرسي وتوجهت نحوه به حتى وصلت إليه وأتكلم أثناء تحركي:

- إلى حدٍ ما نعم تملكون، أريد الإضافة أيها السادة، كان من دواعي سروري لفت انتباه قادة عظماء مثلكم.

أصل بالكرسي إلى مسئول الدولة وأخرج من جيبي جهاز التحكم بالمتفجرات داخل ستر الحراس، وأظهر أحد الرجال التابعين لي أوراق إتمام الاتفاق بيننا ووضعها على الطاولة أمام مسئول الدولة بعدما حاوطته بجسدي كالتفاف أم القطط حول صغارها وتكلمت معه بشكلٍ لا يمكن لأحد من الحاضرين سماعه:

- هناك شيء أخير أود إضافته، حتى ينتهي هذا الاتفاق بالتمام، علينا التصرف بالقليل من الأمور الشنيعة.

تطلعت إلى الرجل العالم بأرقام الحراس داخل الغرفة، وأشرت إليه فنطق:

- ستة وثلاثون، سبعة وثلاثون، واحد وأربعون.

ضغطت على الأرقام التي قالها فانفجرت سترات الحراس الثلاثة داخل الغرفة وسقطوا ميتين أرضًا كأشجار قُطعت فوق جذورها، وشققت أصوات الذعر التي أصدرها الجالسون بكلمات أثناء سيطرة رجال المنظمة عليهم:

- كما هو واضح، هذا الجهاز يتحكم بمصير الحراس والعاملين بالبيت، أما عن ضيوفك سيتكفل رفقائي بالأمر.

أخرج رجال المنظمة أسلحة مكتومة الصوت وقتلوا كل الحاضرين وسط أعين مسئول الدولة التي جحظت بحزن، صدمة، وقلة حيلة، ثم تفوهت قبل انهياره الكامل:

- لا يمكن لأحد معرفة شيء عن هذا الاتفاق، لا يمكن الثقة بهذا العدد من الناس مختلفي الأهداف، ستدرك حكمة هذا التصرف مستقبلًا، وحتى نكون متساوين.

ضغطت على أرقام من واحد إلى سبعة، فانفجرت رقائق كنظيرتها برجال المنظمة داخل الغرفة، كان يجب موتهم كقربان لتلك المهمة، ومن ثم تلفظت:

- لن أثق أنا الآخر في أي أحدٍ سواك، ولا تعتل همًا، تحدث لمدير القوات الخاصة خاصتك، لقد توصلنا لاتفاق معه البارحة، يمكنه ترتيب كل تلك الفوضى، كما سيكون على عاتقه هو رواية قصة مكتملة الأركان حول هؤلاء الضحايا العظماء الذين فُقدوا اليوم، وعن الإرهابيين الذين قتلتموهم بكل شجاعة.

قبل التحرك والخروج بسلام، وجهت لمسئول الدولة آخر التعليمات:

- بعدما توقع على تلك الأوراق تأكد من وضعها في الدرج الثالث بمكتبتك الخاصة، سررت بلقائك سيدي.

وقفت، ثم أخذت جهاز التحكم خاصتي متوجهًا إلى الباب حيث دخلت، وأدرت ظهري لمسئول الدولة وقبل النفاذ من الباب قطع طريقي سؤال أخير منه بصوت رجل يخرج آخر

أنفاسه قبل خروج روحه:

- هل بإمكاني معرفة من أنت بحق السماء؟

وقفت احترامًا لمخاطبته، لأرد وأنا موجهًا ظهري له دون الالتفاف:

- سأخبرك كذبة قد تحمل القليل من الحقيقة المدبرة، أنا من أملك تلك المنظمة.

ثم خرجت من نفس مخرجي، ركبت مروحية أخرى غير التي حضرت بها، حلقت من تلك الولاية إلى ولاية مختلفة مجاورة لها، منتشيًا بنجاحي بآخر مهمة، تلك المهمة ليست الأولى من نوعها للمنظمة، فقد توصلنا إلى نفس الاتفاق مع سبع دول كبرى ذوات قوى سيادية بالعالم، وكان من اتفق معهم آخرين غيري، لكن تلك الدولة بالتحديد كنت أحب أنا الاتفاق معها لشيء في نفسي، وقد قررت إذا نجحت في هذا، سأتجنب العمل الميداني وأتفرغ إلى الإدارة الخفية والهدف الأكبر.

تحركنا بالطائرة حتى وصلنا إلى حافة محيط بمنطقة طائرات تستخدمها شركة تتاجر في رياضة هبوط بالمظلات، تهبط طائرتي على تلك الأرض، ونزلت أنا منها لأبدل ملابسي إلى ملابس رياضة الهبوط، ارتديت بذلة باللون الأزرق، وأخذت المعدات اللازمة واتجهت لأركب مع ثلاثة ممارسين يلبسون كلهم بذل بنفس اللون، نحلق وبعد نصف ساعة نقفز جميعًا في نفس الاتجاه، ثم نتحرك باتجاهات مختلفة

مخترقين المجالات الهوائية ومتلاعبين معها إلى أن اقتربنا من السطح، يفتح كل منا مظلته ونهبط بسلام في أماكن مختلف بمنطقة شبه مهجورة.

وبعدما وصلنا إلى الأرض، تحركنا جميعًا بشكلٍ سريع وغيرنا ملابسنا إلى أخرى عادية، ركبنا ثلاث سيارات مماثلة الشكل زجاجها أسود، وتحركنا في ذات الوقت لكن في مسارات متنافرة.

سيارتي الوحيدة التي بها شخص آخر وهو سائق، أوصلني إلى بيت محدد في وسط الولاية، نزلت من السيارة وصعدت للمنزل، وفي عشرين دقيقة كنت قد غيرت ملامحي إلى شخصٍ قوقازي وملابس مختلفة، ثم نزلت سريعًا ومعي كافة المعدات المستخدمة، أوقفت سيارة أجرة، أوصلتني إلى قطار أنفاق، الذي أوصلني إلى قطار متنقل بين الولايات، الذي أوصلني إلى ولاية أخرى، ثم ركبت سيارة أجرة أوصلتني إلي منزل آخر في أحد أروقة الولاية الهادئة، الساعة التاسعة مساء اليوم.

بيت هادئ ليس بالحجم الكبير إضاءته ليست مزعجة وأثاثه بسيط ومريح، بعدما انتهيت من حمامي الساخن انتزعت كل علامات المكياج وآثارها وعدت إلي هيئتي الأصلية، ارتديت قميصًا بنيًا خفيفًا وبنطالًا أبيض، قعدت مسترخيًا على أريكة، أفكر فيما هو قادم بعدما أمسى كل شيء سهلًا، وأصبح كل ما أستطيع فعله هو المستحيلات، بعد إشباع جشعي، أفكر بما جاءني من الملل، ففي كل عملية

يزداد شغف القتل بلا مقابل ولملاذي أنا فقط، حين أريد القتل أقتل، لكن لا قتلَ لمن يريد غيري قتلَه، هذا هو سبب تقاعدي الذي سيتتبع إنهاء شخصياتي المزيفة داخل المنظمة من ثم تكوين أسرة بزوجة جميلة هادئة وأبناء كثر، لكنني لم أقرر بعد من سأتزوج، أي بلد سأستقر، والشخصية الثابتة مدى حياتي، هل هي شخصيتي الأصلية أم أخرى؟

الاستقرار هدف لا مفر من تحقيقه، لكنه أصعب من قتلي لحاكم بلد، خصيصًا بعدما مررت بكل تفاصيل حياتي، أنا لا أمكث في مكان واحد لفترة طويلة، كنت دائمًا كبكتيريا ضارة تجد في كل جسم جديد مكانًا مناسبًا، لا يغريني منزلًا جوار بحر أو يطل على أي مشهد طبيعي، في مدينة جميلة أو بسيطة، كبير أو صغير، لا أهتم سوى باستطاعتي لمنع أي خطر يهدد هذا البيت، أي يكون آمنًا وأنا سبب أمانه.

واختيار المرأة لم يشغل بالي كثيرًا، هيئتي وشخصيتي لم تدع للنساء فرصة بهروب عينيها وخاطرها مني، أختار دائمًا من أعاشر وأعاشر من أريد، لكن بدون مشاعر، لم يسبق لي الإحساس بالميل في البقاء جوار واحدة منهن في الصباح، وعلى كل حال، فأمامي أكثر من سبع اختيارات لنساء أستطيع تقبلهن في حياتي، لطيفات وجذابات، يرغبن دائمًا في إرضائي، يبدَون هادئات وهن الأشد جمالًا ممن قابلت.

متيقن شديد اليقين كون قوانين الأسرة لا تناسب حياتي ومجالي إذا انقلبت الأمور، وإذا رغبت في العودة من التقاعد، لكن أمرين هما ما فرضا عليّ ضرورة اتباع هدف مقيد لي

أكثر من حقيقة إفادته؛ الأول: بعدما ماتت عائلتي لم أنتمِ إلى بيت، قلة الشعور بالانتماء إلى أشخاص -ليس إلى فئة- تكون مزعجة، لم يذهب عن بالي مشهد كنت أراه يوميًا وأنا صغير، كانت أمي تستيقظ قبل أبي في الصباح وتُعد له ملابسه والفطور، ثم بدوره كان يقبلها قبل الذهاب للعمل، لم تكف أمي عن دورها، ولم يسأم أبي من تقبيلها، هدوء مشاعرهما استطاع خلق جزء بداخلي يحب فكرة العائلة، صنعت بداخلي شخصًا لحوحًا هدفه الأسمى في الحياة هو الشعور بانتمائه لواحدة أو تكوين واحدة متماثلة.

أما الأمر الثاني الملح بشكل أكبر: قبلًا أنا بحاجة لمتابعة الأحداث الجارية ورد فعل الأفراد العاديين بالبلدة بعد الحادثة الأخيرة، وبدأت في الشعور باحتياجي لرؤية بعض الأشخاص، فارتديت حذائي وأخذت بعض النقود الورقية وحافظةً صغيرة بها بعض المعدات في حالة الضرورة لأتوجه لأي من الحانات القريبة، وصلت إلي الشارع الواقع به المنزل، شخصيات تافهة تتحرك كلٌ في اتجاهه، لا يوجد آثار ذعر في أعينهم، لجهلهم أن الذي يسير بينهم بإمكانه بقرار واحد إرسالهم لحياة أخرى قد لا تنتهي كسابقتها بالموت، ظلت أقدامي تسير في الطرقات والأزقة دون وجهة محددة حتى انتهت أمام حانة بدت هادئة.

ولجت الحانة، بها مبرد يلطف الهواء، والكثير من الإضاءة والألوان، ومدخل أمامي واحد وواجهتها من الزجاج الشفاف المطل على الشارع، معظم المقاعد فارغة، لكن هناك طاولة

بها ستة أشخاص يجلسون حولها وامرأة برداء طويل ممزق غريب يظهر معظم جسدها النحيل، وجهها وذراعاها ممتلئان بالحلي التي يصعب حصرها، تبدو في عمر اليأس مقتربة من العجز، تتوسط المجموعة كقائدة، ترتفع أصواتهم من حين لآخر بصرخات التفاجؤ مما يدل على لعبهم بأحد الألعاب الغريبة، جلست على مقعد لا يحتوي على مسند ظهر أمامي الطاولة الأساسية الكبرى للمشروبات، سألت الساقي عن مشروبي المفضل وطلبت منه تغيير القناة التليفزيونية إلى محطة أخبار، أقعد وظهري للمجموعة لكن عيني تدركهم من زجاج يعلو رأسي يعكس صورتهم.

الأمر الثاني الملح لعقلي للتقاعد والاستقرار، هو هذا الحلم الذي بات مزعجًا، أحلم من حين لآخر بامرأة تشاركني الفراش مديرة الظهر فلا أرى وجهها، تفتح عيني وهي تنهض لتسحب لي ستارة النافذة ويلج ضوء قوي على عيني يحجبني الرؤية، لتأخذ بيدي لنخرج من الغرفة وننزل إلى المطبخ وما زلت لا أرى وجهها، تحضر لي الطعام أمام الموقد وتتحرك وتتصاعد نار عملاقة يخرجها الموقد تسرق انتباهي فتختفي السيدة، أظل أبحث عنها بالبيت ثم أخرج لأجدها تركض فأعدو خلفها، لكنها تبعد وتركب مركبة وتنطلق، أبقى جاهلًا لوجهها لكن شعوري أنها امرأتي لا يفارقني، يتكرر هذا الحلم بتفاصيل مختلفة وأماكن مختلفة، يدفعني دائمًا بالشعور بضرورة الاحتفاظ بإحدى السيدات قبل ضياع وقت استطاعة الاحتفاظ.

يأتيني المشروب، أمسك بالكوب وأرتشف دفقة، حاولت التركيز على حسن اختيار إحدى النساء، أكاد أجزم أنهن لا يختلفن عن بعضهن رغم اختلافهن الشديد، لكنني أستطيع القول بميلي بالتي يقترب عمرها عمري الحقيقي، الحديث معها مثير أحيانًا، يلفت نظري المرأة ذات الرداء الغريب تقترب مني بهدوء حتى بدأت الشعور بحرارة جسدها، تهمس في أذني لتقول:

- ألا تريد مساعدتي في توقع مستقبلك أيها الوسيم.

تيقنت من حقيقة عملها بالحانة وشغلها لوظيفة الدجل التافهة، قمت برفع كوبي لألتقط رشفة أخرى وفي طريقه إلى فمي تلفظت بقلة اهتمام:

- ما رأيك بتخميني أنا لمستقبلك؟

وبعد ما انتهى فمي من رشفته أضفت:

- لا فرصة لكِ يا عجوز، أشكرك.

ظهر غليون التدخين الطويل الممسكة به في يدها عندما بدأت في رفعه لفمها، وقالت وهو في الطريق لها:

- ربما يمكنني مساعدتك في اختيار فرستك حتى تعلم من هي الأنثى الأفضل.

لم تمر تلك الجملة كسابقتها، لقد تحدثت بها بلغتي الأم، الأمر الذي حول عدم اهتمامي بوجودها، إلى الاهتمام الأعظم، فلا يوجد شخص بالعالم أجمع يدري ما هي لغتي

الأم، وتحدثها عن ترددي باختيار، زاد من اهتمامي إلى حد مفرط حتى هوس عقلي في لحظتها، مما دفعني لترك كوبي ودوران رقبتي حتى أنظر لها مباشرة بصمت، وأضافت هي في ذات الوقت وهي مبتسمة ابتسامة تدل على يقينها بانتباهي بعد كلامها وقالت:

- اتبعني.

أنا أتحدث سبع وستين لغة، وأتقن جميع لكنات تلك اللغات، كيف لها تخمين لغتي الأصلية، وقد نطقت الكلمة الأخيرة بذات لغتي وبنفس اللكنة خاصتي، قبضت على كوب مشروبي الكحلي، ثم تمايست به بخفة تدل على التأكد من إلحاقي بها، تتوجه نحو باب خشبي في آخر الحانة، تدخل ويظهر عند دخولها بعض الأضواء المبهرجة الدالة على كونها غرفتها الخاصة.

بعض الاضطرابات ترافقني وأنا أتحرك إلى غرفتها، والقليل من الهوس بالانكشاف، لكن ثقتي في ترتيباتي المتقنة وجهلي لما تبقى من أحداث جعلني أتبعها لأفهم، لأواجه، دخلت إلى غرفتها التي بدت طبيعية لشخص مثلها، غرفة مساحتها صغيرة، تكاد تشعرك بذات شعور تواجدك في تابوت، معلق داخلها الكثير من الأسنان لمختلف الكائنات، وبها الكثير من الدخان ذي رائحة طيبة وعلى الأرضية رمال سوداء ويطغى اللون الأحمر المكان، تقعد أمام الباب مباشرة على كرسي أمامه طاولة صغيرة وفي واجهتها كرسي فارغ، أجلس عليه وأدرك حيوانات صغيرة متحجرة، لفت نظري

لأكثر من ثانيتين سنجاب متحجر بالكامل على يسار رأسها، يقاطع تفحص نظري للمكان لسانها يقول:

- أيذكرك هذا الحيوان بشيء؟

يزداد الأمر غرابة حينما تنطق، لكن غايتي للفهم تعيق إظهار تفاجؤي، ودائمًا عندما يلفت أحد انتباهك أو يحمس عقلك للسعي بالفهم، أو حتى يثير إعجابك، لا تمنحه حقيقة شعورك، وإذا كان كلامك سيدل على القليل، فاستمع حتى التأكد مما يمكن قوله.

جلست وأنا ثابت النظر والحركة، حتى مع قلقي الباطن، فحماستي للقادم أكبر وإن كان خطرًا، تطفئ غليون التدخين خاصتها وتتناول علكة وتوجه لي كلامًا:

- الموت هو الأمر الأغرب في هذا العالم، لا قوانين تحكمه، ولا يوجد معادلات تستطيع تنبؤه، لك التخيل، لقد أضعت أكثر من نصف عمري لمعرفة كيف سأموت، وكنت دائمًا أنكر الطريقة، حتى أبصرتك.

كنت أود السؤال عنها منذ رؤيتي لها، لكن ضرورة عدم إظهار أي اهتمام وحماسة كانت أهم، ولا مفر من هذا السؤال الذي ظهر بعيني وبحركة شفتي المنفتحة حديثًا حتى فهمت سؤالًا لم ينطق لساني به فردت بابتسامة شمطاء:

- أنا السيدة التي تعلم حقيقتك كاملة كونك أفضل قاتل بالتاريخ، والسيدة الأكثر استسلامًا وهدوءًا من جميع قتلى حياتك، أشبهك في نقاط تجهل مداها، كنت أبحث عنك

طوال عمري حتى استسلمت لمصير موتي حينما وجدتني أنت، وقطعت عهدًا بمداعبتك حتى علمك بضرورة قتلي، ولو هربت ولم ألفت نظرك فكان موتي سيصبح تافهًا ساذجًا يذهب هباءً مزعجًا لمن هم مثلي، الذين لا تنتهي حياتهم بالموت.

لم أومن في حياتي بالشعوذة أو السحر وغيره، لكنها بدأت في تحريك وجداني لوجود مثل تلك الأشياء، كيف عرفت أني جلاد، كيف علمت باقترابها من الموت أكثر لها من الحياة بعدما أثارت قلقي، أنا الذي دائمًا لا يصدق سوى المنطق والترتيبات الواقعية، فيبدو تواجدي الآن معها يخالف كل الأحكام التي أومن بها، فلا مجال لكثير من التساؤلات التي تدور في بالي، أستطيع الإجابة على معظمها، فإن كان أحد العاملين بالمنظمة تتبعني ودفع تلك المرأة أمامي، فيستحيل تخمين لغتي الأم، وإذا كان أحد يريد لحق الأذى بي فتلك ليست الطريقة المناسبة، لذا فلا يوجد أمامي سوى الوصول لنهاية طريقها.

ثباتي لم يتغير أمامها رغم كلامها المفهوم مغزاه، وعيناي لا تفارقان عينيها، سأوجه لها كلامًا سيبدو ساذجًا لكنه سيرافقنا إلى المنطقة الأهم بحوارنا:

- خبرتني بقدرتك في التنبؤ، وأنا أنتظر.

هي الأخرى تتبع نظرات عيني، ولا تدع وقتًا للصمت:

- قبل التنبؤ بمستقبلك، عليّ قبلًا تفسير الحلم الذي يراودك.

تضاعف القلق والغرابة، كنت أفكر في الحلم عند دخولي للحانة، أستطاعت قراءة ما يدور بذهني؟ تكمل كلامها دون انتظار ظهور التفاجؤ الخفي:

- المرأة التي تقتحم أحلامك ليست سيدة ستختارها، بل هي أنثى ستظل تبحث عنها دون توقف.

ارتشفت من مشروبي الذي أخذته، واستطردت:

- أعلم تمام العلم بجهلك لكل ما يدور الآن، وهذا ما يقلقك، لكن صدقني لا يوجد شخص بالعالم بإمكانه معرفة كل شيء وتوقع كل شيء، وكل ما لا تفهمه الآن لن تفهمه حتى ولو علمت تفاصيله، وأنا لن أقول سوى المقدر لي قوله، ومن رتب مقابلتنا، هو القدر الذي طالما رفضت صحة وجوده، قُدر لي مقابلتك لإخطارك بحقيقة لعنتك المجهولة، وبدورك ستحتم عليك شخصيتك قتلي في آخر المطاف، لذا روّض صراخ عقلك، هناك الكثير من الأمور لن يفهمها في الوقت الراهن.

كلام يبدو ظاهره منطقيًا إذا نظرنا إلى من تتحدث، لكن يكمن عدم منطقيته فيمن يوجه له هذا الكلام، لذا خضعت لاستسلام عقلي بالكامل، وأجبرت ذهني للصمت.

فضولي للتأكد مما تعلمه عني هذه المرأة لا يتوقف، وعلى الرغم من هذا لن أسألها عما تكشف وما تجهل، لأن ما تنبأت به من البداية يعطيها الاستطاعة لمعرفة التفاصيل الخفية، الرواية بأكملها والحقيقة واضحة، يلتوي جسدها ويتحرك تحركات غريبة وخصوصًا رأسها، تلتف بدوائر بشكل بطيء،

من ثم تنظر إليّ ممهدة لكلام جديد سيظهر وتضيف:

- في يوم بدايتك، وبداية بداياتك، ويوم رحيل كل من يتعرف عليك، قُدر لك مقابلتي، لإعلنك لعنتك، فلن تستطيع التوقف متى أردت، ما تحب ممارسته لن تتوقف عن مزاولته رغم إقناع نفسك بقدرتك على التوقف، فالقتل ليس بأداة أفرطت استخدامها بل هو سجن أنت حبيسه الوحيد الآن، لن تجد الهدوء الذي تتوقع إذا اخترت ما تخطط لتختار، ولن تتوقف حينها عن البحث عن الهدوء، حتى تبدأ اللعنة بتصديقك فقط حينما ترغب في التصديق ولن يفيد تصنعك، ولو اخترت الإنكار فبؤس حياتك لن يكون أمامه خيار سوى تقبل النتائج، ومتى تعود من اتجاهك الخاطئ سيصبح مصيرك بطريق السعادة أقل مسافة من مصيرك وأنت بطريق الانتهاء، انتهاء لا دخل لك به، ولا خيار ستملك، لكن لك كامل الحق في توخي الحظر، إما إيجاد حلمك بيومك، أو يعثر عليك الموت قبلًا بذات اليوم.

أنهت حديثها بابتسامة تلحم أذنيها ببعضهما في إتقان شديد بإغلاق الفم، ظهرت أصوات غير مفهومة مكتومة وبتعابيرها السعيدة يخيل لي أنها ضحكات نشوة تشاركها مع أشخاص بداخلها تحاول بكل طاقتها منع صرخاتها للظهور.

أهذا كل شيء؟ بإمكانها التسليم كوني سأومن بتلك الترهات، لقد بدأ الأمر في بدايته مثيرًا للدهشة، وانتهى بحديث مثير للسخرية، حتى ولو كانت تعلم أشياء يستحيل لأحد علمها إلا إذا كان يرافقني من البداية، لكنني لست من

الذين يتبعون كلام المنجمين، لكن ما يثير انتباهي الآن هو حقيقتها، بدأت في الشك حول إذا ما كنت أعلم تلك السيدة التي تداعب سن العجز، يبدو أنني أمام الأفضل في مجالها، أردت الانتهاء من تلك المقابلة لاقتراب موعد رحيلي عن ذلك البلد، فاختصرت كل كلام الإنكار وبدت لي فكرة قتلها هي الأمثل، فقلت:

- لكِ احترامي بأكمله، أو ربما أكثر من هذا.

قبل إكمال كلامي الممهد قاطعتني وكأنها تعلم ما سأتلفظ به:

- بحق السماء، اختر أية طريقة للقتل دون كلام، أنا لا أهتم للتمهيد.

جثمت مُدققًا بها، ثم أخرجت من محفظتي قنينة بها ورقة نبتة، ووضعتها في كوب المشروب أمامها، دفست إصبعها وقلبت المشروب في حركة دلت على سخريتها لي، وابتلعت المشروب بأكمله بما فيه من قطع ثلج، ثم قالت وهي في نشوة كبيرة:

- لطالما أردت تذوق الموت.

ثم أردفت متسائلة وهي في ذات الحالة:

- كم من الوقت أملك؟

قلت لها دون تحريك نأمة:

- إذا كنتِ محظوظة، ثلاثين دقيقة.

شرعت في إشعال غليونها مجددًا، وقالت وهي تخرج الدخان الأول:

- إلى لقاء.

مبتسمة، تستمتع بما يتبقى لها من وقت دون النظر إلى مصيرها القاسي، لا تبدو أبدًا كشخصٍ يقترب من حافة السقوط ببركان ثائر، ليست خائفة، بل منتشية وكأن حياتها بأكملها كانت قائمة فقط لهذا اللقاء.

وثبت قائمًا، خطوت بقدميّ مديرًا ظهري دون التفوه بكلمة، خرجت من الباب، وظللت أمشي دون خوف من تتبع أحد قتلاي حتي إني لم أغلق الباب بعد نفاذي منه، الكثير ما ببالي الآن، لا شك بخلود هذا الموقف بذاكرتي إلى الأبد، كاد يصل هوسي بهذه المقابلة إلى اليقين من الكلام الذي سمعت، لكني لن أتركه يسيطِر على قرارتي، ولو كان حقيقة فأنا أختار الآن عدم الانتباه لهذا الحدث، والمضي قدمًا لما أخطط دون احتساب هذا عائق.

أخرج من الحانة و...

***

تمسك بي يد شيطانية تجندلني أرضًا على ظهري، لأنهض جالسًا على الأرض حتى أتزن وأرى جسدي يخرج من باب الحانة بهيئتي التأملية، أتطلع إلى نفسي بالمشهد الذي تذكرت وجسدي الآخر ماضيًا لا يلتفت خلفه.

ضُربت بزجاجة خلف رأسي تسببت في اهتزاز الرؤية وتقسيمها لمجموعة من الصور تحتاج إلى الاندماج، رجعت للسقوط وما إن لاحظت ضاربي -هي العجوز المشعوذة- بدأت ترسم دائرة حول جسدي الساقط على الأرض، وصعدت تعلو كرسيًا ووقفت تتفقدني، ثم قفزت متخذًا جسدها هيئة ضفدع أخضر يتنقل، تسقط على جسدي من البطن، فتتحطم الأرض أسفلي قطعة تلو الأخرى، تهرب هي وأسقط أنا وجسدي ذو وضعية النوم إلى ظلام يشبه إلى حد التطابق ظلام البئر، وتظهر هي من مكان سقوطي وضوء الحانة فوقها، لتقول بشماتة يصاحبها كل التعبيرات اللازمة:

- قتلتني مرة، وسأقتلك أنا في باقي المرات، أتمنى لك هلاكًا دائمًا.

تغير حجم النور ومكان سقوطي إلى التلاشي، سقطت بلا توقف، وحاولت إغلاق عيني حتى أعود لأي من الذكريات، لأنجو، لكن دون جدوى، إلى أن اصطدمت بإحدى القطع الخشبية، غيرت من شكل سقوطي وأعدت الكرة بإغماض عيني مرات متتالية متجاهلًا الوقوع والألم الناتج عن الاصطدام، الخوف، والفشل، وبلحظة وأنا مغمض، فقدت الشعور بجسدي، وبالسقوط، ليمهد هذا رحلتي القادمة.

***

يد تقبض على ذراعي وتُحركه، تجبر وعيي على الانتباه، فأخرج غير مدرك الواقع من حلم مستقر إلى حياة مزعجة،

تستمر اليد في تحريكي حتى انفرج جفناي لأجد زوجتي بوجهها الجميل المعكر بسبب عبوسه موجهة كلامها إليّ بجِده:

- أستيقظ، أريد التحدث معك بشيءٍ هام، كنت جالسة أفكر فيما قلت عن حياتك قبل مقابلتي، لكنني لم أقتنع بروايتك، خصيصًا وأنت لم تعلمني تفاصيلها.

تمددت على السرير متفقدًا الساعة وأنا أقول:

- الساعة الرابعة صباحًا، لمَ قد يزعج أحد الآخر في هذا التوقيت؟!

أكملت استرسالها دون توقف:

- أنا لا أهتم بالوقت، كيف لشخص معلك لا يملك أية صداقات؟! أعتقد حياتك بها الكثير من الأسرار، وأحتاج لمعرفتها الآن.

فار غضبي وغلا داخليًا متظاهرًا بالهدوء ناطقًا:

- ألا تعتقدين أن هذا الحديث تكرر مرات عدة، وبكل مرة لم يتغير ردي كوننا لم نكمل خمسة أشهر متزوجين.

ردت بهدوء مصطنع:

- لا أعتقد هذا، لقد تحملت زواجنا بطريقة لا تناسبني، وطقوس اختيارك للمكان الذي سنعيش به، أظن من حقي معرفة كل ما أريده ليمنطق عقلي كل مستحدث أمرّ به.

في تلك اللحظة، صدعت رأسي بسبب نقاشها المتكرر، لا أظن تقبلي لهذا الفضول سيستمر، ففتحت درج الكمود بجواري وسحبت مسدسًا دون ملاحظتها، ثبت بفوهته كاتم صوت، وجهته إليها لتستقر الرصاصة برأسها، ثم عدت إلى النوم.

***

يعود جسدي إلى سقوطه بالبئر ولا أصل إلى القاع، يرتطم كتفي الأيسر بالجدار، حاولت التركيز بإغماض عيني، فأغمضتها.

***

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أجلس على حافة سرير غرفة نومي، وتقف أمامي زوجتي ذات الرائحة الطيبة والعين الزرقاء، تقول دون توقف أو منح فرصة للبوح عن مدى احتياجي للنوم الآن:

- هذا فقط ليس كل شيء، بعدما كنت ألبس قفازاتي البيضاء وقت حفلة تخرجي استعدادًا لأول حفل رقص أحب المشاركة بها حقًا، أرسلت أمي إليّ برقية مع زهور إلى بيتي المؤقت، تبارك لي التخرج وتبلغني بانفصالها عن والدي، لن أستطيع التماسك بأية حال وقلت بصراحة مقهورة: أيتها العاهرة، لمَ تريدين تخريب كل لحظاتي السعيدة أنتِ وأبي الأخرق؟! لمَ أنا دائمًا عليّ عبء تقبل ما يحدث وأنتما تفعلا ما يحلو لكما؟!

تكمل بصوتٍ ثابت وطريقة مقنعة ولا تعطي الفرصة لدخول كلام آخر للمناقشة أو حديثٍ يوقفها، كلامًا وثرثرة لا أستطيع تحمل المزيد منه، لم تكن كذلك حينما تعرفت عليها، وكأن هذا العيب كان محاطًا بكل ما يمنع ظهوره، والموانع تبخرت حين زواجنا، أقول بصوت عالٍ حتى تستطيع سماعي:

- ألا تعتقدين أن هذا يكفي للآن، يمكننا متابعة تلك الأحداث غدًا، أحتاج إلى النوم.

إصرارها يتضح بتعابير جسدها وسرعة ردها وهي تقول:

- هناك الكثير عن حياتي السابقة الذي لم أقله لك يا عزيزي، وانتظرت طوال الأربعة أشهر السابقة حتى أشعر بإمكانية البوح به لك، أعتقد بإمكانك التحمل بعض الشيء. من ثم أبي كان يريد هو الآخر إخباري بهذا الانفصال لكن لم تصدق ماذا فعل! توجه إلى باب مكان سكني وصعد إلى باب غرفتي وأخضر لي سيارة رخيصة كهدية تخرج، هذا البخيل الغني، وقال لي: لا أريد تعكير مزاجك الآن لكن الانفصال كان لا بد منه.

تنغلق صمامات عقلي وتكف عن الانتباه لكن أذني تحتاج إلى منقذ، مما دفعني إلى أخراج مسدس من خزانتي الخاصة دون ملاحظتها، وبحثت عن كاتمه، لكن تذكرت بوجوده بدرج الكمود، فقلت لها:

- عزيزتي هل بامكانك إحضار القطعة المعدنية من الدرج

خلفك.

تستمر في الحديث وهي تجلبها:

- لماذا قد يتصرف أبوان بالغان هكذا، وهما يحملان على عاتقهما الكثير من المسئولية؟ ما هذا يا رجلي؟

تعطيني كاتم الصوت الذي تجهله، وأضيفه للسلاح، أطلق طلقة تستقر في رأسها، ثم أقول:

- هذا يدعى كاتم صوت.

من ثم اتجهت إلى السرير ليتمدد جسدي وأنام.

***

تعود عيني إلى الظلام المُعتم بالبئر دون التحكم بطيرانٍ لأسفل، إلى القاع، يصطدم الجسد الذي أملكه بقطعة صلبة بارزة بالبئر لا أدري كونها خشب أو حجارة، جاهدًا أشرع في إحكام غلق عيني، فأغلقها.

***

في منتصف يوم سعيد أنهض من سريري بعد وقتٍ ممتع قضيته مع امرأة تعرفت عليها هذا الصباح، ارتديت ملابسي الداخلية، ومن ثم بنطالي، وقُلت منتشيًا من المتعة التي حظيت بكلام غير موجه:

- تبًا، لقد كان الأمر يستحق.

نهضت المرأة من الفراش شبه عارية ترتدي ملابسها

الداخلية وهي ممسكة بسيجارة بشفتيها، وتقول بوجهٍ سعيد:

- يمكنك ملاقاتي في منزلي اليوم، أستطيع القيام بأشياء أخرى رائعة كالعشاء.

اقتربت منها ثم قبلتها بعنقها ناطقًا:

- أطوق لتناول ما تعدين، لكن زوجتي أيضًا تجيد الطهو، وأنا أحب طريقة تحضيرها، لن نتقابل مجددًا، أسرعي للرحيل وإذا قابلتِني صدفة الأفضل تجاهل ملاحظتي.

انتشلت السيجارة التي بفمها وشرعت أتنفسها، أسرعت في ارتداء باقي ملابسي، وبغتة، فُتح باب الغرفة وولجت زوجتي ذات الشعر الأحمر الطويل والبشرة شديدة البياض، تقول وعيناها مليئة بالدمع:

- كنت واثقة من حقارتك، كانت أكبر غلطاتي هي الموافقة على الزواج بمن لا يمر سوى عام على مقابلتنا الأولى.

انهمر دمعها، قعدت على السرير بنصف جسدٍ عارٍ، أدخن السجارة دون الالتفات لما تقوله الزوجة، أكمل ارتداء باقي ملابسي، ومن ثم اقتربت المرأة رفيقة سريري من زوجتي مخرجة سيجارة من علبتها وتقول:

- قلت لكِ يا عزيزتي، أتعرف على الرجال الخائنين من النظرة الأولى، هدئي من روعك، لم يكن جيدًا بالفراش على أية حال.

تبدلت تعابير وجهي منبهرًا من اتفاق زوجتي مع إحدى السيدات الجميلات لتكتشف إخلاصي، انتهيت من ارتداء ملابسي وظللت جالسًا على السرير مُعبرًا عن عدم مبالاتي، أمسكت حذائي ووجهت سؤالًا لزوجتي:

- حبيبتي، أيمكنك تجاوز خطتك الفاشلة وتلك الحادثة.

تتحرك نظراتها للاستنكار الغاضب والانتقام الممهد وتقول بصوتٍ عال:

- هذا في أحلامك الحقيرة أيها الساذج، سأدمر حياتك القذرة، ستتمنى لو كنت ميتًا قبل اتخاذ قرار خيانتي.

تكمل كلامها الغاضب، وأبقي السيجارة بشفتيّ، ثم أخرجت سلاحًا صغيرًا من نعل حذائي وأطلقت على قلبها الرصاص فسقطت ميتة، تطلعت إليها صديقتها في صدمة تامة صامتة الصوت، جاحظة الأعين، ينز لعاب من فمها إثر فتحته الشديدة، نظرت إليها وسألتها وما زالت السيجارة في فمي:

- سيئ بالفراش؟

توجهت نظراتها إلي مرتعبة مما قالت ومن السلاح حوزتي وتلعثمت متحدثة بفزع:

- ما زال بإمكاني تحضير العشاء لك.

أطلقت رصاصة صوب رأسها فسقطت جثة، ثم قلت:

- أفضل الطعام السريع.

***

حلم داخل حلم، أستيقظ من حلمي الأول، ولا أقدر على الاستيقاظ من حلمي الأصيل الذي أنا به بكامل إرادتي متحكم ببقائي الذي يسقط دون توقف بالبئر، أفكر في العودة من حيث أتيت، لكن لا، لم أصل بعد لأسباب كل هذا، فأغمض عيني.

***

ساحة مغلقة تُستخدم كمخزن، معتمة، فارغة معظمها، بمنطقة بعيدة عن المدينة، في ليلة ليست بأفضل الليالي، أجلس على كرسي داخل المخزن وأمامي سرير قاسٍ غير مريح مجنزر، عليه زوجتي سوداء الشعر وممشوقة البنية، يعلوها رجل عملاق كثيف شعر الجسد من رجال منظمتي بالفئة الثالثة، يغتصبها بكل عنف لما يقارب ثلاث ساعات مع التنكيل الجسدي وهي عارية تمامًا، بجواره منضدة صغيرة عليها منبه رقمي، يدق المنبه دالًا على مرور الساعة الثالثة فأقول بصوتٍ واضح وهما يصدران الكثير من الأصوات:

- حسنًا توقف قليلًا.

توقف عن الاغتصاب وتجنبها واقفًا ويهدأ صوته المزعج، ويظل صوت أنفاسه من أثر الجهد وصوت صراخ زوجتي وأكملت:

- أكتفيتِ، أم نمنحك ساعة أخرى؟

أكملت صراخاتها الممزوجة بالندم والبكاء لاستعطافي وهي تقول بكل رجاء بائس:

- أعتذر عن خيانتي، لم أكن بكامل وعيي، لقد كنت ثملة ولم أنتبه، رجاءً ارحمني، أشعر باقترابي للموت إذا استمر هذا الوضع، هو خطأ واحد منذ زواجنا المستمر عشرة أشهر.

تحدثت لأوضح لها بعض النقاط الهامة وسط صرخات آلامها المستمرة:

- لا، لا يا حبيبتي، لا تكوني آسفة، ما قمتِ به لم يكن سوى تلبية نداء طبيعي لشعورك للإثارة والانجذاب، عزيزتي نحن بشر كل منا يمتلك الاحتياج الجنسي الذي يحتاج إلى الإشباع، ونحن هنا اليوم لمساعدتك على الإشباع.

استمرت في الصراخ يائسة، وأوجه حديثي للرجل بجوارها:

- إنها بحاجة للمزيد، لتكُن هذه المرة هي المرة الأخيرة، ولتكُن قوية بما يكفي لإرضائها وإرضائي، أريد أن ينفجر عقلها حينما تنتهي.

ابتسم وأصدر أصوات ضحكات مجنونة، شرب الكثير من سائل بزجاجة ترافقه، وتناول بعض الحبوب، ثم عاد معتليها ليُكمل اغتصابها وتعذيبها، وبعدما مرت عشر دقائق من الساعة الرابعة قبض على مطرقة ضخمة كجسده ووسط صرخاتها صدمها بالمطرقة على وجهها فانفجر رأسها، تزامن ذلك مع بعض من تصفيقي.

نهض من مكانه وارتدي بدلته، توجهت إليه في وقت ارتدائه، تفقدني مبتسمًا وهو يقول:

- أكان هذا جيدًا؟

أخرجت من جيبي الأيسر مسدس وصوبته على رأسه مخرجًا رصاصة استقرت في عقله فسقط أرضًا مسببًا دويًا، ثم تلفظت لجثته:

- كنت جيدًا أكثر من اللازم.

***

أعود العودة المرفوضة، بذات المكان المرفوض، أعود إلى الفراغ الذي يحتوي سقوطي دون قاع، أو هناك قاع لكن لا أستحق الوصول له بعد، يحتم الاستمرار، يحتم عليّ الانتقال مجددًا، ثُقفل جفوني.

***

في صباح يوم ربيعي مشمس، نحضر أنا وزوجتي ذات الشعر البني المموج والقوام المثالي ما نحتاج لرحلتنا التي ستكون بمركب وسط البحر، تقبلني بجبيني ونحن بالمطبخ وتمنحني عناقًا معتادًا، تحركت معها إلى الخارج نركب سيارتنا ونتجه إلى المدينة الساحلية، زواجنا قد مر عليه أكثر من ثمانية أشهر، لم تضايقني يومًا، لم تغضبني مرة، دائمًا تحضر لي كل شيء قبل طلبه، تثق بي ثقة لم أحظَ بها ولا أستحقها، حتى ولو لاحظت مغازلتي لإحدى النساء لا

تعقب ولا تعاتب، دائمًا مثالية بالبيت، لا تزعجني وأنا بنومي، وتحافظ على لياقتي وتذكرني بمواعيد تماريني، لا تكف عن الابتسام بوجهي، مواظبة على نظافة البيت وترتيبه، الأكل الذي تعده لا مثيل له، فضولها لم يظهر حتى عندما شاهدت بعض من أسلحتي الصغيرة، لم تسأل، ليس بها عيب واحد يذكر سواء بشخصيتها أو في شكلها.

ثمانية أشهر من المثالية المثيرة للقلق، دائمًا ما أشعر بوجود شيء سيظهر ويكون أكبر من كل توقعاتي، ربما هي تخطط لإلحاق الأذى بي بطريقة لا أتوقعها، أو هي تنتظر الأمان الكامل من جهتي حتى تقوم بخطوة مفاجئة، لا تكف طوال الطريق عن سؤالها المكرر بالابتسامة ذاتها بكل يوم:

- هل أنت سعيد يا حبيبي؟

حركت رأسي بابتسامة ممزوجة تدل على إجابة سعادتي، لا أشعر بالراحة مقابل هذا، ربما تكون مجندة من جهة دولية شديدة السرية، لذا فقد قررت مواجهتها بكل هواجسي التي أتيقن من وجوب صحة أحدها.

وصلنا إلى المركب المؤجر، تتأبط ذراعي لا تفارقتي بعدما تركنا السيارة ولامسنا الأرض حتى وصلنا إلى المركب، نتحرك به حتى نصل إلى مكان بعيد بالمحيط، تقول بعدما هدأ محرك المركب قليلًا والابتسامة لا تفارق وجهها:

- لم أرَ المحيط منذ وقتٍ طويل، المنظر في غاية الجمال.

من ثم تذهب إلى حافة المركب وتردف:

- ألا تظن بأننا ابتعدنا كثيرًا، بدأت في الشعور بالقلق.

ضحكت نظير كلامها الذي أظنه مصطنعًا، من ثم أردفت:

- لا تقلقي يا حبيبتي.

انتظرت اللحظة التي تتواجد فيه عند آخر حافة المركب متأملة البحر والمكان، هذا هو الوقت المناسب للمواجهة، سأخاطبها بكل صراحة، بل حتى سأفصح لها عن سري:

- حبيبتي، بالمناسبة هناك شيء أخفيته عنكِ طوال تلك المدة.

توجهت نظراتها إليّ، ثم تفوهت والابتسامة لا ترحل عنها:

- ما هو يا حبيبي؟

لعل إفصاحي يجبرها على إظهار كافة أسرارها تلك المثالية المثيرة الاستفزاز:

- أنا أعمل كقاتل مستأجر، وأملك منظمة سرية أديرها بهذا النشاط.

ضحكت بصوتٍ واضح وبهستريا، وتقول وهي بتلك الحالة:

- سررت بلقائك أيها القاتل المحترف.

أتسخر مني؟ أم هي شديدة الحذر وتجاوز حذرها حذري، هي بكل تأكيد تملك منظمة مثلي، وتأخذ شخصيتها تلك لتحمي نفسها، لا أقدر على منع نفسي من التأكد، لقد قالت لي من قبل عندما قررنا الذهاب بتلك الرحلة عدم استطاعتها

السباحة ولا يوجد شخص ذو قدرات خاصة لا يقدر على السباحة.

اقتربت منها، ومن ثم دفعتها للسقوط، هوى جسدها بالماء كالهواء، حركة ذكية لمن مثلها حتى أصدق شخصيتها المصطنعة، تستغيث باستماتة، وتضرب طبقات الماء لإتقان دور الغريق، من ثم يدفس جسدها ورأسها، لن تخيل عليّ هذه التصرفات.

وقفت منتظرًا ظهورها، مرت خمس دقائق لا أثر لتحركات بالماء بتلك المنطقة، خطوت داخل المركب للتأكد بعدم صعودها من جهة أخرى، يا لها من محترفة! لقد مر أكثر من ثمانِ دقائق ولا تصعد إلى المركب، عشر دقائق، ستظهر الآن، لا تظهر، عشرون دقيقة، ساعة وثلث.

ربما هي امرأة طبيعية، ربما كنت أنا الذي يشك أكثر من اللازم، نطقت دون التفكير:

- تبًا.

أكنت مهووسًا؟ أجننت؟ ربما زاد قلقي بسبب الأحداث السابقة، فتلاعب بعقلي، قعدت وسط المركب، وجهت سؤالًا إلى لا أحد، غير منتظرًا للرد، ولكنني أود معرفة الإجابة:

- والآن ماذا؟

***

الهبوط الأخير قبل الاصطدام، ينتابني الشك بصعود روحي

إلى السماء كلما اقتربت من القاع، لا أملك القدرة على الفرار، ولا أستطيع العودة إلى أعلى، ارتطمت بالقعر وتوقف كل شيء للحظات من أثر الألم الذي تملك كل أعضائي، ظللت لدقائق لا أعلم ما الجزء الأكبر ضررًا في جسدي، الظلام الحالك يمنعني من النظر للأضرار بوضوح، عدت كحديث الولادة لا أملك القدرة سوى على تحريك أناملي باكيًا منتظرًا من يحملني، كأنني برحم امرأة ماتت ودفنت، بعدما بدأت باستقطاب القليل من الإحساس، أدركت لزوجة مؤخرتي، حركت يدي بهدوء حتى توصلت إلى مصدره، وبقليلٍ من تحريك الأصابع فطنت بصقة الدجالة وسقوطي عليها، يا للسخرية! ما كنت بهذا الموضع المهين بحياتي قط، وما كانت في حياتي لتجرؤ حتى قوانين الطبيعة بإهانتي.

بدأت في استجماع القليل مما تبقى من قدرة لتحريك جسدي قليلًا لأعلي، أستشعر بتمزق كل أوتاري وعضلاتي وتفتيت عظامي، لا أفكر سوى عن طريق العودة، وداعب عقلي القليل من يأس البقاء حتى الموت بهذا المكان، رسمت عيني السوداء مظهري، هيكلي العظمي متوقعًا وصولي إليه، أهذه النهاية، أم أنا حتى حبيس الفراغ، لا أستطيع الوصول إلى نهاية محددة.

بلحظة قبل التعمق بالتفكير، فزعني سقوط من فوقي شيء أجهل حقيقته، لامس رأسي وجسدي فتحسسته حتى علمته، حبل سميك، بدأ بالتحرك كأنه خيط صائد أسماك يداعب أسماكه، لكنه في الحقيقة كان يحاول لفت نظري، فأمسكت

بالحبل وسحبته قليلًا بما تبقي لي من قوة، حتى حظى راميه بالفهم، فقام بسحبه ببطء، قبضت عليه بقوة، فشحب جسدي معه من منقذ مجهول ومسافة مجهولة آملا الخروج من قاع فشلي إلى أي مخرج يمكن البدأ من خلاله.

أتمسك بآخر فرص هذا العالم بجسد لا يملك أية قوة في حوزته، لكن التمسك بالخروج كان أكبر من انتباهي لكل الآلام غير المحتملة، كان أهم من استسلام يدي للسقوط، وفي كل مرحلة يُسحب فيها جسدي كانت قدماي اللتان أظنهما مكسورتين تستندان للحظات على الحجارة أو قطع الخشب المكسورة المثبتة بالجدار، بدأ نور فتحة البئر يظهر بوضوح ويكبر منفذه أمام عيني معتادة الظلام، هوية المنقذ تتشكل في ذهني، أهي العجوز تخرجني لتزيد آلامي، تملأها الشماتة فتريد النظر إليّ بعد سقوطي لتسرق ما تبقى بي من عزة وكبرياء؟ أم هو شخص آخر أجهل تواجده في فراغ عقلي المُشتت؟ شخص استطاع الوصول إلى عالمي الخاص غير راغب بالإيذاء.. أدركت مدخل البئر بوابة سجني السابق، خرجت بكل هدوء غير متحامل على جسدي المنهك وتساعدني يد رجل رائحته مألوفة، يستمر في جذبي حتى اندفعت وسقطت أرضًا خارج البئر، يصعب عليّ تقبل كل هذا الضوء، فالعالم أشد إنارة من صباح يوم مشرق، فأغلقت عينيّ قليلًا، ومن ثم بدأت في تقبل الضوء رويدًا، صرتُ آخذ الخطوات الأولى للنظر والإدراك، بصرت قدم المنقذ، بدأت في تحريك رأسي إلى أعلى حتى وصلت عيني إلى

خصره، معدته، صدره، عنقه، وجهه، أستاذي الجامعي الوحيد، البروفيسور.

فرص توقع شخصه هنا تقارب الاستحالة، لا أعلم كيف له التواجد، ولمَ قد يحاول إنقاذي.. يقف متطلعًا إلى وجهي بصمت، تتكلم عيناه لغة الشغف والاهتمام والأسف، تملأ رائحته العالم، راحة غزت وجداني دفعتني لتذكر متى وأين قد شممتها من قبل، وإلى ما احتاجه الآن، أدركت عيناه فهمي لتخمين تواجده وإنقاذي، بدأ في الدوران بصمت والمشي بهدوء للرحيل، وأنا ما زلت ساقطًا، بدأت في الضغط على أعضائي للنهوض جالسًا، أخذت من الوقت ما يكفي حتى جلست وحركت قدميّ لوضعية التأمل مستند الظهر إلى حجارة البئر أمدد يدي لتأخذ ما تبقى من الشكل المعتاد، لا تكف عيني عن رؤية البروفيسور وهو يرحل، سحبت الكثير من الهواء الممزوج بالرائحة شهقًا، ثم أغلقت عيني.

***

مساء ليل بارد، بدولة شديد البرودة، يتساقط الثلج في كل مكان، يحاول الجميع عدم الخروج من منازلهم أتمشى أنا بين طرقات منطقة راقية ومنازل فخمة وسط مدينة جميلة بدولة متحضرة، يقترب الوقت على منتصف الليل، أتوجه نحو بيت محدد لشخص محدد يملك من القدرات ما يكفي لمساعدة ضياع التائه وسط أفكار عقله وشعوذة أحداثه، أصل إلى البيت المكون من طابقين، أخطو في محيطه حتى بابه الخلفي وأدخل مستخدمًا جهازي الصغير

الفاك لكل الأبواب، متى دخلت يملأ أنفي الكثير من رائحة خاصة أميزها بوضوح حتى بعد مرور أكثر من عقد ونصف، أتحرك داخل المنزل الفارغ من أشخاصه، أصعد نحو غرفة النوم الأساسية، أدخل الحجرة ثم إلى حمامها الواسع، أفتح مصدر أضاءته وأغلق بابه، لكن ليس بإحكام حتي يصدر منه مصدر إضاءة للغرفة فيدرك من يدخل الغرفة بوجود شخص بالمرحاض. ثم أجلس داخل حوض الاستحمام منتظرًا طبيبي النفسي المختار.

تمضي ثماني عشرة دقيقة، ثم أسمع بين هدوء الليل والشتاء من يدخل المنزل، أستطيع التيقن كونهما شخصين، والأقرب لتكون هويتهما هما أستاذي الجامعي السابق وزوجته، هو ذات البروفيسور الناجي من السم الذي وضعته له منذ ما يزيد عن عشرة أعوام، نجاته من الموت ليست صدفة، بل هي فرصة منحتهُ إيّاهَا وأتقن استغلالها.

يستخدم أحدهم درجات السلم الخشبية ليصعد ببطء العجز إلى أعلى، أستشعر دخوله الغرفة، من ثم تبطئ خطواته قليلًا كأنه يجلس على السرير، بدأ في ملاحظة ضوء الحمام، صوت الخطوات يعود، يفتح باب المرحاض، أبصر جسده الفاني في آخر مراحل كهله، يراني بوضوح ويسقط قلبه في ذات اللحظة تاركًا باقي أعضاء الجسد يعملون بعشوائية، ويقول فزعًا:

-بحق إله الجنة!

عبر عن خوفه بصوت عالٍ ومنع ارتعابه خروج باقي كلماته، بدأت يداه الكاهلة في الارتعاش خصيصًا حينما تعرف على ملامحي، تأثرت أذناه بسماع صوت زوجته تنادِي له مستفهمة بعدما سمعت فزعته:

- ماذا هناك؟ أسقطت مجددًا؟

وفي نفس حالة الارتعاش ينظر إليّ البروفيسور وأشير له بإصبعي بحركة بسيطة يفهم منها ضرورة عدم تواجد أحد اليوم معنا، فيرد عليها ويقول:

-أنوار الحمام كان مضاءة طوال وقت عدم تواجدنا بالمنزل.

لترد هي عليه ببعض الكلام غير المفهومة من صوتها المتهالك آثر العجز، ويعود لتوجيه كلامه لها وهو يخرج من الحمام:

-أتتذكرين عندما وددتِ الذهاب إلى بيت ابننا الأكبر اليوم، يبدو هذا الأمر أفضل، ربما سيعود لدي اليوم تبولي اللا إرادي.

يكمل حديثه معها بصوته الذي يتلاشي مع كل خطوة يبتعد بها من حجرة المرحاض، يستمران في الحديث حتى يقنعها بالذهاب إلى بيت ابنهما القريب، يخرجها من البيت، ثم بخطوات أسرع من سابقها يعود من حيث بدأت فزعته الأولى واقفًا يفتح الباب ينظر إليّ، يفكر في كلامه قبل التحدث وأنا ما زلت بذات وضعيتي:

-أسنكمل مقابلتنا هنا؟

تحرك رأسي مجيبًا بنعم، يدخل ببطء شديدٍ يرتعش، يقترب من قاعدة المرحاض القريبة من الحوض المسترخي به ويغلق الفتحة بقطعتها البلاستيكية ويجلس عليها، أقطع الهدوء بقولي:

-من الجيد ترحيل زوجتك حتى أشعر بالراحة أكثر.

يرد وهو بذات الحالة الخائفة:

-كانت ستصعد قبلي إلى الغرفة لكنها لاحظت القطة جائعة، فوضعت لها الطعام وصعدت أنا قبلها.

أضيف لكلامه موضحًا:

-حتى إذا رأتني لا مشكلة، كنت سأقتلها.

يشمئز من ما قلت، ويبتلع لعاب فمه، ثم يُردف خوفًا ليتجنب عواقب تصرفات لم تصدر منه:

-أنا لم أبحث عنك طوال الفترة الماضية قط، لم أفتعل أي مشاكل، لِمَ قدمت إليّ؟

أرفع قدميّ من داخل الحوض لتستندا على حافته، ثم أقول:

-لا أنت لم ترتكب مضايقات، على العكس منذ آخر واقعة بيننا فهمت الفرصة التي أعطيتك إياها، كونها ليست صدفة عدم موتك من السم، ومنذ تيقنك رسالتي الحادة، لم تفتعل

إزعاجًا، أنا جئت إليك، لأني..

أسكت قليلًا لصعوبة نطق الكلمة المحددة، ويطول الصمت فيسألني:

-لأنك؟

أحاول جمع قواي وترك الكبرياء جانبًا، ثم أقول:

-لأني بحاجة إلى شخص، أرغب في الحديث مع إنسان.

تدور عيناه يمينًا وشمالًا، يستعجب اختياري له لمثل هذا الموقف، فأقطع استعجابه وأكمل:

-أظنك تمتلك من المنطقية والذكاء ما يكفي.

تعابير وجهه تدل على تفكيره العميق قبل اختيار الكلمات المناسبة، ثم أخيرًا يتحدث ويقول بأسلوب لائق أكثر من اللازم حتى يخفي معالم الإجبار التي وُجّهت له:

-حسنًا يمكنني سماعك، فيمَ تُريد التحدث؟

يُحرك جلسته على قاعدة الحمام إلى الوراء ليستريح أكثر، أوجه عيني إلى الأمام وأقول مسترسلًا:

-أنا أعمل بمجالٍ قاسي، يُفتت مشاعر من يتخذه مسار حياته، لكن في حالتي بدأت هذا الطريق بشعور مفتت بالفعل، كان لي هدف في بداية الأمر وحققت كل الأهداف التي بدت مستحيلة، ولم يكن هذا كفيلًا لنهاية عمري أو طاقتي، فخُلقت بداخلي أهداف جديدة ساذجة، لكن سخرية

عالمنا هذا صنعت من سذاجتها استحالة لشخص مثلي، لُعنت ولا أستطيع فك اللعنة.

تظهر معالم البلاهة على وجهه، فقد يبدو كلامي بالنسبة له ألغازًا، فكان من الطبيعي سؤاله:

-ما هي طبيعة المجال الذي تتحدث عنه؟

غضب مستتر بداخلي دفعني لأرد على سؤاله:

-أنا قاتل مستأجر يا بروفيسور، إذا سألت عن مجالي مجددًا فسأقتلك دون مقابل، لا تُخرج ندمي باتخاذك طبيبًا نفسيًا.

يُحرك رأسه ويديه باعتذار دال على الأسف، ثم يكمل صمته وأتحدث أنا:

-كل ما أردته هو عائلة، زوجة جميلة هادئة، إدارة منظمتي السرية بشكل خفي دون علم أحد، أهذا صعب؟!

أصمت قليلًا ثم أشعر بألم في بظهر رقبتي، فتوجهت له بسؤال:

-هلا تكرمت وتمنحني وسادة؟ فقدت الشعور برقبتي.

يحرك يده اليمنى ويخرج وسادة من خزانة أسفل حوض غسل اليدين ويعطيني إياها، فأتعجب من وجود وسادة بالمرحاض، فيقول ردًا على تعجبي الظاهر:

-أستخدمها عند الاسترخاء مثلك في نفس المكان حين

الهروب من زوجتي. لم أكن أتوقع بكل تأكيد بقدوم أحد إلى هذا الحمام وأجلس معه بجلسة نفسية، فجهزت الوسادة التي ستريح عنقه وهو مسترخٍ.

أتجنب الرد على كلامه ثم أضع الوسادة تحت رقبتي وأكمل استرسالي:

-تزوجت خمس مرات في خلال ستة أعوام، لم تنجح أي منهن، جميعهن انتهين بقتل الزوجات، بان حبي للقتل أكثر من الزواج، لكنّي في أشد الحاجة للزواج، فلن أفشل في صناعة عائلة.

يقطع كلامي تنهُدي وتفكيري بما أقول ومحاولة التركيز على سبب المشكلة وسبب إفصاحي عن كل تلك الأسرار له، ثم أقول:

-كانت الأمور تسير بشكلِها الجيد حسب أهدافي، كل الأحداث طبقًا للخطط، حتى ظهرت تلك الكريهة.

يتنهد محاولًا الإفصاح عن سؤال، فأقطع تنهده بإجابة السؤال المتوقع:

-دجالة اعلمتني بلعنة وتنبؤات غير منطقية بالنسبة لي، لكن كل تنجماتها حدثت. منذ ثلاث سنوات في يوم مولدي حينما قررت التقاعد من القتل للزواج وإدارة عملي دون خوض مخاطر مباشرة، قابلتني الدجالة وبحركة غريبة أبدت معرفة هويتي الحقيقية ولغتي وعملي، تنبأت بأحداثي وزيجاتي وقتلي لهن.

تحركت شفتاه وهو في قمة انتباهه لتسألني:

-ما اللعنة التي تتحدث عنها؟

أضيف إجابة سريعًا وأنا أتحدث حالمًا، مستسلمًا للعنة ومتيقنًا بوقوعها بالفعل:

- نصفها الأول القتل، ألّا أكف عنه حينما أريد، والآخر مرتبط بكابوس يرافقني منذ سنوات. امرأة جميلة لا أبصر ملامحها، تبدو زوجتي بالحلم وأبدو سعيدًا معها، تحاول إظهار شيء لي هناك، لكن أعمى بكل مرة، فتذهب وأركض وراءها ولا أستطيع الوصول.

يحاول إظهار الكثير من الفهم لما أقول، لكن ما يبدو عليه هو الكثير من الأسئلة حول كل ما طرحت حتى يفهم الموقف، الأمر الذي كان يحتاج إلى تنازلي للبوح الكامل عن أسراري.

***

تتقلب الثواني داخل دقائق داخل ساعات حتى اقتربنا من الشروق، حتى فهم كل المواقف بأدق تفاصيلها، بعدما كان شديد الحذر بالتحدث مع مرور الوقت تودنا بالكلام وتجرأ أكثر لمخاطبتي بحرية، لكننا ما زلنا بمنطقة التفكير دون إيجاد حلول، وبعدما ذهب لإحضار بعض من المشروبات، عاد فقلت مكملًا حديثي المنقطع:

- لكني بعد تفكير فقدت أفكاري وهويتي، انقسمت آرائي

وكل منها يحمل العقلانية والإمكانية والمنطق، حتى الافتراضات غير المترابطة وغير الواقعية أحيانًا ألجأ إليها حينما يصعُب عليّ فهم الموقف.

أنظاري تجاه سقف المرحاض وأنا أتحدث، وبعدما انتهيت من كلامي أُلقي إليه سريعًا نظرةً بطرف العين لأجده منتبهًا، مانحًا تركيزهِ بأكمله، ثم أتابع:

-لم أُصدق النبوءة حتى تتابعت الأحداث متوافقة معها، وتصديقي لها كانت وراءه غريزة أحاول أخفاءها وتجنبها حتى أتى ذلك التنجيم أعاد خطيئتي المكبوتة للظهور والاستخدام بأي موقف بشكل أقوى وأشرس من ذي قبل، وكأنيّ كنت أحتاج تلك النبوءة لأعود من قراري غير المناسب لشخصيتي وقدراتي.

يجلس بكرسيه ثم يمنحني المشروب الساخن الذي أحضر، ألتقطه ثم يُكمل على كلامي بكلامه:

- لم تتأقلم مع طبيعتك الجديدة دون قتل، ولم تصل إلى الهدوء.

أستحي بعض الرشفات من مشروبي الساخن، ثم أرد:

-لم أكن لأحيا دون قتل، لم أصل لأيّ حلول مناسبة بتلك المواقف الطبيعي حدوثها سوى القتل، وذلك ليس إفراطًا مريضًا، أنا فقط أسبق الأحداث، أكتب نهاية القصة دون بداية ومشاهد وسطية.

ليفهم أكثر حول شخصيتي وأفكاري، يتجه بالحوار لرأي وسؤال هام:

- ربما لأنك لا تملك مبادئ، لا تتقيد بعقيدة، أيمكنني سؤالك؟ أتملك ديانة؟ معتقدًا؟ منهجًا؟

من الطبيعي الاستفهام حول تلك المنقطة، حيث من الممكن كون الإجابة سببًا لمعرفة كيف يفكر الشخص. أرد بصراحة مطلقة:

- أملك ما يُفيد أهدافي، ما يحقق نجاح خططي، يوصلني لغايتي بأقصر طريقٍ مختصر، فأتجنب المناهج الإنسانية، الأخلاقية والتعاطفية المسالمة، لِأن أكثر ما يأمر بها علنًا يُخالفها خلسة ويبرر انتهاكه إذا ما اكتُشف، أو يُبدي إخلاله بها أمام الناس بحجةِ هدفٍ أسمى.

أتنهد قليلًا وأضمم يدي ملتفة بالمشروب الساخن بعدما أشرب القليل، أكمل:

-أمّا الديانة، فتعرفت على جميعِها، عقائد، طقوس وممارسات، لم تناسبني، لم أقتنع، الإيمان داخلي لا يقبل التجزئة، أمنحه بالكامل للنجاح، ولم أقتنع بوجود خالق وذلك جزء لا يتجزأ من كل الديانات، لذا قررت تأجيل التفكير حول اختياري ديانة أو عقيدة، حتى تنتهي خططي وتكتفي نجاحاتي، أو حتى تقنعني الظروف والمواقف والحياة، وتلك معتقداتي، أصنع ما يحلو لي دون النظر لمعوقات، وتأجيل كل ما لا يناسب الخطط الحالية، حتى يفُرض احتياجي لتلك

القناعات.

بعدما انتهيت لاحظت فهمه للطريقة التي أفكر بها، وأوضحت ذلك ابتسامته الخفيفة. يضع مشروبه جانبًا، ثم يضيف كلامه:

- أتعلم؟ كل أذكياء التاريخ حينما يتجنبون عوائق لقطار ذكائهم، يصلون إلى عقيدة بآخر المطاف فقط عندما يحتاجون إلى الهدوء ويصلون إليه. ربما عقلك يفتقر الراحة، ذلك لاستخدامه بذكاء خارق لفترة طويلة، تحتاج إلى أن تحتاج وتتقبل احتياجك، كما الحال الآن، أنت مضجر فقط لكونك تطلب ما لا تستطيع الوصول إليه باختيارك وخططك ومجهودك، ترفض وجود أي قوى خفية لا تقدر التعامل معاها. حاول تفسير كل ما يحدث بوجود إله، يرتب أحداثك ومواقفك حتى تختار بكامل إرادتك الرجوع الكامل عن أفكارك العدوانية.

لم يلقَ كلامه الترحيب المنتظر من تعابير وجهي، قد تكون نظرته متفهمة لطريقتي في التفكير، لكن توقعاته تجهل شخصيتي لذا فهي ليست بمحلها وبغير وقتها، وبعد صمت مطول دون إبداء ردود، قاطع السكوت بكلامه:

-حسنًا لنتحدث في الأمر من منظورك. تفسيرك لكلام المنجمة يبدو منتقصًا لبعض النقاط، أتفق معك بقصدها عن مقابلتك للفتاة التي تحلم، ومتفق معك بتحذيرها لك عن التقاعد في هذا الوقت، وسريعًا ما عدت من تقاعدك،

وإضافتها لتوخي الحذر يؤكد بقرب موتك وأنت تبحث، لكنك ستظل تبحث حتى تجد هدفك، وهو الهدوء كما أضافت هي، أعتقد الذي ينقصك من التفسير هو التركيز في توقيت ما حدث، يوم تقاعدك، يوم عيد مولدك، هذا اليوم الذي صادف تجمع كل الأحداث فيه.

أفكر قليلًا في كلامه حتى أجد التعديل المناسب فأقول:

-لم أتجاهل هذا، بل على العكس قد يكون ذلك سبب تصديقي الرئيسي.

يُعيد مشروبه ليده ثم يلتقط بعد الرشفات ويقول:

-هنا تكمن المعضلة، أنت لا تريد التسليم الكامل للأحداث غير المنطقية، أنت صدقت منها ما رُتب في عقلك من نتائج، فسلم عقلك إمكانية الحدوث لكنه لم يحق بالربط بينها وبين النبؤة، فالأشياء الخفية حتى ولو لها معالم -كفشلك مع زوجاتك وقتلهن- فأنت لا تريد إقرار خرافتها لأنها لا تملك مسند إثبات منطقيًا.

يخرج من المرحاض ثم يُدخل كرسي إلى الحمام هو أكثر راحة من جلوسه على المقعدة المخصصة للفضلات، يمكث عليه ويستعيد كوب مشروبه الساخن ويكمل:

-أنت الشخص الأكثر تنظيمًا، لم تترك من أمورك أحدها ترافقه الصدف، كنت دائمًا ما تضع الخطط وتبذل كل المجهود المطلوب حتى تصل نسبة عدم حدوث النتيجة المرجوة إلى الرقم صفر، حتمية تحقيق أهدافك دائمًا ما

كانت تمنحك الغرور الكافي لرفض أية أفكار روحانية من الممكن وقوعها صدفة، فكان من الطبيعي رفض كل التفسيرات غير المنطقية لأحداث أنت على علم بوقوعها، وعلى معرفة بحدوث القادم إذا ظللت متمسكًا بواقعك المنطقي حين مشاهدة كابوسك يتحرك بوضوح.

بدأ كلامه يبني جسرًا بيني وبين تقبل الأحداث، جسرًا سيكون بداية للوصول إلى نهاية تلك اللعنة، أكمل كلامه بذات طريقته التي تحمل ما يكفي من الإقناع:

-لذا فيُحتم عليك التنازل، الوقت الذي تتخلى فيه عن تفكيرك الطبيعي، ستفهم كل ما يدور حولك ويُضاف للأمور معنى، من ثم تستطيع التخطيط لما هو قادم كما تريد.

ينحي ظهره قليلًا من مسند الكرسي فيقترب مني إلى حد ما ويكمل:

-كونك الصانع الوحيد للعبة والواضع المنفرد لقوانينها هو ما يمنعك من التفكير الصحيح وأخذ القرار المناسب.

أثار كلامه سؤالًا فطرحته:

-وما هو القرار؟

يرد هو بذات المنطقية والإقناع خاصته:

-تلعب اللعبة وتستسلم لقوانين وضُعت بها عنوة، حتى ولو كنت لا تفهم كل الجوانب، يكفي الإمكانية لكون النتيجة مُرضية، لتحقق ما صعب عليك تحقيقه.

كلامه يزيح عقلي من رؤيته الثابتة إلى زاوية أخرى ترى الحالة بوضوح، حتى فكرت بالتعليق والقول:

-يسهل عليك قول هذا، لكن يصعب علي تقبله، حتى لو اقتنعت بفكرتك، وسلمت للأحداث التي وقعت وارتباطها بتنبؤ الدجالة، يظل عقلي يرفض كل هذا الكلام، لأنه يظل تنبؤات من منجمة عاهرة، أنا لا أقبل أي قوانين، فما بالك بقواعد لا أعلم عنها سوى القليل فقط؟! سأندرج إذًا بمنطقة لم أزرها يومًا يصعب الخروج منها معافى، مع إمكانية هلاكي وأنا أحاول.

يسحب أقدامه من أسفل الكرسي الجالس عليه ويمدها حتى تفرد قدمه بالكامل ويعود بباقي جسده إلى الوراء، ثم يقول:

-أظن هناك تصرف منك أكثر منطقية لهذا الوضع يمكنك تنفيذه، لكنه أصعب.

أنظر إليه مستفهمًا فيكمل كلامه ويقول:

-إذا كانت نبؤة الدجالة تراهة، وكل ما حدث مجرد صدفة ارتبط بكلامها، فأعتقد الحياة تعطيك فرصة ذهبية للاكتفاء والعودة إلى حياة طبيعية، وبمنطقية فقد حدث هذا في الوقت الذي كنت ستكف فيه عن القتل بيديك، لكن المنظمة كانت ستتابع عملها دون تأثير لهذا القرار، كنت ستتابع الأعمال المعتادة لديك دون توقف لكن بطريقة مختلفة، وكأن القدر كان يحاول لفت نظرك ليقول لك: «تنازل عن كل شيء

أو لا تتنازل عن أحدهم».

ما سمعته من البروفيسور حتى ولو كان منطقيًا، فهو مرفوض من جهتي رفضًا قاطعًا لا مناقشة فيه، لذا فشرعت في الرد:

-الذي سمعته مما قلت ما هو إلا تراهات كتلك التي سمعتها من المنجمة، لا مجال للمناقشة في هذا الوضع.

يتلاعب بتعابير وجهه دالًا على تخمين هذا الرد من جهتي ثم يضيف:

-حسنًا، بناءً على ذلك فلا مجال أمامك سوى التصديق الكامل للنبوءة.

ظني بوجود حل آخر غير ذاك تقلص حتى تلاشى، أيقنت بضرورة أُجبرت على اعتبارها ضرورة، فأكملت كلامي موجهًا له التساؤل الملح بداخلي:

-وإذا رفضت المفاهيم والمبادئ سيؤدي للاستمرار في القتل حتى أكمل ما لا أريد مواصلته.

يتابع كلامه كلامي ليبني الباقي من الصورة:

-والبحث عن ما لا تعرفه بلا أي معلومة تفيد وجوده. متابعة سراب لا وجود له حتى تجده ولأكون واضحًا كفاية، أعتقد بإمكانك استغلال كلام الدجالة لصالحك.

يعتدل جسده ليتخذ الوضع الطبيعي للجلوس وقال محللًا كلامها:

-المقصد الأساسي لكلام المنبئة هو ارتباط الفتاة التي بكابوسك بهدوئك، وارتباط الاثنين بتقاعدك وتوقفك عن القتل الذي هُدم بسبب اختيار زوجات أخريات غير فتاة الكابوس، إذًا، فمتى وجدت تلك الفتاة فبإمكانك التقاعد، ولن تجد الفتاة إلا وأنت بمهام ميدانية، المحتمل موتك بها حين التنفيذ والبحث، وبمنطقية، لمّا كان كل هذا ارتبط بيوم مولدك الحقيقي، فلا تورط نفسك بمهام إلا بهذا اليوم تجنبًا للموت الذي حُذرت منه وأنت تبحث، وهذا تفسيري لعبارتها: «حقك بتوخي الحذر».

تخلل تفسيره الجديد وفكرته المنقذة بأذهاني، فأصبحت حلوله موضع تخطيط داخل عقلي مهووس التفكير، ثم أكمل كلامه الساحر وقال:

-بتلك الطريقة يمكنك التلاعب بقوانين -وضعت بها غصب- لصالحك وبطريقة تناسبك، ولن تلقى متاعب أكثر.. لكن أكبر عناء ستواجه هو عناء الانتظار.

توقف عن الكلام، وتوقفت أنا عن التردد، أدركت الآن قراري، فإذا لم أملك فرصة للهروب، فلن أكون سجينًا غبيًا بائسًا، اعتدل جسدي الممتد منذ مجيئي، لأقول له دون النظر إليه:

-أشكرك يا بروفيسور.

أخرج من حوض الاستحمام وأقف أمام كرسيه أثناء جلوسه عليه، وأقول:

-كان حديثنا مدخلًا لإيجاد طريقة مختلفة وتصرف لم يستطع عقلي اتخاذ قرار بتنفيذه.

يبتسم وبالأثناء أدخل يدي إلى جيب سترتي وأمسك بأطراف قطعة معدنية دائرية شديدة الالتصاق صغيرة الحجم وسميكة تشبه بطارية، ويقول هو:

-من دواعي سروري.

تخرج يدي من جيبي ويقف لنتبادل المصافحة، أضع يدي بيده وألصق القطعة المعدنية بمنتصف يده وأضغط على زرها متناهي الصغر، تتغير معالم وجهه من الود إلى استغراب الشيء المستحدث المتواجد بيده، يسحب ذراعه ويقول:

-ما هذا؟

أرد بالإجابة السريعة:

-لا يمكنني المخاطرة، أعتذر.

تنطلق الموجات الكهربائية الصاعقة من القطعة الكافية لإنهاء حياته في غضون دقيقتين، يسقط أرضًا مرتعشًا ارتعاشات الصعق والموت، تمر الدقيقتان، تُزهق روحه، استعيد القطعة المعدنية المنتهي دورها، أتوجه لزرار الكهرباء داخل الحمام لأظهر الأسلاك الداخلية، أرحل.

3

ظلام يهوي بي حتى أفتح عيني مفيقًا بالعالم الأول والأخير، أعود من رحلتي التي استغرقت هدوء الليل جالسًا على سريري بذات الوضعية التأملية التي بدأت، ضوء الشروق ملأ سواد الغرفة، تذكرت ما أريد تذكره، وحددت هدفي أكثر، مر أول الطقوس ليوم مهمتي المتكرر بكل عام.

لم أحمل إيمانًا بالحظ والصدف والسحر والخرفات، لكن ظروف حياتي الجديدة حولتني إلى مهووس موسوس مهلوس وأصل لحد المرض، منذ ما أيقنتُ وضعي وصدقت المُنجِّمة حتى إن كذبت عدتُ بجانب إدارتي السرية لمنظمتي إلى العمل الميداني ولكن بشروط، لا أقبلُ سوى عمليةٍ واحدةٍ في العام أنجزها وأسير في شوارع، طرقات وأماكن البلد التي نُفذت بها المهمة، آملًا إيجاد المرأة، أختار المهمة بشكلٍ عشوائيٍ ويكون وقتُ إتمامها يوم مولدي حتى يتحقق كابوسي وتنفك لعنتي وأعود مسيطرًا بالكامل على مجريات حياتي.

تنازلت عن فكرة الزواج وبناء عائلة مؤقتًا وكل ما كان يلفت انتباهي هو مرور الوقت دون تحرك مؤثر بأحداثي، عامًا تلو آخر، لا أجدُ امرأة كابوسي -المتكرر بفتراته المتقاربة- وكلما تكرر يسير أكثر رعبًا وتأثيرًا حتى صرت متيقنًا بحبي لتلك المرأة، شغفي بها وبمقابلتها مع مرور السنوات تحكم بمشاعري حتى وصل الفضول، لم أرَ يومًا

من سيتزامن مقابلتي لها حريتي. لم يكن الحب هو الشعور الوحيد، هواجسي أكدت كونها المراة الوحيدة التي أستطيع العيش معها بسلام، سعادة والأهم العيش الهادئ، وقد منحث لهواجسي التحكم بمستقبلي بالكامل.

شكوكٌ بأن سعيِي سيتسبب في موتي، زادَ حذري، بل أصبحت لي طقوس وعلاماتٌ صنعتها بنفسي بعدما تثقفت بجميع الأساطير لكافة الحضارات والبلدان ذات السمعة الطيبة بالسحر والخرفات، وإذا شاب طقوسي التعكير ثُلغى المهمة، أولًا والأهم؛ هي التأمل الذي مررت به، ألا يشوبه تعكير حتى أتذكر كل ما كونني الآن، وألّا أفيق حتى الانتهاء، والانتهاء يزامن قبل الخامسة صباحًا بعشر دقائق، وإذا لم أنتهِ أو تزامن انتهائي التأخير عن الوقت المحدد ثُلغى العملية، ثانيًا: أتجه صباحًا لاصطياد أربع حمامات وأنا مغمض العينين، وإذا لم تصِب الرصاصات الحمامات ثُلغى العملية، لذا أختار شقة مكوثي دائمًا بالدور الأعلى بالمبنى الأكبر بالمدينة، ثالثًا: أن لا أبصرَ قطةً سوداءَ يوم العملية، رابعًا: لا أنظرَ إلى مرآةٍ مكسورةٍ يومها ولا تُكسر أمامي واحدة.

أنا لا أتردد أبدًا في اتخاذ القرارات، لكن من المبهمات ما يثير التفكير قبل القرار، انتهائي من التأمل كان قبل الخامسة بدقيقتين، وحدوث هذا في مرته الأولى تسبب في حيرتي لانتظاري بقية العلامات التي وضعت.

اليوم ببلد منقسمة مدنها بين دولتين بها حالة طوارئ إثر

الحرب بين مجموعة من رجال شعب إحدى الدول وبين الدولة الأكبر بالبلد، أنا بمدينة هادئة نسبيًا سكان المدينة ما بين فئتين وجنسيات مختلفة، قبل الحرب شهدت تلك المدينة العديد من الاحتجاجات اعتراضًا على أعمال الحكومة العنفية ضد المدن الخاصة بالدولة الأصغر، لكن الحكومة دائمًا ما كانت تُسيطر على تلك الوقفات. الحرب متوقفة مؤقتًا حتى الوصول إلى اتفاقات بين الدول المحيطة والكبرى، أنا على علم تام بمجريات الأحداث هنا، بالإضافة إلى تدخل منظمتي بمقراتها المحيطة بإمداد الدولة الأكبر ببعض الرجال المحترفين من الفئة الأولى، والأسلحة الممنوعة، أما أنا بشخصيتي المزيفة لديّ أمرٌ من منظمتي ناتج من طلب من حكومة البلد الأكبر بقتل أحد سكان المدينة، لرغبتهم بعدم التورط في قتله، وخصيصًا بهذا الوقت، رغم هذا ومع إتقاني للغتين الأهم لتلك المنطقة من الدول وإتقاني للهجاتهما فلا تسبب ظروف البلد عائقًا للمهمة، تبدو عملية ساذجة، لكن هي مَن وقع عليها الاختيارُ هذا العام.

بعد استيقاظي، اتجهت إلى اختيار الشكل الذي سأظهر به في المهمة، واخترت شكلًا يصعب على أحد تخمين انتماء جنسيته لإحدى الجنسيات المتواجدة، شعر مموج وبشرة قوقازية قمحاوية، من ثم حضّرت المعدات اللازمة ووضعتها بحقيبة أستطيع حملها بأكثر من طريقة، اتجهت إلى سطح المبنى، اخترت أربع حمامات وحددت وجهتها وخمنت

حركات الثلاث حمامات الأخريات بعد إطلاقي الرصاصة للحمامة الأولى، الفشل في اصطياد حمامة واحدة يعني نهاية المهمة قبل بدايتها، أغمضت عيني وأطلقت، أبصرت لأجد ثلاث حماماتٍ سقطت، والأخيرة تطير متأرجحةً واضحةً إصابتها، قراري صعب كالسابق، أصابت الرصاصات الحمامات، لكن لم تفتِ الرابعة على الفور، أحسست بموتها لا محالة فأكملت مسار يومي طبيعيًا.

اليوم هو بداية عودة عمل بعض الشركات والمحلات الهامة بعد شهرين من التوقف إثر الحرب، وحتى العودة للحرب بعد المناقشات الدولية، وهذا لضرورة عدم التوقف الكامل لكافة الأعمال إثر حالة الطوارئ، وهذا مفيد لمهمتي، الساعة اقتربت من العاشرة، موعد اندماجي مع الأفراد بالشارع، أمشي لا أثير الشُبهات، أسير مرتديًا ملابس تدل عن كوني موظفًا، بنطالًا من القماش، قميصًا مخططًا، صلعة وسط الرأس وشارب ثقيل، أمشي وسط الجميع دون ملاحظتهم أنهم في خطر الموت بمرافقتهم لي بالشارع ذاته، مُحرّم على أي مَن كان تدقيق النظر إليّ طويلًا، وإذا حدث فسيتبعها مغادرته المفاجئة.

أمشي منتبهًا لبقية العلامات، فلاحظت صوت قطة، التفتُّ فرأيت ذيلًا أسودَ تختفي بقية جسده وراء جدار، أسرعتُ راكضًا، لأرى الذيل يصعد السلالمَ مسرعًا كفهدٍ وراء غزال، حاولت دخول العقار وصعود السلالم، وإذا بحارسه يمنعني:

-إلى أين تذهب يا أستاذ؟

سألته عن رؤيته قطةً سوداءَ مرت، فضحك ضحكةً تدل على عدم تفهمه خزعبلاتي، فأجاب:

-أحسست بقطة لكن لم أنتبه للونها، هل سرقت منك شيئًا؟

ضحك بصوت مستفز كان كفيلًا ليحرك جميع خلايا جسدي لئصمِت جميع تلك الضحكات الساخرة، لكن لا قتلَ في يوم المهمة سوى للرجل المنشود أولًا.

انطلقتُ مُقرِرًا الاستكمال، تمشيت بالشارع المنقوص من البشر، وكلما أقترب من الميدان المنشود، يزداد عدد الأفراد، وصلت إلى الميدان وإذا بالعدد الأكبر مجتمع في منتصفه، هتافات مختلفة تدين التصرفات الخاصة بجيش الحكومة الأكبر بالبلد وتجاوزاتها بالحرب، الكل وراء هدف واحد، لاحظت أذني هتافات بلغات مختلفة حتى أدركت مختلف الطائفات والجنسيات والتوجهات، مفاجأتي بهذه الوقفات يدل على عدم علم الحكومة بها أيضًا واتفاق قائميها بشكل سري، سيعيق هذا التجمع البشري المهمة وموعد انطلاقها، فخططي لهذه المهمة كانت التوجه إلى مبنى وسط المدينة والوصول إلى غرفة بشقة للتستر بها، وإطلاق النار من نافذتها دون الانكشاف، الشقة مقابلة بطريقة غير مباشرة لنافذة الشخص موضع القتل، صعوبة الموقف أثار غروري، فقررت عدم إلغاء المهمة.

الوقت يمر ليقترب من موعد اتمام المهمة، بدأت الاندراج بين المحتجين الهائل عددهم، أخمنه زائدًا عن عشرة آلاف

شخص يملأون المكان بالكامل. وصلت بصعوبة إلى وسط الميدان بالتحديد، نظرت إلى المباني المحيطة حتى تعرفت على البناء الذي يقطن به المطلوب، أجد معظم المباني مفتوحة النوافذ يشاهد ويصور سكانها الأحداث، بغدت نظراتي حتى وصلت إلى نافذة الشخص المنشود، على غير باقي النوافذ أجدها مغلقة، هذا يحمل الكثير من التكهنات، رحيل هذا الشخص عن المكان بحدوث تلك الوقفة، أو إغلاق منافذ شقته للإنزعاج من الأحداث الجارية، أو اشتراكه بالوقفة في الميدان.

عليّ التأكد قبل الوصول إلى وقت الاتمام المثالي عن ما إذا كان الرجل بالمكان أو رحل، خطر ببالي وقوفي بمكان أعلى نسبيًا عن الأرض حتى أبحث بعيني عن الشخص إذا كان موجودًا بالميدان أو ألغي العملية، محاولة ليست بالأفضل لإنقاذ يوم لا يتكرر سوى مرة بالعام، اخترت شخصًا يجانب وقوفي استطعت تخمين لغته من ملامحه، شاركته الهتاف لأبادله الحديث حتى لا ألفت الانتباه بنظرات بحثي، فأقول بذات لغته:

-لقد وصلت متأخرًا بعض الشيء، منذ متى وبدأ العدد في الازدياد؟!

حرك رأسه ناحيتي ثم نظر إليّ وقال:

-المهم هو وصولك، لم يظل الوقوف حتى انضم إلينا هذا العدد، ومن المتوقع زيادة العدد أضعافه، لن تستطيع أفراد

الشرطة إيقاف هذا العدد هذه المرة.

أكمل نظراتي للكثير من الوجوه حتى أتعرف على صاحب عمليتي وانا أبادله الحديث المهمش بالنسبة إليّ:

-أي شرطة بإمكانها إيقاف مثل هذا العدد؟! أتمنى أن يُلفت ذلك أنظار العالم إلينا.

يزداد حماسته بحوارنا ويضيف قائلًا:

-خططت الشرطة بالفعل إيقاف هذا التجمهر منذ ساعتين لكن زيادة العدد أجبرتهم على التراجع والابتعاد، واكتفوا بتدعيم وقفة معاكسة تبعد كيلو مترات من هنا، يهتفون مؤيدين جيش البلد، الحكومة ومواقفها، لن تنقل تلك الوقفة فقط للعالم بل الوقفة الأخرى أيضًا، وسيحاولون تزيف الحقائق كالمعتاد.

لا أرى الرجل، وباقي أقل من عشرين دقيقة على الموعد المثالي، إذا ما مر الوقت سأنهي العملية بكل تأكيد، أحاول إيجاده، لكن كلام الرجل منحني التفكير في إمكانية انضمامه للوقفة الأخرى واللافتات وعدد الموجودين يصّعب على عيني انتقاؤه، حسنًا أظن العملية سثلغى، أضيف قائلًا للرجل حتى أرحل:

-هؤلاء الأوغاد، سينصرنا الله عليهم بكل تأكيد.

أنضم إلى هتاف مع آخرين وأتحرك للانسحاب، الميدان أصبح لا يكفي الأفراد المدمجة كقطرات أمطار سقطت

بوعاء خشبي صغير، بعد قليل سيقف الناس على أكتاف من يجاورهم. انسحابي أصبح بطيء بعض الشي لكثرة الارتطام بأجساد الأفراد، أحاول الخروج أسرع لكن تعطلني الحقيبة التي أمسكها، يصعب مرورها بهدوء بين الأشخاص، طلبت من أحد الأشخاص منحي طريقًا للمرور فنظر إليّ وهو يقول:

-تفضل، آسف.

وإذا ما انتبهت إلى ملامحه، أجده من يحاول بحثي العثور عليه منذ قليل، الرجل الذي يُحتم عليّ قتله بعد ثماني عشرة دقيقة من الآن.

أأكمل المهمة أم أنسحب؟! الظروف جميعها تتلاعب بنجاحي، لكن لم يسبق لي فشل أو إلغاء مهمة قط، إلا إذا أردت الفشل بها قاصدًا حتى أنجح في مهمة أكبر فيما بعد، يبدو عجرستي ستمنعني من الخروج من هذا المكان، وقد كان، أخذت قرار محاولة إنقاذ المهمة، دون ملاحظة، وضعت جهاز شديد الصغر على ظهر الرجل حتى أستطيع تتبع مكانه، من ثم صعدت إلى سطح أعلى بناء بالميدان، أقف على حافت المبنى، أمامي بنايات أخرى تصغر طولًا عن المبنى الذي أنا عليه، تواجهني بناية جدارها مرايا وزجاج، أحاول الوقوف بمكان يمنع رؤيتي من أنظار الباحثين عن الفاعل، لا أجد سوى سور السطح، جهزت المعدات، أبصرت الرجل ومكانه بعدما تتبعته بجهازي، حددت الوجهة وموضع الرصاصة، زِدْ في طريقه للضغط، وإذا بمرايا تتحطم وتسقط من نوافذ العمارة المقابلة.

الطقوس تنهار، عليّ الانسحاب، مرآة مكسورة بصرتُها بوضوح الآن، حاولت الظروف تنبيهي لكن بلا جدوى وأدركت هلاكي بهذه المهمة بعدما فات الأوان. أمر من العقل قد انطلق بتحريك عقلة الإصبع، انطلقت الرصاصة صوبَ الرأس وأنا في كل أجزاء الثانية خائفٌ متوقعٌ الأسوأ، وفجأةً الحمامة المصابة من مصيبها الأعمى تسقط وتصطدم بالرصاصة المُطلَقة، تُغيّر الاتجاه فيُخطئ الهدف الأول بحياتي.

يومٌ عسر وعلامات شؤم كاملة، تحركت خطوتين يسارًا دون انتباه لأقتل الرجل، وإذ بمكاني تكتشفُه سيدة تقف وراء نافذة بالشقة العليا في العمارة المقابلة، صوتها عالٍ تقول:

-وا مصيبتاه، قناصة تقتل المحتجين!

اختلطت الكلمات ببعض الأشياء الملقاة أملًا بإصابتي والعمارتان بعيدتان، لكن كانت الكلمات والحركات كفيلةً لتُحرّك سرب النمل في ميدان المحتجين حركةً عشوائيةً مخيفةً لأمثالي، حرّضتُ السلاح ووجهته لتلك المزعجة، وإذا بصوتٍ خلفي يكسِر باب السطح ويدخل رجلان عجوزان يحملان عصوَيْ كَنَس، وجهتُ السلاح الثقيل صوب أحد الرجلين، لأضغط زناد سلاحٍ فارغٍ، أتذكر عجرفتي بوضع رصاصةٍ واحدةٍ ليقيني من عدم الخطأ. ضربٌ ضعيفٌ فاشلٌ بالعصوَين وأنا ساكنٌ لا أتحرك، مبتسمٌ لهذين الظانَّين إمكانية إلحاق الأذى بتلك الأشياء، وعند إخراجي مسدسًا ركضا كصراصير مدركةٍ المبيد، وجّهت المسدس باتجاه رجل وعند

ضغطي على الزناد إذا بأفراد صعدوا إلى السطح وعددهم يزداد، يلقون بحجارةٍ عملاقةٍ مصيبين أنفي وعيني ويدي كأني قتلت عائلاتهم، الألم والمفاجأة حلحلوا يدي عاليًا وانطلقت الرصاصات في الهواء باحثةً عن حمامات أخريات.

جموع من البشر ينضمون وكأن غُير مكان التجمهر إلى سطح المبنى والكل يقترب ليحاول الضرب أو الإمساك فينجح بعضهم، وأبعد بعضهم حتى زاد العدد المحاول واعتلى جسدي ويضرب من استطاع في المكان الذي يصل إليه، الكثير من هم يتفاعلون بشكلٍ عشوائيٍ وأنا كأسدٍ وحيدٍ أسفل قطيع ثيران، دفعث بقوةٍ مَن حولي وحددت طريقة هروبي بالقفز من أعلى السطح مستخدمًا حبل النجاة حول خصري الذي جهزته لحالة الطوارئ والقفز نحو أي من الطوابق الأخرى، قفزت وفي طريقي إلى أسفل تمزق البنطال وملابسي التحتية، أسرعت ممسكًا بالحبل وسقط بنطالي الممزق وأصبحت نصفَ عارٍ في الهواء متوسط الطريق بين السطح والميدان مبصرًا من الأعلى ملائكة العذاب، ومن أسفلي شياطين الجحيم.

***

كانت تحاول الظروف منعي بطقوس غير مكتملة لكني ظننت اقترابها من الاكتمال مما أزال الشك وأمحاه بالكامل عجرستي المتسببة بموقفي الحالي، ما زلت معلقًا بمكاني، رجلي مثبتة بالحبل ويداي ملتفة حوله لكن ما الجدوى فعقاب قاسٍ في طريقه إليّ، شعرت بتحرك الحبل إلى أسفل.

أصبحت طعمًا متشبثًا بخطاف صياد يهوي صنارته إلى بحيرة أسماك الضاري المفترسة، اقترب جسدي من البشر الهاتفين أسفلي، جميعهم في حالة استعداد لاستقبالي، الكل لا ينوي الخير، التهليلات والصرخات وحدها يقشعر لها البدن، فما البال بخططهم عند وصولي؟! تصرف منطقي من أناس تيقنوا من وجود من يحاول قتلهم، من هدد حياتهم في غضبهم بسبب آثار الحرب، ومن المتوقع توجيه كل طاقات اهتِيَاجهم المختذلة تجاهي الآن، فأنا العدو الأوحد والخطر الواضح.

أفكر بوقت لا يسمح، إذ كانت طقوسي انهارت، ونجاحي الحتمي المعتاد تدمر، فالمعنى الوحيد لتلك الأحداث هو اقتراب الموت الذي حذرت منه بمثل هذا اليوم، أيادٍ تلامس قدمي وجسدي حتى الوصول إلى الأرض، بعض الأيدي تضرِب ولا يفيد دفع الأذرع المتزايدة من تجنب الآلام، أحاول مرة أخرى أن أبعد البشر دون الدخول في معركة خاسرة -وأنا بدون سروال حتى- مع جموع جيشٍ على أتم استعداد لتقديم كل أنواع الألم إلى كافة المناطق، تحاوطني أجساد المحتجين بشكل دائري، أتوسطهم أرضًا، وإلى الآن ضربهم ومعاملتهم العنيفة يمكن استيعابه، إلى أن بدأ شخص عن يميني برفع ذراعه بشكل فج وأنزلها على فكي، لم أشعر بذاتي إلا وأنا أضرب من أمامي بكل ما أحمل من قوة بلكمة بوجهه وكانت تلك بداية لممارسة الملاكمة المشروعة لكل الحاضرين بجسدي، أتلقى الضربات من كل الاتجاهات وفي

مُجمع الأماكن حتى تصل قدرة تحملي إلى الانهيار، فتسقط ذراعي مرتمية على الأرض.

وسط صرخات الغضب والكلام المتداخل واللهجات المختلفة واللغات غير المتشابهة، جمّع عقلي من كل هذا شكوك الموجودين من كوني أحد أفراد الحكومة ومن خطورة إصابتي بضرر، وقال صوت لم انتبه لقائله من شدة آلام جسدي:

-فلنأخذه إلى قبو مجاور قبل وصول الشرطة ليكون دليلًا نثبت به للعالم جرائم هذه الدولة.

تدل كل الردود المختلفة على الموافقة على هذا الاقتراح، يسحبون جثتي من قدمها، أجرّ لمكان لا أعلم مدى ابتعاده عني، أحاول فتح أجفاني المغلقة إثر الضرب، لأنتبه إلى امرأة من ظهرها، آلف هذا المشهد، هذا كابوسي المتكرر يتحقق بالحياة الواقعية، تشابه شعر المرأة وهيئتها من ظهرها هو ما أثار ذاكرتي للتفكير واقتناء الحلم من عقلي لإفكر به الآن في وقت ليس بالمناسب. أهي؟ الآن وأنا بلباس داخليّ في هذا اليوم العَسِر؟! يا لسخرية الموقف! ويا لبؤسي إن كانت هي!

لم أتلقَّ في حياتي هذا الألم، كل مكان في جسدي يحمل ما لا يقل عن بصمة أربعة أشخاص، الدماء تجلطت والأورام كالرسوم المتحركة والعديد من العلامات ستكون مستديمة، تركوني دون بنطال ووضعوني في قبو داخل أحد المباني معلق من قدميّ ورأسي ترافق يدي مدلاتين لأسفل. تورمت

عيني اليسرى أثر لكمات، لكن سمح لي الألم من الرؤية بالأخرى. ثرثرةٌ من خمسة أشخاص، كلام لا أفهم منه الكثير بسبب تداخُله مع غيره لكنه لتحديد مصيري.

جاءت الأنثى التي رأيتها خارجًا تُحدث الرجال بلكنة الأمر، لم أرَها لوجودها في مسار رؤية العين المتورمة ولا أقدر على تحريك رقبتي. تتجه حولي وللحظة ظننتها ستفكُّ وثاقي، الظن قُطِع بوابلٍ من ضربات يديها لجسدي والكثير من الشتائم المحرمة باللغة القديمة للبلد، ما إن اقتربت ولمستني ما إن تأكدت أنها المرأة المنشودة.

أحسستها هدأت، حتى وضعت كرسيًا أمامي، جلسَت عليه كجلستها على الحصان بطريقة عكسية وظَهر الكرسي أمامي، وبرقبةٍ مدلدلةٍ أخذت أبصرُها برفع عيني من أسفل إلى أعلى، أخيرًا سأطلع على وجهها، جسدٌ متناسقٌ وملابس رجل وعينا حور ووجهٌ يريد معرفة أي طريقة سأتألم بها أكثر حتى الموت.

لم أقابل مثلها ولن أقابل، دخولها بشكلٍ قيادي هيأها لتتعامل مع الجميع كأطفالها والجميع يريد فقط إرضاء أُمّه، كلام وأحكام وانتفاضات على الجميع تظهرها كقائد حرب يخسر الكثير من جيوشه. وسط التفكير تخيلتها بين أحضان ذراعيّ نرقص وسط مدينة مُطِلة على النهر ليلًا، نشرب الكثير من الخمر ونرى نجوم السماء تتأهب لصعودنا، لا شك كونها هي، الأنثى التي لا أريد إصابتها بمكروه، أريدها حية.

إحساسان متداخلان متناقضان، الشعور بنشوة اللقاء المنتظر سنوات، والغضب لما تعرضت له، يزداد امتعاضي كلما تخيلت شكلي المهان أمام من رغبت في مقابلتها بشخصيتي غير المزيفة وبهيئتي الملفتة، وما تأكدت كونها الفتاة، ظهر اضطرابي، انفعالي، سخطي وغيظي الذي لم يظهر مع ما تعرضت له منذ قليل، فاستغرب الحاضرون بالقبو من تصرفي غير المفهوم، من ما استحدث ظهوره، فقال أحد الرجال الموجودين موجهًا الكلام للأنثى الوحيدة:

-زاد غضبه بسبب ضربك له، هو لا يحب ملامسة النساء؟

وأضاف بعض ابتسامات السخرية، فقلت بغضب وانفعال عظيم -بذات اللغة القديمة- كلام داخلي ظهر بسبب اضطرابات كل الأحداث:

-الآن؟! تظهرين الآن؟! لقد انتظرتك لأكثر من ثلاثة عشر عامًا، وتظهرين وأنا بهذه الوضعية؟

هدوء ناتج من عدم فهم ما قلت ومن تحدثي بهذه اللغة وتلك اللكنة، قال أحدهم:

-يبدو أنه من السكان الأصليين.

ثم أضافت هي:

-بل هو دخيل من قبل الدولة، تواجدنا هنا كُشف بظهور هذا المحترف بالميدان، أريد من أحدكم إبلاغ المقاومة بضرورة الانسحاب، وعدم تنفيذ أي من الخطط.

كلام بينهم غير مفهوم ولا يهم، كل ما أريده الآن هو قتل كل الموجودين وأخذ تلك الفتاة لعشاء ليلي، تقترب الفتاة مني مرة أخرى، ثم توجه سؤالًا:

-كم عدد من يرافقك بالمكان؟ وكم من الوقت يتبقى حتى تدخُلهم؟

ثم تتحول طريقة الكلام الهادئة إلى غضب مفرط يتحكم بقدمها فتضربني بركلات متوجهة إلى رأسي المقترب من الأرض فتصيب القدم موضع صلعة الرأس المزورة، يمسك أحد الرجال بالأنثى، حتى لا تستمر في ضربي، أقول ردًا على كلامها:

-أنا لست جاسوسًا، أنا فقط شخص يريد مرافقتك إلى العشاء.

استغراب الجميع من السؤال الموجه يدفع أحد الرجال ليسأل الأنثى:

-أتعرفين هذا الشخص؟

تنظر إليه مستنكرة السؤال، من ثم تقول:

-لم أره بحياتي، ما يقوله يبدو عليه شفرة من نوع خاص، كلامه يُؤكد صفته أكثر.

وإكمالًا للمجريات يتزامن انتهاء كلامها من انفكاك صلعة الرأس، فتسقط مبينة شعري، من ثم تقول:

-جاسوس حقير

تتحرك أسرع من ذي قبل وأمرت رجالها:

-فليحضره أحدكم ونسرع بالرحيل، أفراد الشرطة يقترب تدخلهم بعد هذا الحدث، ونريد الفوز بأسير على الأقل بعدما خرّبت الخطط.

ما إن انتهت أدارت ظهرها وقطع أحد الرجال الحبل حول قدمي فسقطت أرضًا، وبدأ صوت غريب ومزعج ينم عن صرخات الأفراد بالميدان، أصوات تمنح ظنًا كون هذا يوم الحساب، حتى قال أحد الأصوات بطريقة واضحة الإجابة عن التساؤل ببالي:

-لقد ولجت الشرطة بالميدان لفض التجمع.

تحركات هي أسرع من سابقتها، الجميع في عجالة يتصرف مساعدين بعضهم، وما ألحظه أنا هو ظهر المرأة وتحركاتها للهروب من القبو التي تشبه بحدٍ كبير كابوسي باندلاع نار الموقد وهروب زوجتي من المنزل، أنا بكل تأكيد بالمكان المناسب الذي طال الارتقاب للتواجد به.

يُلقى في مدخل القبو قنبلة غاز، مما يحتم على الرجل رفقتي تركي حتى يُحافظ على أنفاسه، فأخطف السكين من الأرض وأفك وثاقي، يدخل رجال شرطة بالمكان وعلى وجوههم القناع الواقي من الدخان مهاجمين من يتواجد، يتعامل معه رجال القبو بصعوبة بسبب الدخان، انتشر ضباب الغاز ليحجُب معظم المشاهد والرؤية بالقبو، أستجمع ما تبقى من قدرة وأحافظ على كتم أنفاسي مع وضع يدي على أنفي

وفمي، أحاول الوقوف على كرسي لأبحث عن المرأة، الرؤية تبدو مستحيلة، يُلقى بالجوار أحد أفراد الشرطة، أنزع من وجهه القناع وأرتديه قبل وصول أحد الرجال رفقة السيدة إلي جسد الشرطي، يحاول نزع القناع من وجهي، أركله بقدمي في موضع ذكورته، من ثم بوجهه لكمة أخرى تسقطه أرضًا، أستطيع الرؤية بالوقت الحالي، لا أثر للسيدة يبدو أنها قد أخذت من أفراد الشرطة.

عدت بالميدان بدون بنطالي، هرج وفوضى، الجميع في معركة الكل يتعرض للضرب، ورجال الشرطة كُثر، إن يختارُوا ضحيةً لا يتركوها حتى تشبع من النطح. الشعور الذي يدفعني للهرب يقول: «هذه ليست معركتك، الوقت ملائم تمامًا لتشق طريقك بالخروج من هذا اليوم العسر بكل أحداثه»، لكن عندما بصرت السيدة أُعِيقت أنانيتي، شيءٌ من المسئولية منحني قوةً وأنا في أضعف حالاتي لأتوجه نحوها حين إمساك أحد أفراد الشرطة بها، صرت حارسًا شخصيًا يزاحم الجميع ويحارب حتى أنقذ الأميرة، أصل إلى الشرطي مدير الظهر أضربه في أسفل رقبته بموضع أجبر يده على إفلات السيدة، أسحب المرأة وأحركها وراء ظهري، تنتبه هي إليّ وظنّها أني أحد الأعداء أجبرها على ضربي بعمودي الفقري، مما دفعني خطوتين إلى الأمام فاسقط على وجهي، أستعيد وقوفي لأُبصر فرد شرطة آخر يحاول ضربها وسحبها معه، أنزع القناع بعدما أيقنت عدم امتلاك أي سلاح، وألقيه على من أمسكها، يلتفت إليّ ويخرج مسدسًا من خصره

ولكني أسبقه بحركة سريعة من قدمي تضرب قفصه الصدري يسقط ملقي السلاح، أمسكه، أخيرًا عدت إلى اللعبة.

بصرتْ السيدة أنقاذي لها من الشرطيّ، لامست عيناها عينيّ بنظرة فارقة تتحدى التوقيت والموقف، نظرة سلبت كل تركيزي وأجبرت انتباهي على الخضوع، أحسبها بداية التعرف، بداية لها لتتأكد من عدم حمل أي ضرر لها، بل إمكان مقاتلة العالم أجمع حتى أنعم بها. سرعان ما ظهر اثنان سحباني بعيدًا، وثلاثة آخرون اختطفوها، رفست أحد ماسِكيّ بين قدميه، والآخر نطحتْ رأسه برأسي، عدلت المسدس ووجهته إلى قلب من نطحت، الزناد ما زال يعاند، ماذا يجري لا أستطيع قتل من أريد قتله، يرفض الرصاص الانطلاق، ألُعِنت بعدم القتل؟! أفاق الآخر ليوجه إليّ ركلةً في أحد الأضلاع، أمسكتْ قدمه وأسقطته أرضًا وأعدتْ زر الأمان، وجهت المسدس صوب رأس المُلقى وضغطت الزناد، وأخيرًا الرصاصة تنطلق لكن ينهض فتصيبه في كتفه. لا أفهم لماذا لا يموت شخصٌ أودُّ قتله هذا اليوم؟! نهض الثاني ليركلني في وجهي ثم وقف برجليه على يدي الممسكة السلاح، أعدت عدل كفيّ لأضع رصاصةً في مؤخرته، فسقط. وجهتُ المسدس إلى رأسه ليُعاد زر الأمان بقوة خفية. شعرتُ بفهمي للمعضلة، لا يمكنني إصابة موضع مميت بالجسد، لكن عندما انوي ضرب مكان أخر تنطلق الرصاصة، حركت يدي نحو كتف أحد الرجال الممسكين بالفتاة، عاد زر الأمان وانطلقت الرصاصة نحو كتف الرجل، أطلقت الرصاص نحو

الرجال المحيطين بالفتاة في أماكن ليست كافيةً لقتلهم، أصبحت حرة وركضت مع أحد رفقائها بعيدًا. رجال الشرطة يتزايدون ويطلقون النار في كل مكان، لأهرب أنا فوق دراجة نارية أسير بها إلى اللا مكان وهم يلاحقونني بلا ملل كأن الحرب انقلبت ضدي فقط.

حرارة حارقة من شمس عمودية، أسير في الطرقات مارًا بضواحي وشوارع عدة لأضللهم، وسط أصوات أذان صلاة أصلُ إلى شارعٍ ضيقٍ، أرى السيارات التي تلاحقني قلّت إلى واحدة، باستخدام مرايا الدراجة حددتُ وجِهة ماسورة المسدس إلى كتف السائق لأطلق آخر رصاصة وتصيبه، وأخذت السيارة مسارها المجنون نحو اصطدام حتمي. في فرحةٍ أزيد سرعتي ليأتي الحظ العسر مرةً أخرى في هيئة رجلٍ عجوزٍ يعبر الطريق، أحاول تجنب الحادثة لكن تأخرت، أصبت الرجل أسفل فخذيه وطرتُ أنا فاقدًا الدراجة في السماء، يصاحبني صوت الأذان إلى الأرض، صافرةٌ مزعجةٌ لا يسمعها غيري وصوت العجوز يداعب الوعي قليلًا وهو يقول:

-هل أصبت؟

لأرد أنا:

-لمَ كنت تعبر الطريق الآن؟

ليجيب هو بسؤال:

-ماذا تقصد؟

بلاهةٌ زادت غضبي فأصررتُ على سؤاله:

-ألم يكُنْ من العقل النظر إلى يمينك ويسارك قبل العبور إلى الجانب الآخر؟!

أريدُ قتله الآن وبشدة، لقد ذكرني بحادثة عائلتي. يجيبُ على سؤالي الأخير:

-أنتَ من كنت مسرعًا قليلًا وتلك المنطقة لا...

لم أدعه يكمل كلامه المستفز، أخرجت المسدس وأعلم أنه فارغ، رؤيته خائفًا سترضيني قليلًا، وجهت المسدس تجاه رأسه وضغطت على الزناد بيأس، وإذا برأسه ينفجر! أسقطَتِ اللعنةُ عني مع سقوطي من الدراجة؟! لم تدم الفكرة كثيرًا حين رأيت رأسه متفجرًا من الخلف ورجال الشرطة يطلقون الرصاص ليصيبني، سابقت الزمن حتى آخذ بنطال العجوز قبل فراري من الرصاصات، انجح من ثم اختبئ سريعًا وراء الجدار الذي ارتطمت به السيارة، قبل الهرب ارتدي البنطال فتركت المسدس الفارغ على الأرض جواري، أثناء ارتدائي إياه تحسست جسم غريب مثبت بلباسي الداخلي مثبت بشكلٍ جيدٍ تمامًا، من ملامستي إياه علمت كونه جهاز تعقب بدائي وضع أثناء فقداني للوعي وأنا بالقبو، أحول نزعه دون قطع السروال الداخلي خاصتي، وبالأثناء قبل نزع للجهاز إذا بذراع تخرج من داخل المكان المنسد بالسيارة المصطدمة خلال فتحة ضيقة تحاول لمسي ويبدو عليها الغضب، لا أفهم ما الذي فعلته لتلك الذراع، أقتلت جسدها؟! أنا ملعون الآن

أيتها الذراع لا أقدر على القتل، لِمَ كل ما في العالم الآن يريد إيذائي؟! ما زالت تحاول الوصول إلى جسدي رغم ابتعادي عنها كأني أنا محررها وسجّانها، طريقة إصرارها للمسي ضايقتني إلى حد بعيد، وبات عليّ رد فعل لمحاولتها غير المفهومة، أنا لا أملك سلاحًا، فبات استخدام أسناني ذكاء، اقترب وجهي من كفها وأمسكت الأصابع بإحكام وغرزت أسناني على ساعدها، أعض وكأنها شطيرة. ظلّت أسناني ممسكة بالذراع حتى أتت عصيٌ كهربائيةٌ من حيث لا أدري تُحسِن الضرب وتفقدني الوعي.

***

لونٌ أسود أعتدت عليه كما الأعمى ناتج من عين لا تلقى الضوء، غمامة تغطي رأسي بأكمله، أفيق مُلثمًا ومقيدًا محكومًا بجلسة على كرسي معدني قاسٍ، آثار جانبية لمخدر واضح تناوله جسدي إجبارًا من خاطفيه، أجلس دون الكلام حتى وعيت بالكامل، لا أتحرك حفاظًا علي ثباتي، الجلوس سالمًا حتى الآن بعد كل من أصبت بالميدان يعني تمهيدًا لحوار سيبدأ، والأهم في أي حوار هو الثبات، ألّا يشعر من يبادلك الحديث ببوادر قلق. مرت عشر دقائق منذ إفاقتي الهادئة، لم أحرك عقلة أصبع ولم يصدر صوت لأنفاسي، أخمن وجود أحد يجلس أمامي، حاولت اختطاف أحد الأصوات الطبيعية لأي شخص يقربني لكن دون جدوى، ما أسمعه هو أصوات أجهزة كثيرة وكتابة على أجهزة حاسوب، صوت أنظمة أمنية ومعدات قيادة حربية أعلمها جيدًا، ما

زال تخميني موضع ثقة بتواجد شخص ينتظر مللي أو بدء الحوار من جانبي بسؤال عن مكان تواجدي، خطر ببالي تحريك إصبع من يدي اليمنى، إذا كان المحاور على علم بشخصيتي المزيفة، سيفهم تلك الإشارة، سيتعرف حينها على استفاقتي، أحرك يدي، أسمع صوت تحرك أحد ونهوضه متوجهًا إليّ، ينزع عني غطاء الرأس الأسود، لا أعطي مجالًا للضوء الساخط والإنارة الفائقة بهدم ثباتي، أذ أبقيت عيني مغلقة لمدة تقارب الدقيقتين، أفتحها على محطات ولكل محطة مدة حتى تنسجم الرؤية مع الكم الهائل من الإنارة.

أبصر الغرفة، ذات مساحة شاسعة بها الكثير من أجهزة القيادة الحربية المتطورة والحديثة تنم عن مركز قيادة جيش احترافي، كم هائل من الكراسي يجلس عليها أفراد جيش يعملون كالآلات ولا يصدرون صوتًا، كل من بالمكان يعلم مهمته وينفذها دون حركات عشوائية، أستطيع تخمين المكان بحكم الخبرة، على الأرجح قبو أسفل الأرض بمسافة ليست بالهينة، يجلس أمامي شخص نتوسط بجلستنا المتقابلة المساحة الشاسعة، هيئة تلاعب عمر الخمسين عامًا، لا ينظر إلينا أحد، وكأننا بمفردنا. بعد التدقيق أتعرف عن من يجلس أمامي بالبذلةِ الحربية الدالة على منصب قيادي أكبر من ظني البسيط -نائب وزير دفاع- ينفس زفيره الأسود من روحه الحقيرة المطلع عليها سابقًا.

أبدًا لا أنسى الشخصيات المزعجة، منذ حوالي أربعة أعوام، كان موعد تغيير إحدى شخصيات القيادة -بمقر من الأربعة

بتلك المنطقة- في منظمتي، تقدم هذا الرجل أمامي حينها لشغل ذلك المنصب وزُشح من خلال أحد القتلة من الفئة الأولى، علِمنا بخلفيته العسكرية، فأمعنا البحث لنجد تقدمه للوظيفة ما كان سوى خطوة وفق خطة أولها الانضمام إلينا، هو في الحقيقة أحد أفراد جهازٍ استخباري لدولة ترغب في إدارة منظمتي بشكل يتوافق مع مصالحها الخاصة، مخطط للاستيلاء على كافة المعلومات التي تخص مركز قيادتنا السري ويتعرف على كل القتلة من موظفينا بمقر تلك المنطقة، وبعد توصّلنا لتلك المعلومات استبعدنا فكرة قتله لتعارضها مع اتفاق أُجري مع ذات الدولة منذ أعوام، اكتفى مجلس قيادة المنظمة الأعلى -أنا- برفضه، واعتبرنا تلك المحاولة سذاجة منهم، بعدما رُفض تأكدت الدولة وجهازها الاستخباري بانكشاف شخصية ذلك الرجل وأمرته بالتراجع، مما أدي إلى سخطه فقتل أحد أهم موظيفينا بالمنطقة، ولذات السبب السابق استبعدنا فكرة قتله ردًا على حركته، فاكتفينا بالتسبب في شَل أخيه وزوجته عن الحراك ففهم اللعبة وقرر التراجع.

يا للسخرية! أجلس أمامه يجهل هويتي، يحسبني مجرد قاتل بتلك المنظمة، وفي يومي العسر، يوم انطلاق لعنتي وتحقق نبؤتي. أزغم بناءً عن هدوء موقفي وجلوسي معه مباشرة -بعدما ترقى لهذا المنصب- بتخمينه كالطالب المباشر لتلك المهمة. يطول الصمت من جهته وهو يجلس بنظراته الحادة المتوجهة لأنظاري المتأهبة. ينهض في لحظة ويتجه

إليّ، يفك وثاقي فأعود غير مكبل، يلتف ليجلس بمكانه السابق ثم يقول:

-أليس بمنظمتكم قاعدة تمنح لأي من الطالبين أحقيةِ قتل من يفشل منكم في مهمته؟

تحدث باللغة المستحدثة على البلد. لا أتحرك وكأني ما زلت مكبل، أقول ونظرتي إليه لا يعكرها من عيني غلق وبذات لغته ولكنته:

-شخص بمكانتك لا يغفل عن بقية القاعدة؛ «مع ضرورة صحة المعلومات الممنوحة للقاتل». أكد من طلب هذه المهمة، طبيعية الأحداث في الوقت المحدد للإتمام، لم يُذكر أي شيء عن وقفات احتجاجية، أو حالة استثنائية تحتاج إلى تحضيرات مختلفة.

يستنكر ما قلت بقولٍ ماكر لإبعاد الخطأ من جهته:

-ألست محترفًا من الفئة الأولى؟

أنكر قوله برد أكثر منطقية:

-لا تحاول إخفاء فشلك باحترافيتي.

يأخذ نفسًا ليس بالطويل ينم عن تفكيره قبل اقتناء الكلمات، ثم يضيف:

-يُمكن دائمًا إخفاء الأخطاء من الجهة الأقوى بقليل من الانتصارات، فقط إذا قمنا بقتل الشخص الذي طلبنا منك قتله، ومع ذات الظروف التي منعتك، مع إخفاء هويتنا كجهة

منفذة. لكن ربما حياتك مربحة أكثر إذا قبلت بمهام إضافية، دون الرجوع للمنظمة.

من المهم عند دخولك نزاع حواري، ادرك موقعك ومدى قوة من تواجه، متى تستمر ومتى تحاول إدعاء الخضوع لرغبات لا تناسبك كخطوة من خطة فوز مؤجل، هذا ما دفعني لأقول معبرًا عن قبولي:

-أريد تغيير ملابسي.

ينهض من كرسيه ويذهب إلى آخر الغرفة الشاسعة يرافق أحد الجنود على جهازه ويتزامن دخول بعض من مساعديه من الجنسين، لا أنهض، يغيرون ملابسي بعضهم والآخرون يداوون الجراح المتسبب بها اليوم، أشك بإبرة ثنفذ منشطًا يتسبب بتخفيف الآلام للأماكن المتعرضة للضرب ويمنحني طاقة مضاعفة، فردين يغيران ملابسي ويلقيان بالأخرى الممزقة بسلة القمامة. بدلة انيقة تناسبني وسترة ضد الرصاص -الأكثر احتياجًا بتلك الفترة- عادت بعض ملامحي غير المزيفة بعدما أزيلت المستحضرات وصلعة الرأس، أنيق، ملفت، أود البحث عنها، تلك الهيئة المفترض رؤيتي بها، كل ما علي خداع نائب وزير الدفاع بتنفيذي لبعض الأعمال حتى يتسنى لي البحث عنها، ولن أرحل من تلك البلد إلا وهي برفقتي.

لم يُثار بمخيلتي التفكير حول ما سيطلبه هذا الرجل، أعلمه جيدًا بعدما حللت شخصيته سابقًا، فهو ليس سوى ممثل

أفلام عراة مُنح له تقدير زائد، وظيفة مؤثرة وبجيش قوي بالعالم. كل ما يشغل بالي بهذا الوقت ارتباط ما يطلبه بالقتل، سيتطلب حينها كسر لعنة عدم القتل خاصتي، ولا فكرة لدي كيف أزيلها، تتأكد شكوكي باقتراب أحد مساعديه ويعطيني سلاحًا رشاشًا آليًا -به عدسة تقريب- ومسدسًا آليًا، آخذ منه المسدس أنزع خزانته، أتأكد من الحشو الكامل للرصاص، ومن ثم أتأكد من زر الأمان لأزيله ويصبح المسدس جاهزًا للإطلاق، ولأتأكد ما إذا كانت اللعنة ملتصقة أم خررت، أوجه المسدس إلى رأس المساعد، ينظر إليّ بخوف، أضغط الزناد لكن دون جدوى، ما زلت ملعونًا، أوجه له خبرًا يحمل استعجاب:

-لا يعمل.

يتقدم إليّ بخطوة يأخذ السلاح من يدي ثم يقول:

-تأكد من زر الأمان يا سيدي. أعتقد سيعمل الآن.

يتأكد من إزالة زر الأمان الذي قد أزلته بالفعل، من ثم يعطيني السلاح مجددًا، وتتغير ملامح وجهه بعدها ليفهم ما كنت أنوي إليه ثم يقول:

-أنت لم تكن تعلم بإغلاق زر الأمان، كنت تحاول قتلي؟!.

لا أنتبه لكلماته، أعيد استخدامه كفأر تجارب، بمحاولة بائسة أوجه المسدس لرأسه، أضغط الزناد لا تذهب الرصاصة، ثم أوجه الرصاص إلى الأرض وأضغط الزناد فتنطلق الرصاصة، وأقول له:

-لا تخف أجرب السلاح، أنت بحربٍ يا فتى، يمكنك الموت بأي وقت حتى ولو كنت بأكثر الأماكن تحصنًا وسرية.

يعود الرجّل بخطوات سريعة وهيئته الجدية مقتربًا مني وهو يسأل:

-لِمَ أخطأت هدفك اليوم؟ ولِمَ كنت تهاجم أفراد الشرطة دفاعًا عن إحدى الإناث؟

لست بحاجة لإقناعه بإجابات منطقية تؤكد اختياري لصفه بالمعركة، أكره الإندراج نحو هواجس شك الرجال فاقدي الثقة. أقول وأنا بذات ثباتي وبنبرة حادة:

-لست مضطرًا للإجابة عن تلك الأسئلة، لست أسير حرب، يمكنك طلب مهام لا طرح تساؤلات.

معالم حادة وبوادر غضب داخلي تتجه للخروج، يقول بصوت يعلو تدريجيًا:

-أنت لست مدركًا طبيعة موقفك هنا، يمكن تغيير رأيي بجزء من الثانية والحلول البديلة جاهزة للتدخل.

يقرّب وجهه إلى وجهي حتى ظننت بإمكانيته تقبيلي، وقال بطريقة تهديدية وصوت هادئ:

-هنا أنا المتحكم، إجابات إذا سمحت.

من الذكاء عندما لا تملك القدرة على قتل من يهددك، تخفي شجاعتك، تظهر خوفك -الذي يتوقعه- بطريقة مزيفة، حتى

يشعر من يرغب بالتحكم كونه مسيطرًا، مؤقتًا:

-طائر.

يعود للوراء بنظرة عين متعجبة، مستفهمة، ولسان طرح الكلمة بشكل مختلف:

-طائر؟

أوضح بطريقة مملة لشخص يجبره عمله فهم التفاصيل:

-طائر ساقط من مسافة عالية غير مسار الرصاصة.

يبتسم ابتسامة دالة على الاستهزاء من الكلام بكل صوره، إذا كنت أسخر من سؤاله، أو إذا كانت تلك الحقيقة، وبالأثناء، يتدخل أحد الجالسين بالجهاز ثم يخبره بكلام بأذنيه أفشل في التركيز في حروفه. يشير له بيده بطريقة يعلمون معناها من ثم يعود إلي جهازه، ويغير النائب موضوعه قائلًا لي:

-لا نملك وقتًا، ربما كان دفاعك عن السيدة محض تفاجؤ، أو صدفة، أو تخطيط ومشاعر ظهرت بوقتٍ خاطئ، تلك السيدة التي تأكدنا اندماجها مع منظمة المقاومة! حسنًا لن استسلم إلى ظني وأحكم شكوكي فتصير واحدًا منهم بخيالي، لكن بعدما كشفنا رقاقة موضوعة بملابسك الداخلية تُعطي الموقع لواضعها، إذ ربما قدومهم هنا من أجلك بات شيئًا يؤكد هذا الإحساس الداخلي، لكني لا، لن استسلم لهذا الظن الضعيف، فأنت قاتل بالفئة الأولى.

كلامه يحمل اتهامات واضحة بطريقة ساخرة، لذا فأدركت

أن المهمة التي سيمنحني إياها لن تكون لمصلحته، بل هي لمصلحتي حتى أنفي اتهامه بتآمري مع أفراد المقاومة. يقترب من أحد الأجهزة وجالسها، ويأخذ من أمامه ورقة ويقول:

-إلا إذا كانت المنظمة هي التي تدعم المقاومة، إحساس آخر. لكن أنا في طريقي للتأكد من كليهما.

تنطلق صافرات إنذار، ويقول أحد الجنود بمكبر صوت: «لقد وصلوا، على الجميع التحرك إلى أعلى». يحرك الرجل جسده ليراني مجددًا ثم يقول بعدما منحني جهاز لاسلكي:

-سأتواصل معك من خلال هذا، معك أسلحة ككل الجنود، حاول ألّا يُعيقك تلك المرة أحد الطيور وتوخى الحذر فأنا لم آمر جنودي بتجنب إطلاق النار عليك بوسط الميدان.

يُفتح باب الغرفة، خرجت متوجهًا إلى أعلى رفقة الجنود المسلحين، لا أعلم ما إذا كانت تلك السيدة بالخارج بالفعل، أم هم آخرون غيرها. لا تكوني بتلك السذاجة لتختاري مواجهة من لا تستطيعين مبادلته ذات القوة، أصعد الكثير من السلالم رفقة الجنود وأفراد الجيش بتحركات هي الأسرع، كلما رافقني أحدهم يُلقي إليّ عينه بتركيز، لا يفهمون اختلافي ولا تتقبل شخصياتهم دخيلًا، يعيد إليهم عقلي النظر بالتفكير عن عدم تساوي الكفتين، تتميزون عني بقدرتكم على القتل، لا تشغلوا البال سوى إنقاذ حيواتكم اللا قيمة لها، وأنا لا تكفيني خطوات الصعود للاختيار، أأنقذ

ذاتي، أم سأسعى لمواصلة إنقاذ المرأة؟

وصلنا من القبو إلى المساحة الأرضية المساوية للخارج نخرج من مدخل سري محكم الخفاء إلى داخل المبنى، ألاحظ على جدرانه مسميات دالة عن كونه بناء للشرطة أدرج به مقر سري للقيادة وأندمجت قوات الجيش بالمكان. قبل الخروج من البناية يبدو من زجاج الأبواب هدوء الأوضاع، لم تبدأ المعركة بعد، من يرافقونني من الجنود يتحدثون مع جنود الإخبار عن أماكن السيارات المقتحمة خلف أسوار المبنى، طلقات رصاص من جنود بالأدوار العليا وأخرى من خلف الأسوار منطلقة من مقتحمين غير ظاهرين بعد، يتوجه بعض الجنود من الأبوب للخارج، تُلقى أمام الأبواب ثلاث قنابل سريعة الانفجار، ينطلق بارودها ناثرًا أشلاء ضحايا من يرافق مكان الإلقاء، تمنح القنابل قوة كافية لتفتيت جزيئات زجاج المداخل مما يدفعني للاحتماء بأحد الجدران الخرسانية بالداخل لتقييم الوضع والمكان المناسب لهجومي. ما يشغل بالي بهذا الوقت غير المناسب هو التحدي الواضح من قلة تواجه كيانًا يجهلون تحضيراتهم وقوتهم وكل هذا لأسباب لا تبدو عقلانية، ما ببال هؤلاء المهاجمين! إذا ما أرادوا مهاجمة قيادة قاهرة فموتهم لا محالة له.

تتزايد أصوات الطلقات من أسلحةٍ مختلفة من الجهتين، لم تنطلق من أسلحتي واحدة، أمكث وراء الجدار جالسًا لأضع الخطةَ المناسبة، حركاتي مقيدة بلعنة غبية والمكان والتوقيت غير ملائم لها. يتحدى غروري العوائق ويدفع

تفكيري للحراك وإطلاق النيران بالطريقة المتقنة ذاتها، لكن أحداثي السابقة باليوم تمنعني من المجازفة، تعيق ثقتي وتوجيهاتي المصيبة دائمًا، لأول مرة أتردد، أقلق، أجهل الخطة المناسبة وأشك بخططي ونجاحها، تتلخلخ قدراتي هائبة الوضع، يُعيق تفكيري المبالغ صوت عن يميني يعلو أصوات رصاص صادر من أحد الجنود، لا يتضح منه كلام سوى حركات تدل على أمر بالتحرك، أتجاهل النظر إليه وتعود رأسي من التفافها لمواصلة التفكير وسط أصوات الأسلحة والقنابل الملقاة في كل مكان، يفرط حركة ذراعيه ليلفت انتباهي مجددًا، أتجاهله مرةً أخرى، أجد رصاصة ألقيت على الجدار فوق كتفي الأيمن، يُلامس صداها أذني، وتصيب شظاياها ذقني دون ضررٍ جسيم، تحرك انتباهي فأنظر إليه لأجده مستمرًا بإصدار أوامر بالتوجه خارجًا، أوجه إليه سلاحي أطلق أربعة رصاصات تصيب قدميه وكتفيه، يُلقى أرضًا دون وجود أحد الجنود بالجوار يلاحظ. لا يحتم عليّ وضع خطة مناسبة وأنا بذات الظروف أظن الارتجال هو الأفضل بتلك المناسبة.

بين الحركة والثبات لحظات يُؤخذ فيها القرار، نهضت من جلوسي بخطوات للخارج، وقفت بداخل المبنى أمام الزجاج المحطم لأجد المدخل يقابله عمودان وبعدهما درجات سلالم، خرجت من المداخل الزجاجية المحطمة توجهت فور عمودٍ باليسار لأحتمي به، أنظر من ورائه لأجد الطلقات بين الجهتين لا تتوقفان، أفراد المقاومة خلف الأسوار اندثروا

واحدًا تلو الآخر داخل محيط مبنى الشرطة، أشارك في هذا العراك بطلقتين تصيبان أكتاف شخصين من المقتحمين فيسقطان أرضًا، توجهت صوب سيارةِ شرطة أمام درجات المدخل لأستخدمها كدرع.

الجنود يحتمون خلف عربات الشرطة والمركبات المختلفة، المقتحمون وراء سياراتٍ أخرى وباقي الأفراد خلف السور، تلقى عليهم قنابل ويردون بأخرى شبيهتها، أتحرك يسارًا حتى تستطيع عيني النظر إلى المقتحمين، ألمح مجموعة تتوجه إلى المساحة أمام السور، أطلق النار على ركبة أحدهم فيسقط أرضًا، ثم أضرب الكفين ليتجنب النهوض مستلقيًا يتألم.

تتحرك أرجل أخرى من مدخل السور إلى محيط المبنى، أصيب اثنين منهم في أرجلهم فيسقطون، تستمر الطلقات بين المقتحمين والجنود لكن هذه المرة داخل السور، حركت يدي يسار السيارة بعدما أصابت عيني من يتستر بعربة أخرى، أطلق النار من سلاحي الآلي على هيكل العربة لتنفجر، تلك المرة سيموت أفراد المقاومة وراءها بكل تأكيد، تتفرغ خزنة سلاحي دون انفجارها، أعيد ملء السلاح وبالأثناء يطلق أحد الجنود النار على الهيكل فتنفجر السيارة من مسببها صاحب الرصاصة الواحدة، لا مفر، عليّ الاستمرار بالاصابات فقط.

أطلق على آخرين يحاولون الدخول من السور، ويتزامن مع ذلك، جندي جيش رفقتي يُطلِق الرصاص تجاهي،

تلاحظ أُذني صوت الرصاصة بعد إطلاقها بالكاد مرت دون ملامسة جسدي مخبئًا إيّاه من مرمى رصاصاته، وبلحظة تفكير توصلت أن الجنود أُمرت بإطلاق النار عليّ بالميدان حتي يبدو قتلي للمنظمة موتًا طبيعيًا أثناء حمايتهم لي، فلا يضطرون لمعاداة المنظمة، يحسبني النائب مجرد موظف، يرغب بالانتقام المستتر دون العواقب الملاحقة له.

أنتبه لمكان مطلق الرصاصة، أوجه سلاحي نحوه وإذا بجندي آخر يهجم بسكين نحو خصري، أضرب يده بمؤخرة سلاحي من ثم أضرب برأسي في وجهه عند الجزء الوسطي الواضح من خوزته، يحاول آخر بتوجيه السلاح نحو صدري، أدفع جسد من ضربته حتى يصيب الجندي المصوب فيتحرك سلاحه، أوجه سلاحي إلى كفتيه، أصيبهما، من ثم كف الجندي الآخر، وأتحرك سريعًا نحو مقدمة السيارة لأغير مكاني حتى لا يراني الجندي المطلق الأول. يلمحني مقتحم من مكاني الجديد فيضرب على جسدي الجالس أرضًا رصاصة تمر بجانب خدي مصيبة السيارة، أوجه إليه رصاصاتِ أربع لأصيبه في ركبتيه وكفيه، كل من هو موجود يحاول إصابتي للموت، بالكاد حظي يباغت تصويباتهم فلا يصل إليّ الرصاص.

أدرك مكوثي بالميدان سيتسبب بكثرة المصوبين، أتحرك حركات عشوائية بمحيط المبنى، وكلما أقابل مقتحمًا أو جنديًا أطلق النار على كفيه حتى لا يرد بأخرى، أحتمي وراء سور غرفة بوابة المدخل من جانبها الأيمن هاربًا من

أنظار الطرفين، تتزايد أعداد الجنود الخارجة من المبنى، يقل بالتبعية الأفراد المقتحمون، تركيزي مشتت بين البحث عن السيدة وما إذا كانت قد جاءت أو سقطت مع الضحايا المُلقين وبين محاربة الطرفين. رغم مهاجمة جنود الجيش فيحتم عليَ إسقاط أي مقتحم بالمكان، وذلك مقابل لعدم القتل المباشر من نائب وزير الدفاع، ومع كل هذا أحاول الخروج الآمن.

أول حضور لي بميدان حرب أتيقن من حكمة الهروب، أصوات الرصاص وصرخات المصابين لا تتوقف، وسط تلك الأصوات أسمع من أحد الجنود من يقول:

-لم يتبقَ منهم الكثير، انقضوا عليهم.

نهضت متوجهًا خارجًا قبل ما ينتهي الجنود من بقية المقتحمين، خرجت من المدخل الآخر لأجد أربع سيارات كبيرة تحاوط المدخل، أنظر ما بداخلهم لأجدهم فارغين، ركبت واحدة لأتوجه بها من هذا المكان بعدما لم أجد المرأة وسط المقتحمين، عند تشغيل المحرك سمعت أصوات غريبة بالسيارة، تيقنت وجود عبوة متفجرة بداخلها، قفزت بأسرع ما أملك من بابها وزحفت لأعود للداخل بجوار جدار غرفة المدخل قبل توجه الجنود المتبقين من معركة محيط المبنى إلى السيارات، تنفجر السيارات بعدما اقتربت منها الجنود خارجًا، مسببة في أشلاء ما تبقى من جنود وبجانب قدمي سقطت إحدى الأقدام والأيدي البشرية، فوضى عارمة لا أعرف كيفما خرجت منها دون خدش.

نزعت جسدي المرتجف من مكانه لأخطو بقدمي فوق أشلاء وضحايا ومصابين، أحاول ألّا أضغط بها على أي جثث، المنظر الملهم، لوحة رسمت بإتقان من كل محبي القتل، راح ضحاياها مبدعون في المجال، خطورة الوقت منعتني من التأمل بكل بقاع الدم والأعضاء المنفصلة عن أصحابها فعقلي منتبه أكثر للموقف خاصتي، أبحث إذا كان هناك أحد الجنود أو المقتحمين سالمين لأخذ الحيطة، خرجت من المدخل مرة أخرى لا أثر لأحد على قيد الحياة فقط حطام السيارات المتفجرة وجثث وأشلاء. في طريقي يحدثني القائد في الجهاز اللاسلكي حوزتي، يقول:

-هل تستقبل؟

أمسك الجهاز بيدي:

-أسمعك.

يعود صوته من الجهاز قائلًا:

-لم تكن بقدر الإفادة التي كنت أرغب بها، داعبك الحظ فقط لتنجو، ورغم معاداتك لبعض الجنود، لن آمر بقتلك مجددًا لحاجتي إليك، هناك سيارة على بعد ألفي متر، تشير أجهزة الاستشعار بالقمر الصناعي وجود من فيها، لا تقتله، فقط قيده، نريد الاحتفاظ بأحد الأفراد حيًا، من ثم توجه وسط المدينة، أحتاج إليك مرة أخرى.

أغلقت الجهاز واتجهت إلى السيارة بخطوات خفيفة

لا تصدر صوتًا حتى لا يلاحظ راكبها، وصلت إليها لأرى مؤخرتها عن بعد، أقف ناصية مفترق طرق، أقترب منها بهدوء من ثم أفتح باب قيادتها وأنا ممسك بسلاحي، أجدها المرأة التي أبحث، خفضت سلاحي بالحال، سعادتي لسلامتها أجبرتني بالمكوث للحظات صامتًا مبتسمًا لتستغل هي تلك اللحظات وتخرج مسدسها توجهه إليّ، وتسألني:

-أأحد نجا ممن توجه إلى هناك؟

أصمت دون التعقيب على السؤال بالرد بأي من الكلام أو الإشارات، فتفهم وتتغير ملامحها ممهدة لإخراج بعض الدموع، لتقول بصوت غاضب حزين وهي تخفض سلاحها:

- قلت لهم لا جدوى من الاقتحام، ماتوا جميعهم الآن.

تزداد قطرات دموعها، لأول مرة أبالي، أرغب بتوقفها عن البكاء، لكن الوقت ليس بالمناسب، أتذكر ما طلبه مني النائب، من ثم يخطر ببالي الحل المناسب الوحيد، أحرك سلاحها المنخفض أثر البكاء والحزن وأقول:

-أطلقي رصاصات نحو سترتي المضادة، أسقِطيني أرضًا وانطلقي من هنا بالحال.

عاد سلاحها إلى صدري، تماسكت قليلًا بعدما انتبهت لما قلت، لتردف بكلام ينم على الاستفهام والغضب:

-من أنت؟

أرد عليها بإجابة غير مباشرة:

-الشخص الذي ستقابلينه بذات الميدان بعد ساعتين من الآن، أطلقي الرصاص وأسقطيني أرضًا.

خرجت الرصاصات من سلاحها وتصيبني في السترة في أماكن مختلفة، خمس كانوا كافين لإسقاطي أرضًا وانطلقت بالسيارة. كانت تلك الرصاصات ضرورية حتى تقتنع أني لا أدعم الجانب الآخر، الجانب الخاص بالدولة الأكبر التي تُعاديها هي. حالة من اللا وعي تراودني أثناء تحمل جسدي آلام الضربات، استمر في الإفاقة من الألم نحو دقيقتين ويفصل استراحتي على الأرض جهاز اللاسلكي، يصدر منه صوت القائد ذاته:

-ماذا حدث؟

أرد وأنا غير مكتمل الصحة بصوتي يخرج بصعوبة:

-رحلت، بالإضافة إلى ذلك، لا يمكنك الاقتراب من تلك السيدة.

يجيب على كلامه وسط تشويشات الجهاز ويقول:

-أيمكن أن أسأل لماذا؟

اتزاني عاد وتقبلي للألم سيطر على توجعاتي والتركيز أصبح متفرغًا للرد بكامل طاقتي. وضع الحدود هو الحل المناسب بهذا التوقيت، لا أتقبل الأسئلة عن تصرفاتي أو محاولة تفكيره بالسيطرة عليها، تبًا لقوانين المنظمة وقوانينه، سئمت هذا المتعجرف، لست جنديًا يمتلكه:

-مع القليل من التفكير، ستجد عدم تحكمك الكامل بالموقف، لست أحد جنودك ولست مؤهلًا للاستجابة بكل مطالبك، في الحقيقة، أنا المتحكم الوحيد في مجرياتي حتى ولو كنت في مكان تحكمه قوتك وسلطتك. تلك المرأة لا علاقة لها بمشكلة دولتك، سلامتها أرقى من تنفيذ مهمة بمقابل، غير مقبول اعتبرها مجرد رهينة قابلة للاستجواب، توقف عن ملاحقتها إذا كنت ترغب بعدم معاداتي.

يصمت ما يقارب العشر ثوان ثم يرد:

-والذي يحذرني الآن شخص لا يملك سوى وظيفة بداخل منظمة، أخفق بمهمتيه الأخيرتين.

التهديد في تلك الحالة لأمثاله ضربة غير متوقعة ستتسبب في إسكاته قليلًا ليفكر ويُحضّر رد الفعل المناسب:

-ربما، أو ربما هو شخص لا تتوقع حقيقته بإمكانه تدمير ما يعترضه، حتى ولو كانت دولتك المحصنة.

أغلقت الجهاز ووضعته على الأرض جانبًا، توجهت إلى سيارة مركونة بجانب الطريق، أكسر زجاجها ثم ركبتها وشغلت محركها بغير مفتاح، أقودها متوجهًا إلى لقائي الأهم.

***

أصلُ إلى الميدان ذاته، المحتجين ما زالوا بالميدان يملأونه حتى بعد اقتحام الشرطة عادوا مجددًا، بسبب غروب الليل وطول الوقت منذ صباح اليوم هدأوا نسبيًا

عن بدايتهم الحماسية، يجلس أغلبهم بالأرصفة والطرقات. تلك المرة انضمت الشرطة محيطين بالأفراد المحتجين، مجهزين بأسلحة ومراكب تلائم الوضع، لكن فور وصولي بدأت مركباتهم في التحرك للعودة، وأعدادهم تقل مع كل مركبة تغادر، ركنت السيارة التي أركب بعيدة عن الميدان، لعدم الاختلاط بأفراد الشرطة لم أدخل الميدان بطريقة مباشرة فتمشت أقدامي من مفارق مباني وسط المدينة حتى وصلت، أحاول إيجاد السيدة ويقيني ببحثها عني لا يخالطه شك، أي شخص مكانها فضوله سيقتله لمعرفتي، لذا منذ الوصول إلى الميدان لم أجهد نفسي بالبحث، جلست رفقة أشخاص يجلسون على الرصيف، تحمل فتاة مراهقة تجلس بجواري لافتة مكتوب عليها: «لا لقتل الميدانيين».

يا للسخرية! تجلس بجوار أكثر من قتل أفرادًا. تأملت قليلًا ما قرأت، غريبة تلك الجملة، غير عادلة وظالمة لفكرة القتل. لماذا لا نقتل وهي وسيلة يمكن استخدامها، الغبي فقط من يعتبرها آخر الحلول في حين هي الحل الأول والأسرع. ولماذا لا قتل للميدانيين بالتحديد؟ أهم أهَم من في المجتمع؟! لا تدرك تلك الفتاة عن حقيقة الميدانيين كونهم الأقل أهمية من هؤلاء الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، الميدانيون يستحقون هذا الموت، هي قوانين لعبة كلعبة الشطرنج، الوزير لا يحرم عليه قتل البيدق بالرقعة أمامه، لأن البيدق أقل إمكانية وقدرة ولا يستطع التحرك للخلف لقتل الوزير أولًا بفعل حركاته المحدودة. استفزني إهدار طاقتها

برفع اللافتة حتى أثناء جلوسها، فسألتها:

-ألا ترين ظلمًا بتلك العبارة؟

انتبهت لسؤالي ونظرت إلي، فأكملت دون ترك مساحة لنقاش:

-إذا أردنا منع القتل فيجب منع وقوعه على الجميع لا على فئةٍ محددة. لمعلوماتك، لم تستطع حضارة -ولا نظام ولا ديانة ولا قوةٍ عظمى- إيقاف تلك الطريقة من الاستخدام، بل كل السياسات والأنظمة والهيمنات الدولية تضع القوانين المناسبة لها لتقنين وتبرير والسماح بالفكرة فقط من خلالها وتحت قيادتها لتناسب خططِها وتحقق أهدافها، وهذه ليست بالوقاحة، ففي بعض الأحيان يكون حل مشكلة معينة، أو من ضمن إحدى الخطط قتل تلك الفئة بالتحديد التي تجاهدين لمنع قتلها. أما إذا أردنا حلًا جذريًا ما علينا سوى قتل الجميع بالعالم، بعدها من الممكن تواجد كائنات جديدة لا تعلم الفكرة، لكن حتى بعد هذا كله أعتقد ستقتل تلك الكائنات ذاتها من الملل.

أنتهي من حديثي لأرى أثنائه وبعده البغض والكره لآرائي ومبرراتي، وقفت الفتاة ورحلت من جواري، عاكس عيني هيئة المرأة تبغدني بأمتار تقف مرتدية ملابس محلية لا تبدو ملامحها، ألقت أنظارها الحادة صوبي وكأنها تأمرني بالحراك. تمشي بين المحتجين وأتبعها بخطوات بسيطة، تتحكم بها أرجلها حتى تنهي الشارع المتفرع من الميدان، أعداد

المحتجين تقل كلما ابتعدنا، تتجه يمينًا من ثم تنهي شارعًا آخر فتعرجت يسارًا. ابتعدنا حوالي ألفي متر عن الميدان، دخلت إلي مبنى قديم، وبملاحقتي لها صعدت إلى الدور الثاني لأجد باب شقة مفتوحًا، دخلت مغلقًا الباب، مكان بسيط ينم عن تواجد سكان دون حضور أحدٍ منهم بالحجرة الرئيسية. وفجأة كلب ضخم ينبح تجاهِي لرفضه غريب اقتحم سكنه دون استئذان، يهجم الكلب بخطوة سريعة إلى جسدي وقبل الوصول إليّ باللحظة الفارقة أسمع صوتها ممهدًا لظهورها يقول للكلب:

-اجلس، واهدأ.

لم أكن قلقًا من نباح الحيوان بل قلقي كان حول خطر مخفي لم أكن أستبعد وجوده، لكن هي تستحق المخاطرة. تكوين المكان وظهورها الطبيعي وجلوسها على طاولة الطعام وسط غرفة الاستقبال منحني الشعور بالهدوء، جلست رفقتها على ذات الطاولة. مقابلة منتظره منذ أزيد من عشرة أعوام، اتسهللت المقابلة بالنظر إلى عينيها، تفاصيل وجهها، شعرها وهيئتها بالكامل، هي لا تبدو الأجمل ممن قابلت في حياتي، لكن أظن شغفي للقائها خلق بداخلي الإعجاب بشخصيتها قبل المعرفة الكاملة المناسبة لهذا الشعور، أستريح عند جلوسي معها راحة شخص عاد إلى منزله بعد يوم عمل شاق وجد زوجته في انتظاره بابتسامتها البسيطة. أثناء تأملي طالت نظراتي عن الوقت الطبيعي خصوصًا مع الصمت السائد على الطاولة، لتقطع هي الهدوء

والنظرات بكلامها:

- حدثتني بالمرتين بلكنة الدولة القديمة، أصلك من هذه البلدة المحتلة أليس كذلك؟

أحدثها بذات لكنتها مجيبًا سؤالها المطروح:

- كنت أود قول نعم، لكن للأسف لا، أصلي أبعد ما يكون عن هذا المكان بدولتيه الموجودتين. أنا فقط أجيد الكثير من اللغات واللكنات.

تحرك جسدها الجالس على الكرسي ممهدًا لفضولها بالظهور:

-ومن تكون لتتقن الكثير من اللغات؟! جاسوسًا؟ عميلًا مزدوجًا؟

كل ما أنا به غير طبيعي، النبؤة يكتمل تحقيقها بمقابلتي لتلك السيدة، لا أقدر على القتل، الأحداث التي تحدث بتلك البلد وإليّ بالتحديد، لذا فلا يبدو الحذر مناسبًا لكل تلك الأحداث غير المنطقية، الحيطة والكذب ليسا ملائمين لخطتي بخلق ثقة بيني وبينها، أنا مستعد للدخول نحو نقاش سيحمل الكثير من الأسئلة، سأجيبها بالكامل دون التهرب، لذا فأقول:

-قاتل مستأجر، عمليًا ونظريًا قاتل مستأجر.

ترد على كلامي بسؤالٍ آخر:

-وما الفرق بين الجاسوس، العميل المزدوج وبين القاتل

المستأجر؟! الجميع يسعون نحو السعر الأعلى.

تلك مقارنة غير متكافئة ومهينة، ولتصحيح هذا المفهوم الساذج أرد:

-الجاسوس دائمًا ما يكون ولائِه لجهة محددة ويستخدم القتل كحلٍ أخير وبضوابط وقوانين إذا أخلفها يخضع للمساءلة، العميل المزدوج ينفذ ذات الضوابط لكن دون ولاء وإخلاص، أما أنا فلا أغلب لضوابط ولا أحمل ولاء والقتل هو الحل الأول دائمًا.

ألاحظ أصواتًا بالشقة تنم عن وجود شخصيات أخرى بالمكان، يُزاح التفكير الملح بظهور سيدة يقترب عمرها من العجز، وزن زائد، تتحرك حركات طبيعية بين الغرف، اطمئن من هيئتها العادية ثم أكمل بطريقة هادئة لا تنم عن انشغال تفكيري بمواضيع أخرى:

-وأنا لا أقتل تلك الفترة لمقابل مادي، أنا أقتل بحقًا عن الهدوء.

كلامي غير المتناسب تسبب في استعجاب تعبيراتها، مما دفعها لسؤالي بسخرية:

-هل وجدته؟ وكم كلف هذا من عدد قتلى؟

أنظر إليها وهي لا تعلم كونها الإجابة لسؤالها، فأرد على كلامها مشيرًا بيدي إليها:

-وجدته للتو، لكن إيجادي ليس كافيًا، بعدما وصلت كنت

أتأمل، أكانت كل استعداداتي وتصرفاتي ضرورية؟ أكانت طريقتي ملائمة؟ اختياري لطريق يملك حتمية الهلاك لسالكيه؟! لكني صارعت تلك الحقيقة بكل الطرق، كان ذلك غير عقلاني، ووقتما اندرجت نحو مُعضلة غير واقعية، كنت أبحث عن المنطق لَأقتنع.

تنهدت مستعجبًا مما آلت إليه الأحداث وأكمل استرسالي لأصل إلى إجابة مقنعة بالنسبة إليّ:

-لم يكن العدد ذا أهمية، لم يكن القتل هو الطريقة الوحيدة، لكني اخترتها كوسيلة أكثر ملاءمة لقدراتي.

زفرت هواء كثير من فمها نمّ عن تفكيرها فيما أقول، وعدم وصولها لاقتناع مرضٍ لعقلها. عدلت جلستها على الكرسي وأعادت ظهرها مستندة، وحركت شفتيها لتقول:

-فلسفة في غير موضعها، أو هو ندم غير مباح يبدو فقط من طلاسم كلمات متناقضة. مجال دراستي هو النفس البشرية، وأعمل مديرة بشركةٍ تجارية، أقابل الكثير من الأفراد والشخصيات، منهم ما لهم آراء مستفزة، يزداد غضبي عندما يصدق أحدهم آراءه المُغالطة ويحاول إقناع أحد بها، لكنّي لا أتدخل بتغيير قناعات إنسان أتوسم بشخصيته عدم الاقتناع بعد المناقشة، كالحال معك الآن، لا أوافقك الرأي بتقبلك لوظيفتك بكل هدوء كأنك تعمل كطبيب، تتحدث عن مهنتك كأنها مفيدة للآخرين وعدم اعتراضي عن ذلك لن يكون ناتجًا عن تفهمي، كلامك غير عقلاني للبشر الطبيعيين،

أحتفظ بما تبقي، كل ما أحاول فهمه منك هو سبب المساعدة التي ظهرت منك فجأة بحدثين اليوم.

كلام آثارة كسهام لهب مصوبة نحو علاقتنا التي لم تنشأ بعد، بُغض يظهر ومحاولات للتقليل من شأني وشأن حياتي لا أتقبلها، لا مجال لتخطيها حدود أكثر من التي تخطت، لو كانت شخصًا آخر تلفظ بهذا الأسلوب معي، لكان ميتًا، لقتلته الآن. أو ربما هي على حق، ربما تملك وجهة النظر الأخرى لتلك الفئة الأخرى التي تود رؤية الأمور دائمًا مستقرة، الفئة المسالمة، سيئ كونك الجانب الضعيف في حوارٍ مصيريّ.

إجابة تساؤلها يتطلب شرح أمور غير عقلانية لمن في مكانها، لن تفهم الأحداث التي مررت بها، ولن تفهم حاجتي إليها رغم مقابلتي لها توًا. لكن لا مفر سوى التوضيح بتلك الطريقة:

-لم أكن أساعد الجميع، أنتِ فقط.

تستنكر إجابتي التي لم تحتوِ على المعلومات المتوقعة. تظهر بهذا الحين السيدة السمينة بوضوح بحجرة الاستقبال بالشقة. تقول المرأة التي أُخاطبها ردًا على كلامي:

-ولِم كنت تحاول مساعدتي أنا فقط؟

أستشيط غضبًا من كثرة الأسئلة ومن عدم القدرة على التوضيح، فيتلفظ لساني بصوتٍ عالٍ دون التفكير:

-كفى أسئلة. قلت لكِ من قبل لأني أبحث عن الهدوء

المغيب.

صوتًا هو الأعلى منذ بداية النقاش صدر مني، تتدخل في الحديث السيدة السمينة بكلامها:

-أهذا الشخص الغاضب يبحث عن الهدوء؟ اهدأ أنت قبلًا، هناك طفل بالداخل يحاول النوم.

يتبع كلام السيدة السمينة، كلام المرأة التي أُجالس:

-سيستمر المماطلة بتلك الطريقة، أتعلم؟ أنا لا أكترث لما تصرفت هكذا اليوم، سررت بلقائك، يمكنك الرحيل.

غضب آخر في طريقه للخروج بسبب الأسلوب، كل ما تريد معلومات تفيد خططها، لكن الهدوء أسلم لي لأتلقى ما أريد معرفته. أسألها بهدوء مصطنع محاولًا إنقاذ الحوار بيننا:

- ما الذي تكترثين له؟ تعرفت الحكومة عليكِ كفرد من أفراد المقاومة، الجميع الآن يحاول قتلك بذلك البلد، أراهن بقرب تواجد قوات أُرسلت إليكِ، أو سيبعثون أشخاصًا مثلي لفعلها، عليكِ الخروج الآمن بالحال، من ثم يمكنني إجابة أسئلتك التي لا منطق لها بهذا التوقيت.

تسمع ما قلت بوضوح، ثم تنظر إلى السمينة رفقتها، وأكمل أنا سؤالًا لا يجد تفكيري إجابته:

- إذا كنتِ تعيشين بتلك المدينة وتتحدثين تلك اللغة فأنتِ ممن يحملون الجنسية الوسطية، فلِمَ تتورطين بتلك الحرب؟! لكِ حياة مستقرة نسبة لمن ينتمون للمدن الخاصة

بالدولة القديمة.

هدوء أكثر ونظرات مستمرة بينها وبين السيدة، وكلامي يُكمل بتساؤلاتٍ جديدة:

-ثم تحاولين أنتِ ورفقاتك اقتحام مقر مُحصن تصلون إليه بعدما ألحقتم جهاز تتبع رديء بملابسي، من مجنون بإمكانه اختراق مبنى شرطة للدولة الأقوى هنا؟ ولأي سبب؟ حتى لو كنتم أصبتم في الاقتحام، فسرعان موتكم المحتم بانضمام قوات أخرى.

تتحرك السيدة من جلوسها واقفة متجهة إلى التلفاز وتخرج السمينة من الحجرة إلى المطبخ، تمسك المرأة بجهاز التحكم، يُفتح الجهاز على قناة إخبارية للدولة القديمة، تنقل الأخبار عن المدن المدمرة من جهتها، مشاهد عن المباني التي صارت كومات حجارة متراكمة، قطع من أفراد متناثرة، جثث ومصابين ليسوا لهم أماكن للدفن، الجميع حزين، يبكي، يصرخ، حديث من المذيعين حول المشاهد والأخبار المحيطة بأولى أيام توقف الحرب المؤقتة، الجميع يتكلم عن المساعدات الموجهة لمُحتاجيها والدولة الأقوى تمنع وصولها إلى المدن المخرّبة.

لا أفهم تلك المرأة، أتتوقع تأثري بهذه المشاهد؟ هذا طبيعي حدوثه بالحروب، أكنتِ تتوقعينها مبارة كرة قدم لا تخرج الكرة من الملعب؟! في الحرب كل الأراضي تصلح للعب، وكل الأشخاص معرضون للاصطدام بالكرة. هذا دور

القنوات الإخبارية عرض الحالات المأساوية والتعيسة، ودور الشعوب التعاطف، ودور الدول المتواطئة الإدعاء. فلِمَ لا ترى الحقيقة؟! لمَ يملأها الإحساس بالمسئولية لهؤلاء الناس؟! هي كانت تعيش بسلام هنا، عليها التركيز بسعادة ذاتها وممارسة الحياة بشكل طبيعي، والابتعاد عن كل هذا التعكير.

تستمر الأخبار والكلام وعرض المشاهد وأتابع بكل تركيز محاولًا اكتشاف فكرتها لتقنعني، واللحاق بإجابة عن تساؤلاتي، حتى يقطع متابعتي كلامها:

-إذا لم تتأثر فلا بأس، أتفهم طبيعة عملك القاسية، تلك المشاهد لن تكون فعالة لأمثالك، الذين يقررون من يموت ومتى دون الاكتراث لأية مشاعر، لكن أنا أكترث لهذا البلد وهؤلاء الناس وتلك القضية، أكترث لبلوغ المساعدات لهم، ولا أكترث إذا مت وأنا أحاول المساعدة، ولن أغادر ذلك البلد حتى ولو كان قتلي مطلبًا جماعيًا.

تعود السيدة السمينة من المطبخ ببعض الطعام والمشروبات، وتضعها على الطاولة وهي تقول لي:

-أتمناه ينول الإعجاب.

ثم تعود إلى كرسي لتجلس جانب النافذة المفتوحة للغرفة، تعود المرأة للتحدث بطريقتها الانفعالية ذاتها:

-نحن لسنا بالأغبياء لئغامر ونتجه إلى هناك فقط لنموت دون هدف، لدينا معلومات مؤكدة بعودة الحرب أشرس من قبل، فكان يجب امتلاك ما يمنحنا القدرة على التفاوض، كنا

بحاجة إلى أسرى ذوي قيمة لدى الدولة، حتى ينزعوا من آذانهم ما يمنعهم من سماعنا. وبالمناسبة أنا أحمل جنسية الدولة الأقوى، لا الجنسية الوسطية.

أبلغت فكرتها لكن لم يستجب اقتناعي بالكامل، تنظر للمجريات بطريقة مغايرة للواقع، مُعادية للقوة وأسباب التفوق، لكن إصراراها وعناد ألفاظها، يمنحني الشعور بمشابهتها لشخصيتي، لكنها أسمى قليلًا.

تتحرك السيدة السمينة من كرسيها لتأخذ جهاز التحكم، تضغط على أحد الأزرار وتقول:

- لنرَ ما تطور لتلك الوقفة بالميدان.

ثم تُغير القناة لقناةٍ إخبارية تابعة للدولة الأقوى. بعد الذي أضافته المرأة لا أجد طريقة أخرى تنقذ تعاملي معها سوى عرض المساعدة ليُفتح الطريق لحوارٍ أهدأ ومكانٍ أفضل أستطيع جذب انتباهها وإعجابها فيه، وإذا رغبت في رحيلها، فعليّ الاهتمام بما يُشعل حماستها وشعورها بالمسئولية، فقلت:

-يمكنني المساعدة في هذا.

تتغير معالم الانفعال، إلى الاهتمام والقبول، لتقول وكأنها كانت تنتظر هذا العرض:

-إلى أي مدى يمكنك المساعدة؟

تفاعلها الشديد يجب إخماده بقليل من الحقيقة:

-إلى مدى غير متوقع. لكن هناك عائقًا، أنا لا أستطيع القتل في الوقت الحاضر، أصبت بلعنةٍ لا أدري متى ستنحلّ عني.

أصوات ضَحِكات غريبة من المرأتين بالمكان، سخرية مبررة لحالتي، لكن لا داعي للانزعاج فالتقليل من الموقف ظهر بداخلي قبلهم في كل مرة أفشل بالقتل هذا اليوم، توسط الضحك صوت السيدة السمينة تقول:

-أكنت تقتل بعصا سحرية فارتدت التعويذة عليك؟!

مزحة غير مضحكة لكنها تسببت في إبهاج المرأة. أخرجت من جانبي المسدس حوزتي الذي أخذته من النائب لأشرح موقففي بطريقة مفهومة، ثم قلت:

-هذا مسدس عادي، زر الأمان منزوع.

أوجه السلاح إلى الكلب بجوار الطاولة، أضغط على زر إطلاق الرصاص، لا تخرج الرصاصة، يلاحظ الجميع الأمر ويفهمون الموقف ويلعق الكلب السلاح الموجه إليه. تنفعل المرأة على كلبها وتهمهم بشتائم، وتكمل كلامها الساخط:

-وغدٌ منحطّ، أكنت تحاول قتل الكلب؟!

تنطلق نحو الكلب تمسكه وتعانقه، ثم تشارك السمينة رأيها قائلة:

-جرب استخدام سكين، يمكن القتل بالسكين إذا لم تكن تعلم.

أظنها تحتاج لتجربة هذا الفكرة عليها الآن، أهدئ من روعي

موضحًا لها الخلل بطريقتها:

- لم أحول الحقيقة، لكن إذا كنت بالميدان وسط أفراد الشرطة أو جنود الجيش سأمسك بالسكين وأركض نحوهم وأنا أصرخ قائلًا: «هاااااه» ثم أقتلهم جميعًا واحدًا تلو الآخر.

تسمعني السمينة بانتباه واضح ثم تضيف:

- لا تحتاج لأن تصرخ، أقتلهم فحسب.

تقتطع المرأة الحوار غير الهام بيني وبين السمينة، توجه الأخيرة انتباهها إلى التلفاز، وتقول المرأة:

-نحن لا نحتاجك لتقتل، القتال بالنسبة لنا هو دفاع عن النفس، يمكنك تقديم المساعدة بأشكال مختلفة وباستخدام طرق أخرى مجدية، ألا تملك أي مهارة بجانب القتل؟ لا أظنك محدود القدرات.

يقاطع الكلام ضوضاء قادمة من الخارج تدل على وجود فوضى أسفل، مما أثار القلق والحيطة، لتقاطع السيدة السمينة الصمت الخائف وتقول:

-عليكما مشاهدة هذا، الشرطة نجحت في فض الوقفات الاحتجاجية، الجميع شبه يرحل من الميدان.

ترفع صوت التلفاز، أنتبه إلى المشاهد المعروضة، العدد الهائل في الميدان انتقص، المتبقي يرحل بخطوة سريعة، ثم أسمع المذيعة تعرض بيانًا من جيش الدولة الأكبر، يقول البيان:

-بناءً على الهجوم الذي تم على مبنى الشرطة ومقر الجيش عصر اليوم الذي راح آثاره العديد من الضحايا والمصابين، فإنه بذلك قد اخترقت المقاومة الاتفاق الدولي بوقف الحرب، ولم يتركوا لنا مجالًا سوى بالرد بذات الطريقة وبقوة لا يمكن ردها وأفادت الاستطلاعات بتواجد أفراد من المقاومة الإرهابية بتلك المدينة، فعلى كل من يقطن بالقرب من وسط المدينة بجميع الضواحي إخلاء منازلهم فورًا والتوجه إلى مبنى الشرطة الرئيسي والاحتماء بمنطقته، ذلك تجنبًا لإي هجوم من قبل المقاومة الإرهابية، أو هجوم من خلالنا نستهدف به مقرات سرية لهم.

شتت انتباهي لحديث القنوات الإخبارية ملاحظتي لأصوات طائرات حربية، وبذات التوقيت وميض أحمر من المسدس حوزتي يظهر، لأتأكد مما أشك، نهضت مسرعًا مقربًا المسدس إلى سماعات التلفاز، فيظهر صوت ذبذبات علمت من خلالها وجود محدد موقع بهذا السلاح، لم أفكر لحظة بما سيترتب عن هذا سوى الخراب، أنقض ممسكًا بيد المرأة، متجهًا إلى نافذة الحجرة المفتوحة، اقفز منها دون النظر لتبعات الحركة، وقبل الخروج من النافذة بجزء من الثانية، تأملت صوت سقوط قذائف من أعلى المبنى المتواجد به مخترقة الأسقف، ممهدة للانفجار.

هي تلك اللحظات التي نشاهدها بالأفلام تمر بالعرض البطيء، نقفز أنا والمرأة رفقتي قبل انفجار القذائف وسقوط المبنى برقعة من الوقت، نسقط أرضًا بالشارع، تتفجر

القذائف بالمبنى وسينهال ساقطًا، أتجنب الألم من القفز والإرتطام بالأرض وأتحرك أسرع من ذي قبل ممسكًا بالمرأة لنبتعد من محيط المبنى الممهد للسقوط والمعرض لقذائف. تمطر الطائرات العديد من القذائف على كل ما يجاور المبنى المتروك، ونحن نركض دون وجهة آمنة، لهب يتساقط يكفي لتدمير الحي. نركض خائفين، مستعدين للموت ويرافقنا الكثير من الأفراد الذين حالفهم الحظ بالنزول قبل تدمير بناياتهم، رؤية مشوشة من دخان وغبار ووميض انفجارات بكل زوايا المكان، هواء غير صالح للتنفس، موقع غير مناسب للنجاة.

لم نبتعد سوى بضعة أمتار بسيطة عن المبنى خاصتنا، بالكاد ألاحظ سقوطهِ بالكامل، نتحرك بحركاتٍ عشوائية لا ندري أين يمكننا المكوث لثوان دون التعرض للموت، بأفكار غير مرتبة دون تحضير مسبق أتحرك صوب جدار ساقط على سيارة تاركة فراغ بسيط أسفلُه يمكننا الاحتماء تحته ثابتين كالجثث حتى لا تلاحظنا أجهزة أستشعار الطائرات حيّين، أسحب المرأة غصبًا لنصل تحت الجدار، أثناء ثباتي أفكر في ذكاء نائب وزير الدفاع الذي استغل هجوم المقاومة على مبنى الشرطة ليقتل من اندسوا منهم بتلك المدينة ويعيد الحرب على المقاومة بعد الإجبار الدولي بوقفه، بالإضافة إلى قتلي، باستخدامه الحجر لم يُسقط عصفورين، بل اصطاد سرب طيور مهاجرة.

لا أُدرك حقيقة ما أراه بوجه السيدة أمامي؛ خوف، أم حزن،

أم غضب! مكثنا أسفل الجدار ما يقارب الخمس دقائق حتى توقفت أصوات القذائف والطائرات لكن ما زالت الصافرات بأذني، ألقي النظرات حول المكان، ألاحظ بصعوبة سقوط عشرة مباني بالجوار من ضمنهم المبنى الذي كنا نمكث، أنتبه لتحرك المرأة تركض نحو المبني حيث منزلها، أتبعها حتى تقف أمام خطامه تبكي، تصرخ، تحاول رفع الحجارة البسيطة بحركات غير إرادية، غير مجدية. من الممكن الآن تفهم القليل مما يشعر به الأفراد بالحروب، لكن لا يمكنني الاكتفاء فقط بالألم محلهم، أصبح الأمر شخصيًا بعض الشيء، حاول هذا الحقير قتلي مرتين في يومٍ واحد.

تستمر المرأة في إهدار طاقتها بالدموع والانهيار والصراخ، حتى تفقد طاقتها بالكامل فيسقط جسدها متعبًا، أقترب منها لأمد يدي إليها ممسكًا بيديها، أحاول دون كلام تهدئتها، لا أعلم حتى مدى خسارته ما إذ كانت تلك هي عائلتها أو صديقتها، كل ما عليّ توليه هو المؤازرة لتخفيف صدمة الموقف. نمكث وسط صرخات وضوضاء الكارثة وإذا بصوت خفيف يصارع أصوات الناجين والفوضى بالمكان، نحاول التركيز أكثر مع الصوت، حتى نميزه بالكاد كونه صوت طفل تحت الأنقاض يطلب المساعد الفورية، تستمد هي طاقتها بالكامل كأنها خُلقت من جديد، تنهض وتزيح بعض الحجارة محاولة إيجاد أي منفذ للدخول والتقرب من الصوت، حتى تظهر فتحة ضيقة تدخلها سريعًا دون التفكير إلى أين سيوجهها هذا المدخل أو الانتباه لقطع الحديد التي

تسببت في جروح بجسدها، أحاول توسيع المدخل بإزاحة بعض الحجارة حتى يمر جسدها بالكامل، أستدعي بعض الأشخاص وأوجههم إلى مكان للمساعدة برفع الحجارة، الكل يزيح ما يستطيع، حتى تعب الجميع ولم يتبقَ حجارة نستطيع رفعها بأيدي مجردة. اختفى صوت الطفل وأثر السيدة، لكن ظهر عواء كلب، على بعض أمتار ألاحظ مكانه بوضوح، لَأجد بعض الأثاث يعلوه حوائط وحجارة أسفله مصدر الصوت، بهدوء أحمل وأنزع الحجارة والأثاث حتى الوصول للكلب، أجده ذاته الذي كان رفقتنا بالشقة، أحمله بذراعي، لأول مرة بحياتي أنقذ وأرغب بهذا.

لم تمر دقيقتان منذ إنقاذي للكلب، لأجد مجموعة من الناس ملتفين حول الفتحة التي دخلت فيه السيدة، يُخرجون منها طفلًا لا يتعدى عمره الثمان سنوات، يتبع خروجه خروج المرأة سالمة ببعض الخدوش ولون رمادي أثر التراب، أتجه إليها لَأُساعدها، أعطيها الكلب، أحاول تنظيف الغبار من وجهها وجسدها، ودون تردد أتلفظ:

-بكل ما أملك من قوة سأتصرف حتى أستطيع إيقاف هذا، أعِدك سينتهي الأمر دون تدخل منك أو من المقاومة، كل ما عليكِ تداركه تجنب الموت والقدوم إلى مقر مبنى الشرطة -كما قالت الوسائل الإعلامية- حينما يقارب الوقت فترة الظهيرة، حاولي المجيء متخفية.

هي لا تعي ما يمكنني تحقيقه لِأنها لا تُدرك حقيقة الشخص الذي يرافقها.

***

سماء سوداء أظهرت إضاءتها الخافتة بفعل سطوع القمر، أمشي تحت إنارتها مع اقتراب الساعة إلى التاسعة مساءً، تركت المرأة متوجهًا إلى شقة مكوثي بليلتي الأولى بتلك المدينة آملًا متمنيًا عدم إصابةَ المبنى بإحدى القذائف، وصلت إلى هناك لأجده سالمًا وأخيرًا حظ جيد بذاتِ اليوم، أصعد إلى الطابق الأعلى حيث الشقة، أخرجت أجهزتي الحديثة التي أحضرت مستخدمها للتواصل مع المنظمة لإخبارهم حول الحالة الطارئة، أدخل بمقابلة مع مديري المقرات السرية المجاورة بصفتي أحد الثمانية الكبار-المجلس المتحد الأعلى- ألقي أوامر لا تقبل التأجيل لخطة سيكون قائدها -أنا- الشخص الذي ذهب للمهمة بالبلد موقع الحرب، ثم بجهاز آخر أقابل ذات القادة بصفتي الحالية للاتفاق حول التنفيذ، حيث الخطوة الأولى من خطتي لليوم.

***

الرابعةُ صباحًا، يوم جديد يبدأ بوصولي مرة أخرى إلى الحي المتواجد به مبنى الشرطة، حيث يتجه كل سكان المدينة إلى هناك يحتمون بالشرطة وجنود الجيش الذين يحيطون الحي بأكمله، المئات يمشون معزولين رفقة بعضُهم، في مشهد يتكرر حين الكوارث والحروب العالمية، أندس مع مجموعة من الأفراد تتجه إلى مبانٍ مقابلة لمبنى الشرطة أتوسطهم دون ملاحظة إحدى جهات الأمن، الشوارع مليئة

بالبشر على عكس عصر اليوم، حيث كان يسكن الحي الهدوء والفضاء، على حواف الطريق تجهيزات من الحكومة بطاوِلات طعام ومساعدات طبية لمعاونة المضرورين، كأنهم ليسوا المسئولين عن ضررهم، أكمل طريقي حتى أصل إلى بوابة المبنى الذي وقعت به المعركة البارحة، أقف أمام البوابة مع اليقين أنه لن يمر أكثر من ثوانٍ حتى يأتي أحد الجنود يصحبني إلى مقر الجيش أسفل المبنى، وقد كان.

أربعة جنود وثلاث من أفراد الشرطة يرافقونني إلى المبنى، من ثم يوجهونني إلى أسفل بعدما مررنا من المدخل المستتر، وباستخدام المصعد نصل إلى الدور الثالث السفلي، نخرج من المصعد إلى ممر طويل على يمينيه أبواب حجرات وعلى شماله كذلك، نبلغ نهاية الطرقة ونمشي يسارًا من ثم يدخلونني إلى حجرة فارغة لون جُدرانِها أسود بالكامل وإضاءتها خافتة، سقيعة بفعلِ المبرد، بجانب الجدران الصلبة هناك كرسي فقط يتوسط الحجرة، أمروني بخلع ملابسي بالكامل -التي أعطوني إياها سابقًا- فأنزعها دون اللباس الداخلي وأجلس على الكرسي بعدما خرجوا آخذين الملابس منتظرًا القادم، حيث حدث المخطط له كما تخيلت.

سابقًا كنت أكره الانتظار وبسبب العمل والمهمات اتضح لي كونه عنصرًا أساسيًا بكل الخطط، خصيصًا بالطريقة الأفضل لتنفيذ الأعمال المناسبة لشخص نرجسي مثلي، «عرض الرجل الواحد»، الذي لا يعتمد على عنصر بشري مساعد، لكن النرجسية مقابل الانتصار العظيم لا تملك الأهمية،

تخسر دون حسابات، عليك التنازل عن بعض عجرستك إذا كنت تريد تحقيق هدفٍ أكبر، لذا فإذا تحتم عليك الخسارة وحيدًا أو الفوز مع جماعة، فاختر دائمًا الفوز. طال انتظاري أحسب الوقت الذي يمر دون ساعة، أظنها اقتربت على الثامنة صباحًا، جسدي تجمد من المبرد، مما تتبع ذهابي بركن الحجرة لَقضاء الحاجة، أصبحت رائحة الحجرة بولي، فوح صعب الانتظار.

أعتقد مرور ساعتين أخريين، أمكث دون فرط على الكرسي رغم السقيع الذي امتلك الكرسي الذي أجلس فتناول جلدي الثلوج الناتجة، اقترب الوقت من إنهاء انتظاري كما الخطة، بالفعل يدخل جنديان إلى الحجرة يأخُذانني إلى المصعد مرة أخرى، نندرج أسفل حتى بلوغ الحجرة الضخمة ذاتها التي كنت بها البارحة، كما كانت بالأمس لم تتغير، أفراد يعملون كل بجهازه، وشاشات كثيرة، ويقابل المدخل الشاشة الكبيرة، الحقير متواجد، أقطن على ذات كرسيّ البارحة، تُعاد الصورة ذاتها لكن تلك المرة دون ملابس وحذاء.

عند دخولي لاحظت الساعة الكبيرة المعلقة أعلى الجدار يميني وتابعت عقاربها منتظرًا وقت حراكي حسب الخطة، كل ما عليّ فعله في هذا الوقت هو الاستماع إلى ثُرهات والمكوث على الكرسي دون حراك، كان النائب مبين ظهره إليّ منذ الدخول وحتى عشر دقائق، ثم التف ينظر إليّ بتعابير مستترة ساخرة، فرحة، شامتة، منتشيًا بشعور انتصاره بعدما حذرته وعدت إليه متظاهرًا بالانكسار، يقترب إليّ بخطوات،

ويفشل في التحكم بما يحاول إخفاءه فتصدر منه ضحكة دون صوت وهو يقول:

-سمعت عن تبولك أثناء سقوط القذائف.

أرد أنا دون تفكير لأصحح تلك المعلومة المغالطة:

-بل احتفظت بمائي حتى أخرجته في حجرة المبنى خاصتك.

تزداد ابتسامته لردي على مزحته السيئة، ثم يقول:

-من جهتي كنت أتمنى لك الموت لا التبول، لكن حظك اليوم حالفك بكل المرات التي كنت تحتاجه فيها.

يستند على مكتب ويخالط ذراعيه لبعضهما ثم يقول وهو بذات حالة الانتشاء:

-كنت أود الترحيب بك بطريقةٍ تليق بكرمِ ضيافتنا، لكن الوقت لن يكون في صالحنا فلم نستطع سوى تجريدك من ملابسك بعدما تواصلت منظمتك بكل سرعة مع حكومتنا واتفقت سياستنا لخروجك الآمن.

يغير ملامحه ونظراته إلى عيني ممهدًا بظهورِ تساؤل:

-أثار ذلك تعجبي! لما تستميت منظمتك لإنقاذك وأنت مجرد قاتل عادي من ضمن موظفيها؟! إلا إذا كنتما متورطين في شيءٍ معًا، يضر المنطقة بأكملها ويكسر كل الاتفاقيات التي تمت بينكم وبين الدول الكبرى، فترغب المنظمة استرجاعك حتى لا تُكشف تصرفاتها الخفية.

بلاهة تظهر بكلامه بعدما توغلت الثقة الزائدة في عقله ليتخيل قدرته على خداعي، أعلم تلك الطريقة جيدًا، شخص بمكانته ليس من السهل الإبداء بشكوكه وتخميناته بكل سهولة، ما يقوله ما هو إلا تفاهات يحاول إظهارها ليمنحني الشعور بالأمان، أغلب الظن سيحاول قتلي في وقت تسليمي للمنظمة، ويمكنني تخمين قوله: «سنتأكد من هذا فيما بعد وهذا ليس دوري الأساسي». وبعدها سيحاول الحديث عن السيدة التي دافعت عنها، أهمّ بالحديث ليقول:

-حسنًا، كل الأشياء في طريقها للتأكد وليس من اختصاصي هذا الموضوع.

يعود للحركة مرة أخرى صوب جهاز من الأجهزة على يمينه، ثم يكمل كلامه وهو يتفحص مع جالس الجهاز أحد الأمور:

-لن نمنحك من الملابس ما يستر جسدك بالكامل، ستتوجه بعد عشر دقائق من الآن مع كتائبنا بهذا المظهر، أتمنى توصيلك تحياتي إلى كل شخص ستقابل في المنظمة.

يدخل خمسة رجال من أفراد الجيش إلى ذات الشخص يتحدثون بصوت خافت لا يمكنني سماعه، ثم يلقي نظراته كأفعى ملتوية ويقول:

-ما حال السيدة الآن، أماتت أم هي على ما يرام، آمل كون حمايتك لها كانت ذات جدوى.

عقرب ثواني الساعة يصل إلى الرقم اثني عشر معلنًا

العاشرة والنصف بالتمام، موعد انطلاقي من الكرسي، توجهت إليه بخطوات وأنا أتحدث:

-أتود معرفة لِمَ تفاوضت المنظمة لإخراجي سالمًا من ذلك البلد؟! لأننا لسنا دولة مستعدة لخسارة أحد أفراد جيوشها أو شعبها، بل منظمة كل شخص فيها له دور في تكوينها، لتصبح أكثر قوة وتحصينًا من أي دولة، حتى لو كان الشخص أصغر موظف بالمنظمة.

أبلغ جسده بهذا الوقت مقتربًا بشدة حتى تصبح المسافة بين وجهي ووجهه تناسب قبلة حارة. حان الآن الوقت الذي أحب، زمن مناسب للمخاطرة دون النظر للعواقب. آخذ نفسًا طويلًا يسحب كل الهواء المحيط فاستنشق ما كاد سيتنفسه هو، ثم أضيف وأنا أشير بيدي على نفسي:

-أو أحد العمانية الكبار.

حركات وجهه الثابتة اهتزت نامة عن تفكيره وتوتره لأنه يدرك خطورة الصفة التي ذكرتها توًا. من هنا بدأت أمسك زمام الحوار وبهذا الوقت يقدم صوت من الأجهزة دال عن باقي خططي، الاجتماع الذي كنت انتظره بين أكبر مناصب تلك الدولة القائم نظام حكمها وسياستها على النظام الوزاري حيث رئيس الوزراء هو أعلى منصب في الحكومة. تقول أنثى من الجالسات على جهازٍ بالمكان:

-سيدي، هناك اتصال من وزير الدفاع وآخر من رئيس الوزراء.

يذهله التزامن لِما قلت مع وصول اتصال من هؤلاء القادة، فيبقى صامتًا بضع ثوان ليتخيل ما سيحدث، لكنه حتى ولو صمت ساعات لن يصل إلى التوقع الصحيح. تُعيد السيدة نداءها: «سيدي». فيسحب عينيه من عيني ببطء ويقول لها: «أوصِليني بهما».

يمشي حتى يصل أمام الشاشة الكبيرة مباشرة التي تنقسم إلى جزئين كشف بكل جزء الشخصين اللذين ذُكِرا، يمينًا وزير الدفاع ويسارًا رئيس الوزراء يظهران دون ملابس، فقط باللباس الداخلي، خلفهم رجال من منظمتى يرتدون بِدلًا سوداء من على يمينهم وشمالهم، كم أحب تلك المنظمة، استطاعت الاقتحام والسيطرة على أحصن الأماكن بالدولة خلال ساعات دون ترتيب يسبق تلك الخطوة وهذا هو الجزء الأهم للخطة الموضوعة. ينصدم جميع الحاضرين يقفون مرتعبين من الاختطاف الواضح على أهم شخصيتين بالدولة، أهي نهاية دولة دامت أكثر من سبعين عامًا؟ الارتعاب يستثنيني حيث هذا ترتيبي يتحقق، شعوري الظاهر هو التأهب منتشيًا بخطوة ناجحة. أعود إلى جلستي بالكرسي وسط همهمات الجميع، وأسئلة تُطرح، وفوضى في طريقها للظهور، يزداد رعب المتواجدين منذ ملاحظتهم لتواجد اثنين رفقة كل شخصية بالشاشة، أتجنب كل تلك الأشياء لأقول موجهًا كلامي للوزراء:

-آسف أيها السادة كنت أود لكما حضور هذا الاجتماع بمظهر يليق بمكانتكما، لكن هذا خطأ نائبكما الذي أصر تجريدي من

ملابسي دون الانتباه لمكانتي، خمنت هذا التصرف منه، لذا فوددت التساوي بالمظهر جميعًا.

تستمر أصوات الجميع في العلو والتزايد، منهم من يحاول التقرب إليّ لتهديدي، ومن السيدات من تبكي، ونائب الوزير يتحدث بأسئلة للمخطوفين عن الوضع لديهم، كسرب نمل قُتلت مِلكته يتحرك الجميع في عشوائية لا يدرون التصرف الصحيح، وأين هي وجهتهم القادمة. أحتاج للهدوء حتى يتسنى بدء الاجتماع، فأقول بأعلى صوت أمتلكه محذرًا الموجودين بطريقة قاسية، مخيفة ومفزعة تزيد من ارتعابهم سوءًا:

-صمتًا أيتها الخراف.

ثم بصوت رقيقٍ هادئٍ ساخرٍ بعدما ساد خوف صامت المكان، مشيرًا الحديث على نفسي بطريقة مستفزة ومهينة لمعتقداتهم، أقول:

-هناك إرهابي يحاول السيطرة على الوضع، وإجراء اجتماع عاجل، ليعد الجميع إلى مجلسه، أعدكم سير الأمور برزانة، لن يموت الكثير اليوم إذا شغل كل منكم وظيفته بهدوء.

يعود الجميع إلى أماكنهم منكسرين لا يملكون خيارًا آخر، وأضيف موجهًا الكلام لكبار الحاضرين:

-لا أحتاج لشرح الوضع وقول الكلام الاعتيادي، الموقف يبين نفسه، لنبدأ أيها السادة المحترمون.

يتحرك النائب بالمكان إلى أجهزة الجيش -التي أعلم وظيفة كل منها- ممهدًا للضغط على زر حالة الطوارئ القصوى بالجيش، تلك الحالة التي تمهد حربًا نووية وتدخلات عنيفة من قبل دولهم الداعمة وجهاتهم الحامية، لأقول له قبل الوصول إلى الزر:

-لو كنت مكانك ما ضغطت عليه، أنتم لا تعلمون سوى مقرين للمنظمة، إذا تدمر المقرين سيُدمر لكم الأحد عشر مركز قيادة لديكم بكل الأماكن، وبذات الطريقة القاسية.

كلامي بطريقتي الثابتة الموضحة لثقتي بقدرات منظمتي أجبرته على التفكير والتجمد، فقال وزير الدفاع المنضم معنا عبر الشاشة موجهًا كلامه لنائبه:

-توقف عن التفكير والتصرف، لديهم ما نملك من الأسلحة.

الإجبار الذي تعرض له النائب تطور إلى الجلوس على كرسي أمام الجهاز بانكسار مشلول الحركة، لأضيف أنا موجهًا كلامي للوزير:

-صدقت، لكن أعتقد كوننا نملك نحن ما لا تملكون، بالمناسبة تحتاج إلى القليل من الرياضة يا سيدي.

ابتسامة على وجهي خفيفة تشمت على حال الموجودين، شعور جيد كون كل شخص بالمكان يريد تفجير رأسك لكنهم لا يقدرون، ولن تسمح الظروف لهم، يتحرك رئيس الوزراء من جلسته فيلفت انتباهنا لظهور حديثه، ويقول:

-لسنا هنا كي ننتقض أجسادنا العارية.

عيني تدور وأنا بالاجتماع حول الموجودين جميعهم، الاطمئنان بتواجد كل بمكانه يمنحني الشعور بالراحة التي أحتاجها لقيادة الحوار، النائب بمكانه، الجنود جالسون أمام الأجهزة دون حراك، لن أترك مساحة صمت بين كلام الحوار فأعود لأرد على رئيس الوزراء لتوضيح الأمور صراحةً:

-هذا صحيح، ولكن لا تطمح كثيرًا فالاجتماع ليس لكم فيه دور سوى لتعلموا بالقرارات الجديدة بيننا، لذا فتسييري للاجتماع يكون بالطريقة التي تناسبني.

تذمر من المتواجدين واضح بأعينهم الجاحظة، ثُرد كل نظرة إلقاء سهام ورصاص إلى صدري حتى أسكت، لكنهم حمقى لا يرون الصورة سوى من زاويتهم المثالية التي تحتاج الهدم وسحبهم إلى الواقع:

- بحقكم يا سادة، لا تكونوا متذمرين، نحن رجال مستوى عالٍ أروحنا راقية تتقبل وتتفهم، جميعنا بالغرفة هنا نعلم حقيقة «الأقوى هو من يحكم».

يصل غضب وزير الدفاع إلى مرحلته الأخيرة غير المفيد كونه لن يستطيع إبداءه بوضوح وهو رفقة موظف المنظمة بجواره، ليحمرّ وجههِ وتحتد عيناه وتتشابك أصابعه ويقول بصوت مكتوم:

-أنتم لستم الأقوى، لم ترتقوا لتكونوا دولة حتى، لم نلاحظ ذلك ولم تتصرفوا بتلك الطريقة من قبل، اتفاقياتنا مبنية

فقط على المصلحة المتبادلة، بل أنكم في بعض الأحيان تتصفون كعملاء تعملون لدينا ولتحقيق أهدافنا الخاصة.

بأكثر الطرق هدوءًا أعيد تصحيح كلامه وأنا واثق من حقيقة الأمور السائدة:

-لقد اختلط عليكم الأمر سيدي، نحن نبرع بما لا تتميز به الدولة، نحن لا نملك شعبًا لذا فليس لدينا نقطة ضعف، لكن لدينا ما يماثل حكومتكم، جيوشكم، مؤسساتكم ولدينا نظام مبني على القوة والكفاءة، لم نوضح كوننا الأقوى لأن ذلك ليس بمصلحتنا بهذا التوقيت، لكن في المواقف المباشرة حين تتعارض مصالحنا وقرارتنا، يمكنكم استخلاص الحقيقة بمنتهى السهولة.

يتدخل رئيس الوزراء بالحوار بطريقته السياسية التي يظنها مقنعة:

-أنت من يختلط عليه الأمر الآن، الشعب ليس نقطة ضعف، كلما انتمى إليك أفراد كلما وجدت المساندة والدعم، كلما ضمنت تواجدك لعقود وقرون طالما هناك أجيال زُرع بداخلها الانتماء إلى المسمى والمكان فيخلق كيانك والتعصب لأجلك، والإيمان بوطنك.

كلامه حقيقي، لأنه يناسب الخطط المظلمة لديهم، بالإضافة كون الانتماء لا يقبل لأن يُزرع، الانتماء شعور يُكتسب دون تدخل ما يُنتمى إليه. بطريقة تعبر عن الاعتراض أرفع قدمي على مسند الكرسي الأيسر، يلتف ظهري إلي

المسند الأيمن مستخدمًا الكرسي بهيئة أكبر من تكوينه، فلم يستطيع احتواء جسدي الممتد، حتى مع إصراري على الشعور براحة أكبر به لم يستوعب سوى مؤخرتي. أردفت وأنا بوضعيتي الجديدة على الكرسي:

-من ثم يقع على عاتقك كهل حمايتهم؟ وإذا جاء خطر يكونوا هم درع الحماية الأول، ولهم الأولوية المخاطرة، كما حدث اليوم بتلك المدينة. لا سيدي رئيس الوزراء لم أقتنع بتلك الفكرة، نكون بلا شعب أفضل بكثير.

أنظر إلى الساعة الكبيرة لأجد العقارب تقترب من الجزء القادم من الخطة، مما يدفعني لأتلفظ:

-حسنًا يبدو إذا تابعنا المناقشة سيقتلنا الوقت، الحديث معكم ممتع، والجدال بينكم مفيد وبنّاء، لكن لنغد لما هو أهم.

أُعيد جسدي إلى وضعه الطبيعي بالجلوس على الكرسي، ثم أضيف:

-منذ يومين طلبتم منّا تنفيذ مهمة، بناءً على قلة معلوماتكم تصعب التنفيذ حتى فَشِلنا، ثم تعرف نائبكم على منفذها وهو ما صادف كونه أنا، وحاول قتلي مرتين، منها بطريقة مهينة كاعتباري ضحية حرب.

إلتفت النائب إليّ مفكرًا بالهجوم، أكمل دون خسارة انتباهي بالكامل:

-وحقيقةً، التدخل من طرفكم منحني التدقيق وإعادة

التفكير فقررنا سحب دعمِنا لطرفكم إلى أخذ الموقف الوسطي بينكم وبين الجهة الأخرى بالحرب، لذا وبناءً، سيُحتم عليكم توجيه الاحترام لجهة المقاومة بطريقة مناسبة مساوية لأي دولة من دول الصفوة، والترحيب بهم على طاولة الاجتماعات، وسنحضُر كدولةٍ وسطية تلك المفاوضات دون الانجياز، وهذا لا يدع مجالًا للشك لن يحدث سوى بإيقاف الحرب وإطلاق النيران من جهتكم، بالإضافة لإدخال كافة المساعدات الإنسانية للمدن المحطمة.

هناك خيار ثابت بكل الأجهزة التي تعرض مقاطع مصورة تمكن من يشاهدها من تجميد الصورة، وأظن هذا ما حدث الآن، تجمد المشهد، الجميع يبدو تساؤله عن قواي العقلية، خصيصًا رئيس الوزراء ووزير الدفاع اللذين اختلطت أعينهم بنظرات انكسار، لا يجدا حلولًا لموقفهم، من ثم يتوجه رئيس الوزراء بالكلام:

-وما تبعيات الرفض لما تقول؟

ابتسامة تظهر على وجهي ناتجة عن توقعي الجيد لهذا الرد، من ثم أنظر إلى طارحه وأرد:

-للأسف لن ترفضوا، لا تملكون القدرة في الوقت الحالي، ربما ستعيدون حساباتكم فيما بعد وستحاولون الإخلال بالاتفاق الإجباري عليكم والانتقام منّا، لكن لن يحدث هذا بالوقت الراهن، عندها سنكون مستعدين للرد على تصرفاتكم الباطشة وهجومكم الهمجي المحتمل.

هدوء أكثر، لكن تلك المرة ليس هدوء كلام، بل صمت بعقول المفكرين أمامي، الذين لا يقدرون على إيجاد طريقة مناسبة للتصرف، لأكمل أنا محاولًا إفساد أفكارهم:

-السلام الحل الأمثل دائمًا سيادة رئيس الوزراء، خصوصًا بهذا الموقف، حاول تنفيذه بشكله الملائم هذه المرة.

نفق يُدمر بفعل زلازيل ولا يوجد سوى مخرج واحد، يتجه الآن رئيس الوزراء بالولوج إليه، فيقول:

-حسنًا، سنعلن ذلك غدًا.

أنظُر إلى الساعة مرة أخرى، تلك هي المرحلة الأخيرة بالخطة، هذا هو وقت الاقتحام، أقول مسرعًا:

-أخشى أنك ستتوجه بإعلان ذلك بالحال سيدي.

يدرك بعض الجنود أصوات بسيطة غريبة نابعة من أجهزة الاستقبال الحديثة خاصتهم، التي شوشتها أجهزتنا لاقتحام رجال منظمتي المنطقة بالخارج، حيث مبنى الشرطة ومحيطه، لكن تلك الأصوات تجبرهم على العودة بأنظارهم المسلوبة إلى أجهزتهم، ليجد أحدهم -باستخدام طريقة لكشف التشويش- اقتحام في محيط المبنى من جهة رجال منظمتي، يمهد انكشاف سيطرتهم على الحي المحيط بالمبنى، وممهدًا لتوجههم إلى أسفل. يحدث أحد الرجال النائب ليريه ما يحدث، لأسبق وصول النائب إلى الجهاز بالقول:

-أخشى أيضًا أننا سنتوجه بتدمير هذا المبنى كهدية اعتذار منكم للمنظمة.

أصوات ذُعر كامل تظهر، لم يلاحظ الجميع الاقتحام من الأجهزة، الأغلبية تلقوا الخبر مني، وبعض الجنود بدأوا في إعادة حمل أسلحتهم، لأُضيف أنا بكل هدوء:

-اهدأوا، لن يصاب أي شخص بِأذى، سئخلي المكان أولًا وأفرادنا بالخارج يقتلون فقط من يحاول إلحاق الضرر بهم، أنتم بالتأكيد لن تُجرّبوا تلك الطريقة، ستخرجون مستسلمين لطفاء ولن يصاب أحد.

يحاول الرئيس تهدئة الجميع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه حيث وجه الأمر إلى الموجودين فقال:

-فلينطلق الجميع إلى الخارج.

يتوجهون متحركين من أماكنهم إلى المخرج الوحيد بالغرفة ويضغط جندي صافرات الإنذار والضوء الأحمر ليتجه كل من في الأدوار السفلية إلى أعلى. عرج النائب إلى الشاشة بكل غضب وصوت ساخط وظهره مبان إليّ، ويقول للوزير والرئيس الوزراء:

-هذا فقط؟ فليخرج الجميع للخارج!!

يوجه وزير الدفاع الكلام المبين لقلة حيلة نائبه، فيقول:

-أتود إضافة ما يفيد؟ أتود إنقاذ الوضع؟!

يخطو النائب خطوتين إلى الشاشة كأنه يقابل الوزير

بالواقع ويتحدث بأسلوب غير لائق لمكانة الوزير العاري، ويقول:

-أنتم تهابون الموت بقدر أكبر من إيمانكم بمصلحة الدولة، نحن دولة تقودها قوانين ونظام، لن تتأثر أنظمتنا ومؤسساتنا بموت فرد أو اثنين حتى ولو كانوا القادة الكبار.

أجد تلك فرصة مناسبة للإمساك بصيدي الماكث بالماء العكر، فأقول لأزيد الأمر سوءًا:

-نائبكم لا يستطيع تقدير الموقف بالشكل المناسب.

يستفز كلامي وطريقتي النائب ليصل إلى ذروة غضبه، ويتحرك مكفهرًا:

-لا يهم كون وجود من يهدد حياتكم، بإمكاني السيطرة على الأمور هنا.

يُخرج من جانبه سلاحه الشخصي، انطلقت مسرعًا لأجلس مختبئًا ومستترًا بمكتب معدني، اصطدمت به أثناء قفزي نحوه، فسقط منه بعض الملفات والأوراق ومتعلقات شخصية، المكتب يبتعد عن الباب حاول ثلاثين مترًا أمامي، لكن إذا حاولت الخروج سأصبح تحت مرمى سلاح النائب، أجلس دون ما يُرى جزءًا من جسدي، في الوقت الذي يتوجه فيه الجميع إلى الأعلى ينفذون أمر رئيس الوزراء بالخروج في فوضى وعشوائية وضوضاء مع صافرات الإنذار وضوء مزعج ذي لونٍ أحمر. يصعب على النائب التصويب والإصابة بالتداخلات البشرية التي تحجب الرؤية، يتحدث موظف

المنظمة الذي يرافق رئيس الوزراء من خلال الشاشة ويقول موجهًا الكلام إلى النائب:

-إذا أطلقت على الرجل خاصتنا النار، لن نتردد في قتل من بحوزتنا.

لا ينتبه النائب ولم تتوقف خطواته المتوجهة إليّ، وبتلك اللحظات، يُضيف وزير الدفاع كلامه موجهًا إليّ:

-نحن لا نتحمل تصرف النائب أيها السيد، لقد عُزل عن منصبه ابتداءً من الآن، تعامل معه بقدراتك الخاصة، هو لا يمثّلنا.

وبتلك اللحظة، يطلق النائب رصاصات على شاشات الاجتماع ليُسكِت صوت حاضريه، فأستشف من خلال اختبائي دمار الشاشات معلنًا إيقاف الدعم. الموقف لم يكن ضمن الخطط، أحتاج فقط النجاة من هذا الباطش الذي لم يتقبل انقلاب الطاولة، لا يملك روحًا رياضية، لكني أتفهم شعوره، إذا كنت مكانه لتعاملت بنفس الطريقة. بدأت أعداد الأفراد التي تخرج من الحجرة الكبيرة تقل، وأنا لم أدرك بعد الطريقة التي سأخرج بها. اقترب النائب من الوصول إلى مكتبي، وقال وهو يخطو:

- قابليتي لخسارة انتمائي لم تكن بحسبان ذكائك، كان ذلك ما يقيد تصرفاتي، لا أمانع في خسارته مقابل شعور التلذذ بقتلك.

أتحرك بجسدي قليلًا محاولًا التستر أكثر، فتصطدم أصابع

يدي الملامسة للأرض بكوب مشروبات ساخنة مظهره أبيض ومضاف عليه علم الدولة، ذلك الكوب قد يكون هو سبب خروجي من الورطة، يُكمل النائب خطواته وكلامه بالقول:

-القوة منحتك القدرة على التفاوض، نازعًا الاحترام عُنوة، لكنك لن تكسب احترامي، ولا أهتم كونك أحد قادة المنظمة، ما أكترث له هو ذهق روحك، حينها سينتابني شعور الفوز بالحرب.

أخلع اللباس الداخلي وأتبول بالكوب متخلصًا من مخلّفاتي السائلة فيمتلئ الكوب بأكمله، أُضيف بعض الكلمات لتمنحني القليل من الوقت حتى يقترب لِأنفذ خطتي الارتجالية:

-شعورك بالانتصار سيُمحى سريعًا بعدما تتعرض لِأولى طلقات رجال منظمتي، لن تكتفي بالنشوة وأنت معرض للقتل معلي، فكر بطريقة أُخرى أكثر استفادة، تُرضي غرورك المكبوت وغضبك للخسارة، تمنحك وقتًا أطول يُمكّنك من تنفيذ الفوضى التي تحب، ما رأيك بإستسلامي بطريقة مهينة، أنا أعزل لا أملك سوى سروالي الذي سأرفعه لك بمنتهى الانكسار، أعلم كونك بالجيش تحب تلك الطريقة للتعبير على الخضوع.

أرفع اللباس الداخلي الأبيض مستخدمًا ملف من جواري لرفعه، لكنه يُطلق النار عليه فيصيبه ويذهب بعيدًا مع الرصاصة. اقترب من مكانه المناسب لحركتي، أحتاج فقط لتشتيته:

-حسنًا، ما رأيك بالانضمام إلى الطرف الأقوى؟ تصير فردًا بالمنظمة، لنخرج معًا بسلام وسأمنَحُك الفرصة لانتماء جديد نحو الجهة الأبرز.

يصل صوت قدمه إلى المكان المناسب، أمسكت الكوب وألقيت علي وجهه السائل خاصتي دون ظهور جسدي إليه، فتصيب رميتي للبول وجهه مباشرة، تحركت سريعًا مندفعًا بجسدي تجاه جسده فنسقط أرضًا أخذت منه السلاح بسهولة بعدما تشتت بسقوط البول عليه وبالاندفاع وأنا عار، وقفت ممسكًا المسدس بهيئتي العارية وهو ملقى مفترشًا على الأرض، أردف لرد إهانته السابقة:

-كنت أود توديعك بطريقة أكثر ملاءمة، لكن الوقت لن يكون بصالحنا.

وجهت السلاح إلى رأسهِ، كم أود قتل ذلك الخنزير، تأكدت من زرار الأمان بالسلاح، مسحوب، أتمنى لو تعود لي القدرة على القتل، تحرك إصبعي شيئًا فشيئًا مع الزناد، أتحسسه قبل الضغط الكامل، أشعر كونه سيستجيب، لكن تأتي لي فكرة أفضل لإنهاء حياته، أعيد توجيه السلاح إلى أصابع قدمه، أطلقت ست رصاصات مقسمة على القدمين، ليتعفن أسفل الأنقاض بعد تدمير المبنى.

تصيب الرصاصات مواضع الأعصاب حيث لن يقدر على الوقوف مرة أخرى. تتجانس أصوات صافراة الإنذار مع صراخه لتشكل نغمة جديدة من النوع الذي أفضل، من صوت

صراخه وتألمه تيقنت كونه لم يتلقَ رصاصات من قبل، وضع مذل كونه اعتاد إلقاء الأوامر للجنود بالهجوم وتلقي الرصاصات والموت إذا فشلت الخطة وهو يجلس خلف الأجهزة بغرف القيادة لا يتعرض سوى للتأنيب عن أفكاره غير الناجحة، والآن سيموت نتيجة خطته التي لم تجد من ينفذها فقرر تنفيذها هو وسيتحمل نتيجة الفشل وحده. يفرط الحركة أثناء التألم وهو مفترش على الأرض ثم يهدأ قليلًا ويقول بصوتٍ غير طبيعي:

-كان بإمكانك رد الإهانة التي تعرضت دون التدخل في الحرب خاصتنا، دون توجيه دعمك إلى الفئة الأضعف، لم أفهم فلسفتك، لِمَ قد تدعم تلك الفئة؟! أهو تعاطف ناتج عن مبادئ مكتسبة حديثًا لقاتل حقير؟ أم هي فقط محاولة رد إهانة!

لا يستحق هذا الشخص الاحترام والرد على سؤاله، لكن بعد تفكير الإجابة ستكون مؤلمة أكثر، أرد وأنا أبحث عن سروالي الأبيض المنزوع كي لا أخرُج كامل العُري:

-لا، أردت ذلك دون أية مبادئ، تعاطفي لتلك الفئة ما هو إلا مقابل رمزي لهدفٍ خاص.

أجد اللباس الداخلي معقوبًا من الخلف لكنه سيفي بالغرض حتى أخرج، ارتديته بجوار صندوق المهملات الملقى على الأرض بجوار باب الغرفة، لاحظت من ضمن المهملات الملقاة ملابسي التي نُزعت بالأمس حينما كنت هنا بأول

مرة، التقطها وخرجت من الحجرة مسرعًا حتى لا يبدأ رجال المنظمة بتفجير المبنى وأنا ما زلت بالأسفل، مشيت بالطرقة ممزوجًا بالإضاءة الحمراء الدالة عن وجود حالة الطوارئ، أصل إلى المصعد وما زالت صافرات الإنذار تصدر رنينها، أصعد إلى الدور الأرضي وفي طريقي اكتسيت الملابس القديمة الممزقة، يستقبلني رجال المنظمة بحفاوة ويتجهون لوضع المعدات الخاصة بتفجير المبنى، أعبر من زجاج المبنى المحطم إلى الخارج واقفًا على سلالم المبنى الأمامية، جثث جنود ملقاة وجنود آخرون أعلنوا استسلامهم يجلسون كأسرى بالجوار ويرافقهم رجال منظمتي بالأسلحة، يتزامن مع تواجدي بالخارج صرخات فرح وآهات انتصار -من سكان الضاحية المقذوفة المحتمين بمبنى الشرطة- بالشارع ففهمت إعلان رئيس الوزراء القرارات التي اتفقنا عليها.

وسط الفرحات الهستيرية لكارهي الحرب، بحثت عنها، لقد وفيت وعدي، أستأتي؟ أم انطلقت في طريقها؟ أحسبت عهدي كلامًا وليد موقف صعب تنفيذه؟! ألم تثق بي، أم حسبت كوني مجرد أبله؟! خَطَوت الدرج هبوطًا متوجهًا إلى خارج محيط المبنى، وجدت آثار الفرحة نتجت عنها حركات عشوائية من الناس بالمنطقة، الكل يعانق من بجواره، سعادة في قممها وحركات تحجب الرؤية عن من أبحث، لكنها وجدتني أولًا.

أدركها وسط الجموع تُشير بيديها عاليًا لأرها، تصل سعادتي حين رؤيتها لذات سعادة الحاضرين، تركض حتى تصل إليّ

وأنا أخطو إليها كذلك حتى بلغ كل منا الآخر، كنت أود عناقها، لكنها أبعدتني بيديها بطريقةٍ مُحرجة، تسألني سؤالًا ناتجًا عن تعجبها، فتقول:

- كيف استطعت تحقيق ذلك؟!

أجيبها بفخر دون غرور:

- بشكل مختلف عن كل المرات السابقة، استخدمت طُرُقًا أُخرى غير القتل، لكنها تحمل القليل من الإجبار والابتزاز المشروعين في هذه المواقف.

سعادة لا تتوقف عن الظهور، والفرح يكون أكبر عندما لا تتوقع حدوثه، تكمل مُصرّحة:

- ما زلت لا أُصدق كل ما حدث، لا أعلم ما الذي يمكن تقديمه إعرابًا عن الامتنان.

سأستغل ما قالت بأفضل صور، للولوج إلى شكلٍ مختلف للتعامل بيننا، لأخبرها بطلبي:

- تسافرين معي من ذلك البلد. تلك هي الطريقة المناسبة للتعبير عن تقدير مساهمتي.

تتوقف ملامح الفرحة الهستيرية لتفهم كلامي بتمعن، متفاجئة من كلامي غير المتوقع بناءً على عرضها غير الجاد وأخبرها:

- لن تصدقي إذا ما تفوهت، لإن هذا كله ليس منطقيًا، لكن صنعت كل ذلك فقط لأجلك.

يقطع كلامنا شخصٌ راكضٌ يرافقه الكلب الذي أنقذته مساءً، يحتضنها الرجل من الخلف قائلًا:

- انتصرنا يا حبيبتي!

نظرت إليها مستفهمًا بعيني عن الشخص، لتفهم نظرتي وتقول:

- أعرفك على زوجي، لم يتسنَّ لي ترتيب مقابلةٍ بينكما.

دققت في ملامح الرجل لأجده ذاته الذي فشلتُ في قتله صباحَ أمس، وجّهَت هي الكلام إلى زوجها مُحاوِلةً إصلاح خرابٍ زلزال:

- وهذا...

رفضت إكمال صفتي، تجمدت ملامحي كرجل غضبَ حتى الموت، فتلعثمَتْ وتهتهت خائفةً من تعبيراتي، فأكملت كلامها لزوجها:

- من أنقذ شعب هذا المكان..

خيبة أمل تتملكني، وفي ثوانٍ من صمت أبحث عن إجابة سؤال بداخلي، هل أريد قتلها؟ رفضت مشاعري المستحدثة الفكرة، بعدما جزعت من تخيل عقلي لمنظر انفجار رأسها، أو تطاير الدم من عنقها، أو سقوطها باستقرار رصاصة بقلبها ودمها المسفوح على الأرض، الأقرب للموت هو هذا الشخص الواقف بجوارها الذي يتضح عليه العمل مع المقاومة هو الآخر، لكن بقليل من الحكمة التي استحدثت عقلي، توصلت

لحقيقة من سؤال طرحته الغيرة بداخلي والمقارنة التي نشأت في مخيلتي بيننا، مَن أولى بلين قلوبنا لمرافقته؟ شخص يزهق أرواحًا، أم هذا الذي يحاول تغيير العالم؟ جميعنا نهرب من ملك الموت، لكن نسعى لإبصار ملاك الرحمة، وكلاهما ملاك.

قررت عدم قتلهم، مددت يدي لمصافحتها فتوقعت الحسن من الأمر فصافحتني، لأجذبها إليّ بقوة هامسًا في أذنها محذرًا:

-إذا لم ترحلا خلال ثوانٍ فسأقتلكما معًا.

ابتسمت ابتسامةً تحسبه مزاحًا، وفي نفس الوقت تذكرت إخباري لها البارحة بلعنة القتل التي أصابتني، فتكلمت:

-أنت لا تستطيع القتل...

أخرجتُ مسدسًا وهي تتكلم وأطلقتُ النار على رأس الكلب رفقتهم ليسقط توًا، ركضت مهرولةً تجر زوجها وسط احتفالات الجميع وبكاء زوجها على كلبهما وينطق:

-لماذا قتلت الكلب؟ ماذا فعل لك الحيوان لتقتله؟!

تزيد المرأة من جر زوجها حتى يرحلا سريعًا دون أذى، تتوه هيئتهما وسط جموع الناس إلى التلاشي نهائيًا.

***

أمشي بخطوات بطيئة تعيسة، أفكر بالمسرحية الهزلية ونهايتها غير سعيدة، مضحك كون أعوام من الانتظار مرت

دون فائدة، بلا نهاية متوقعة، حتى الموت لم أصل إليه، لم يقع أي من التخمينات، وتلك العجوز العاهرة لم تنبئني بزواج المرأة، لو لم تكن ميتة لكنت قتلتها، لكني لا أشعر برغبتي بالعودة إلى القتل، لأول مرة لا أتحمس للمستقبل، تنفد أهدافي وغاياتي، إحباط يصيبني كلما تذكرت تمسكي بالفكرة طوال تلك المدة، ويقيني بالنجاح في كل مرة أسعى إليها، وكم المجهود الذي بُذل، وانشغال الذهن طيلة الوقت، انتهى كابوسي بخروجهِ إلى العالم ليرافقني ويؤكّد تعاستي لِما تبقى من العمر.

مزعج التحول المفاجي من السعادة والتلهف إلى المكوث تعسًا وسط فرحة الجموع حولك، كأن غيمةٌ سوداء استقرت على رأسي وترافق انطلاقاتي، تصدر البرق والأمطار الكئيبة عليّ ويجاورني ربيع وورود وشمس بازغة. بدأت ضجر صرخات الفرحة التي لا تتوقف، أود الآن قتل تلك الأصوات ومصادرها، إسكات كل تلك البهجة، أعلم الطريقة جيدًا، العودة لمنح الدولة الأكبر حق التصرف الكامل في شئونها مع عودة تأييدنا لهم، لكن لا، لا أرغب برؤيتهم موتى. إحساسي كوني السبب وراء سعادتهم يساعدني في تجاوز ما حدث، أيُعقل! أترتبت كل تلك الأحداث حتى أتدخل مساهمًا بحل قضيتهم! لأناصرهم؟! آلقدر نبيل لتلك الدرجة؟! أم هو تحكم خفي بتصرفات العالم من خلال أحد يفوقني ذكاء وخططه تصيب دائمًا! أهو إله؟ وصلت إلى زحام أفكار جديدة تستوجب الترتيب، لا، أنا أفتقر لهدوء عقلي، السكينة هي

الحل، يجدر ألّا أُرهق ذهني بعد كل ما تعرض له، أمل توغل هذا الهدوء إلى أفكاري وطريقتي، أتمناه يسيطر على طاقتي العدائية قليلًا. لا، أرغب للعودة إلى القتل. القتل يعطيني النشوة التي تبقيني متيقظًا وتمكنني من تحقيق الأهداف، لكني الآن لا أريد قتل أحد بالمكان. تيقنت ما الذي ينقُصني، أحتاج لتنظيم أفكاري المتناقضة، أفتقر عقيدة.

أمشي وسط فرحات الجموع لا أدري وجهتي. ما زلت بالحي مبنى الشرطة لكني مبتعدًا عن محيطه، ينطلق صوت أذان صلاة مما يُلفت نظري لتواجد دور عبادة عن يساري، تهدأ أصوات بعض الناس، ثم يدخلون بعد سكوتهم إلى المكان مصدر الصوت، أعرف تلك الديانة، لكنّي لم أنضم إليهم قبلًا، أرُتّبَ هذا الموقف أيضًا؟! إذا كان كل ما وقع مرتبًا، وقدَر حدوثه بتلك المدينة، ومع هؤلاء الناس الذين يتوسطهم من يحمل تلك الديانة، فانتباهي مرتب لتجربة شيء جديد لأتعرف أكثر عن ما أجهل. ثار فضولي حول المسجد وحول الممارسات التي ستحدث بعد هذا الصوت الطيب، أأدخل، أنهاية كل هذا، التدين؟! وقفت أمام سلالم المسجد الأمامية مرتبًا دخوله فضولًا لرؤية كيف يبدو الوضع بالداخل. خطوتُ خطوتي الأولى وإذا بثلاث طلقات تصيب أسفل ظهري وكتفي وذراعي، تُسقِطني على وجهي أرضًا، أميز تلك الطريقة كونها طلقات عشوائية من هاوٍ، ما هذا؟! أنا أستحق الموت على يدِ محترف. بطرف عيني اليسرى أشهده مرتعشَ الأيدي وهو يصوبُ سلاحه إلى رأسي.

4

منذ قتل أبي الروحي جلست في المقهى ذاته أمام المسجد محتفظًا بالمسدس الساقط من القاتل، وما حركني من المكان سوى محاولة دفن العجوز، وبسبب الأوضاع لم نستطع في الوقت الحالي الدفن، بالكاد وُضع بثلاجة الجثث بالمستفى، بعدما عدت ما كان يشغل بالي سوى مِلء السلاح بالطلقات، عليّ التعلم كيف أستخدم الأسلحة للدفاع عن نفسي وذويّ، لن أترك تلك الآلة يومًا، ستكون هي رفيقتي الجديدة، وجدت من يمنحني طلقات مناسبة لهذا السلاح وبذات التوقيت حذّرت الدولة من قذائف تسقط بالحي خاصتنا، أمرونا بالتوجه إلى حي مبنى الشرطة، رافقت أقاربي إلى هناك، وأنا مربوط اليد بفعل عض القاتل ليدي وإصابتي بصاعقة كهربائية أفقدتني الوعي، تسببت العضة في جرح ليس بالهين، منعتني الأحداث من النوم أفكر بكل ما وقع، مات صديقي، فشلت في مساعدته أو أخذ ثأره، ولم أعلم سوى هيئة الفاعل الغريبة بملابسه الممزقة، لم يكفِ الوقت لأدقق بملامحه. أفكر بهذا الجرح من الممكن كونه مستديمًا، ويثار ذهني باحتمالية سقوط قذائف أُخرى تتسبب تلك المرة بسقوط بيتنا، كل تلك الأفكار منعتني من النوم، حتى وصلنا إلى وقت الظهيرة باليوم التالي لموت العجوز، بالأثناء قرار قد صُدر من الحكومة بتوقف الحرب نهائيًا ومع تلك الأخبار السعيدة لم أتفاعل، أجلس فقط برصيف يقابله مسجد كالبارحة وجلوسي مع رفيقي العجوز، لكن اليوم

يختلف كل شيء مائة بالمائة. لا أشعر بأي عاطفة، أرغب فقط تعلم القتل. وبالأثناء، يظّهر الذي رأيته أمس وبذات ملابسه الممزقة وببنطال العجوز، يقف صامتًا أمام المسجد أثناء أذانه للظُّهر، لم أفكر سوى بإخراج المسدس وتوجهت إليه، أطلقت ثلاث رصاصاتٍ أسقطته أرضًا، وجهت الرابعة نحو رأسه دون الإنتباه بكم الجنود المحيطة أو بكم البشر المتواجدين وصرخاتهم عندما سمعوا الطلقات الأولى، أطلقت الطلقة الأخيرة.

لم أندم، لم أفرح، لم أحزن، لم يكن انتقامًا فقط، بل أحببت سلوكي.

تمت

شكرٌ وتقدير

لصغاري، إخوتي «نوران»، «أحمد».

لأخي الأكبر «أشرف».

لرفيق الدرب «صاوي».

وأصدقائي «مراد»، «مؤمن»، «علاء»، «أبانوب»، «أشرف»، «محمود»، «محمد»، «فؤاد»، «فاروق»، «زكريا»، «ناصر»، «إبراهيم»، «طارق»، «هلال» و«رفعت».

شكرًا لكل عظيم تقدمونه، وأرجو أن أكون موضع أمان وفخر وانتماء، أنتم جميعًا لا تبخلون بعطاء الدعم والتشجيع الإيجابي، فكنتم سببًا وراء السعي والمثابرة نحو أهدافي.

أشكركم شكرًا يكفي العالم أحبتي الدائمين.